3.1.2015




# ميرال الطحاوي

# بروكلين هايتس

رواية



دار الآداب

# ميرال الطحاوي

# بروكلين هايتس

رواية



دار الآداب ـ بيروت

# بروكلين هايتس

**بروكلين هايتس**

ميرال الطحاوي/ روائيّة مصريّة

الطبعة الأولى عام 2010

ISBN 978-9953-89-175-0





**دار الآداب للنشر والتوزيع**

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 795135 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

e-mail: rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

مضى الزمن . . ودقّت الساعة أربع دقّات

وها أنا ذا امرأة وحيدة على عتبات فصل البرد

بردانة أنا بردانة كأنّني لن أدفأ أبدًا

عريانة أنا عريانة كفترات الصمت بين أحاديث الحبّ

ثمّة ريح في الزقاق

وأنا أفكّر باقتران الزهور والبراعم ذات السيقان الرفيعة

على عتبة فصل بارد .

**(فروغ فرخزاد)**

# ١ فلات بوش

## *Flat Bush*

تراه على خرائط الإنترنت، وهي تبحث عن غرفة واحدة تصلح للإيجار، في منطقة «بروكلين». تراه في عدسة البحث «جوجل»، حارة ضيّقة مليئة بالالتواءات. تراه يتعامد على «بروكلين بريدج»، ذلك الجسر الممتدّ الطويل الذي يربط الجزيرتين. يعبر على الجسر المشاة والعربات الأنيقة والسيّاح الذين يتأمّلون من فوق الجسر غروب الشمس، وحدود «منهاتن» التي تبدو من فوقه كعكة مليئة بالشموع، تفّاحة مستديرة ومشتهاة بأبراجها المضاءة. تترك «منهاتن» المشتهاة وراءها، ومن بين كلّ الشوارع تختار «فلات بوش»؛ لأنّه يصلح لها وهي تركض حاملة وحدتها، وعدّة حقائب، وطفلاً يتسنّد عليها كلّما تعب من

المشي، وعدّة مخطوطات لحكايات لم تكتمل تضعها في حقيبة صغيرة على ظهرها مع بقيّة الأوراق المهمّة، مثل: شهادات الميلاد، أوراق الإقامة، وشهادات التخرّج، وشهادة اللقاحات الطبِّيّة من الأمراض، وشهادات الخبرة، وبعض أوراق بنكيّة، وعقد إيجار وقّعته لشقّة لم ترها.

تعرف فقط أنّ موقعها يتعامد على «فلات بوش» مع الأفنيو السابع، وأنّها تجاور الحديقة الكبيرة من عدّة جهات، وأنّها تقع في قلب منطقة قديمة في «بروكلين» تُسمّى «بارك سلوب». تبحث عن معنى «سلوب» في القاموس؛ فتجدها: «حافّة، أو جرف. والمعنى: مكان منحدِر». تتأكّد أنّها في المكان المناسب لحالتها النفسيّة، تسير في «فلات بوش» الممتدّ من الجسر غربًا حتى حدود «بروكلين» الشرقيّة. تسير معه بحثًا عن موقعها فيه. يمتدّ الشارع أمامها طويلاً عريضًا، يشهد عدّة فتحات وخطوط طوليّة تقتحمه، وتتعامد معه وتتقاطع حاملة أسماء وأرقامًا مختلفة. تسير فيه على مهل وبحذر؛ لأنّه يفضي إلى مجاهل قد لا تعرف الرحمة. ولأنّها خائفة معظم الوقت، وتصطحب طفلاً في يدها؛ فقد اكتفت بارتياد المربّع الآمن، حيث تفوح من المقاهي رائحة الأطفال والحليب والقهوة، وتجرّ جليسات الأطفال، السمراوات في الغالب، عربات الرضّع، وهنّ يتحدّثن في الغالب أيضًا في الهواتف المحمولة، ويغطّي صوت قهقهة مرتفعة على صراخ الأطفال المتضرّرين داخل عرباتهم.

تتكاثر المطاعم والمقاهي في الحارات المتقاطعة، التي تتبارى في إضفاء هذا القِدم وهذه الأناقة الكلاسيكيّة التي تبدو واضحة في طُرز وحقب الأثاث الخشبي، ألوان خشب المقاعد، الصور الزيتيّة القديمة التي تصبح جزءًا أساسيًّا من طبيعة المكان. تسير في الشوارع حيث يبدو الولع بكلّ ما هو قديم، أو يوحي بذلك، هوسًا في كلّ مكان، هوسًا يرافق رائحة القهوة والنظّارات الطبِّيّة، وأرق الكتابة والركض على الأرصفة لفقد بضعة كيلوجرامات، وتمشية الكلاب الأليفة المدلّلة بأناقة، والتنزّه أثناء التفكير بعمق في المراحل المختلفة لكتابة نصّ، أو تأليف مقطوعة موسيقيّة، أو حتى للاسترخاء استعدادًا لجلسة «ريكي» أو «يوجا».

تتأكّد حين تراهم حولها أنّها اختارت المكان المناسب تمامًا لمزاجها النفسي، حيث يبدو كلّ ما حولها بالغ القدم، يثير الحنين. ويبدو كلّ مَن حولها مشغولين في عمليّة الخلق الكوني. كلّهم كُتّاب كما تحلم بأن تكون، يحملون حقائب مكدّسة بمخطوطات أحلامهم، ويبحثون عن الوكلاء الأدبيّين ودور النشر، ويحترمون المحرّرين الصغار في صفحات الأدب؛ لأنّهم سيكتشفون موهبتهم بالمصادفة، ويكتبون عنهم باقتضاب؛ فتتحقّق أحلامهم دفعة واحدة. إنّها تنتمي الآن إلى المكان المناسب، حيث ترى من بعيد أناسًا يشبهونها تقريبًا، ولو من بعيد؛ فقد

حلمت فقط بالكتابة وظلّ ديوانها الوحيد «لا أشبه أحدًا» أوراقًا محفوظة في حقيبة يد بيضاء قديمة ورثتها عن أمّها.

* * *

كانت تجرّ حقائبها الكثيرة دفعة واحدة، لتصل إلى مدخل المبنى الجديد الذي استأجرت فيه شقّتها، حين توقّف فجأة جاذبًا يدها، وقال: «ممكن أشتري حاجة آكلها؟». ثم أفلت من يدها إلى الدكّان المجاور لرصيف البيت، واندفع حيث البائع ـ الذي اكتشفا بعد ذلك أنّه من أصل يمني ـ وقال له باختصار وسرعة أذهلتها: «راوند روستد كريمي تشيز بيجل، وسموزي ستروبري كرامبري جوس». بدا لها الطلب طويلاً عريضًا كـ «فلات بوش»؛ أخذ منها وقتًا طويلاً لتأمّل مفرداته. تعثّرت كالعادة في فهم ما طلبه، وتعثّرت في عدّ النقود الفضِّيّة التي لا تعرف قيمتها حتى الآن، وتعثّرت في إيجاد كلمات مناسبة تدعوه إلى التعقّل في قراراته الشرائيّة، ووعظه بحكمة التشاور فيما بينهما قبل طلب الأشياء، لكن قبل أن تبدأ موعظتها بقولها: «يا حبيبي، لماذا لا تسألني أوّلاً؟ افترِض أنّ ماما ليس معها نقود كافية». ردّ بحنق: «ماما. أنا طلبت سندوتش جبن وكوب عصير... يعني أنا طلبت إيه يعني؟»، تعثّرت في الردّ على تعليقه الذي بدا حادًّا ومباغتًا، وظلّ ريقها المرّ يستحلب ذكرى واقعة «البيجل»، ومخاوف التهوّر الشرائي في «فلات بوش» المليء بالمغريات.

البيت الذي سكنته أيضًا لم يكن على مقاس أحلامه. مجرّد علبة كبريت لها نافذة على الشارع. ظلّت تقنعه بعد ذلك أنّها اختارت له أجمل مشاهد بروكلين على الإطلاق. فمن النافذة يستطيع أن يلوّح لمستر «فلافل» البدين الذي يجلس أمام مطعمه على كرسي خشبي ضخم، يضع عن يمينه تمثالاً خشبيًّا لـ «توت عنخ آمون»، وعن يساره تمثالاً خشبيًّا مماثلاً في اللون والحجم للملكة «كليوباترا».

يضع التمثالين صباحًا، علامةً على ترحيبه بروّاد المطعم، وتشاهده وهو يحملهما مساءً، إعلانًا عن إغلاقه. بالطبع، لم تحاول أو ابنها المرور من بين التمثالين قطّ، لأنّ مستر فلافل يبيع السندوتش بعشرة دولارات. لذا فقد اكتفيا بمراقبة حركة الإغلاق والفتح من نافذتهما، والتطلّع من الطابق الثالث إلى حيث يجلس مُحاطًا بتمثاليه، والابتسام له.

إلى جوار مستر «فلافل» مطعم صيني صغير، يُسمّى «توفوا». كان من أسوأ التجارب التي عاشاها على الإطلاق. جلسَا طويلاً أمام منضدة فقيرة، وتبادلا كؤوس الماء من وعاء صاجي وُضِع بإهمالٍ على الطاولة. وكالعادة تركته يتهوّر في وصف طلباته التي لم تعد تدهشها. اكتفت بتأمّله وهو ينطقها بسرعة وسلاسة، وبخبرة لا تعرف من أين اكتسبها. . «فيجي مشروم زوكيني نودلز». واكتفت بهزّ رأسها تأكيدًا لطلبه. تكوّمت هذه الأشياء في سلطانيّة

صغيرة، تناولها بانزعاج بعد أن سكب بعض الصويا صوص الأسود عليها، وتهوّرت بفتح حبّات التوفو التي جاءت في أكياس بلاستيكيّة شفّافة، وقضمت العجين الهشّ الذي لا طعم له، ثم لفظته بسرعة، وقالت: «إيه ده؟». ضحك الولد الصغير وقهقه.. «ماما ده مش للأكل. ده تشوفي بختك جوّاه».

كانت تريد أن ترى حظّها في أيّ شيء. أبراج البخت وأوراق الحظّ المسمّاة «تاروت» والكوتشينة، وكفّ يدها أحيانًا. جبينها لا يمنع، إذا كان هناك من يستطيع قراءته. لكنّها لم تتوقّع أن تجده داخل قطعة العجين المقدّدة، على ورقة صغيرة ملفوفة بطريقة حلزونيّة دقيقة، تفتحها بعناية من يخاف على قدره ومصيره الذي تحمله اللفافة، ثم تقرأ.. «ما ينتظركِ ليس أفضل ممّا تركته وراءك». قطّعت الورقةَ نتفًا صغيرة، وقذفت بها في كوب الماء، ومشت، ومشى خلفها:

ـ ماما، هل أنت غاضبة منّي؟

ـ ماما أنا أخذت فلوسًا كثيرة؟

ـ ماما هل أنت غاضبة؟

تمشي. ويركض خلفها، باتّجاه علبة صغيرة صارت بيتًا لهما.

في الليل تفكّر أنّها صارت تنسى كثيرًا، تنسى العناوين

والأوراق والأحداث، وأنّ ذاكرتها الحادّة أصابها العطب، وأنّ التي تصوّرت أنّ النسيان نعمة كبرى، صار يطاردها كشبح مخيف.

تحاول رسم صورة للبيوت التي عاشت فيها بعد ذلك، لكنّها لم تعد تتذكّر. تعرف أنّها الآن تعيش في بيت يحتضن الشوارع كلّها. فهو مثل علبة الكبريت الزجاجيّة. يراها الناس وتراهم طوال الوقت يركضون، يشربون، يقبّلون رفيقاتهم. بيت تتأكّد فيه وحدتها، وقدرتها على الهرب؛ تسير في «فلات بوش» كثيرًا، وتتفقّد الأماكن التي عاش فيها غيرها والتي قد تجد فيها جغرافية بديلة لذاكرتها التي صارت تهرب منها، وتترك فراغًا تامًّا.

«متحف بوش» على ناصية الشارع الذي يسكنان به. تعرف أنّ السيّد بوش كان صاحب الفيلّات والشارع في زمن ما. تصحبه في يدها ويدخلان. البيت قديم. سكنه إقطاعي إيرلندي اسمه السيّد بوش. البيت الذي لا يزال على حاله، يضمّ حديقة واسعة متّصلة بالحديقة العامّة. مضخّة المياه الجوفيّة، غرفة الشاي وغرف النوم العلويّة، المدفأة والجدار المرصّع بلوحات السيّد وأولاده، ومن خلفه خدمه وعبيده في الظلال، يفركون الأرض الخشبيّة أو يصبّون الشاي من الأباريق الأنيقة، ويسكنون هناك قرب مرابط الخيل على القشّ الذي لا يزال متكوّمًا.

تفقّدت في المتحف عدّة لوحات لبروكلين القديمة، حين كانت جزيرة مليئة بالمزارعين، ومحطّة من محطّات السفن التي

تبحث عن خليج ترسو فيه. تراها أجرانَ قشٍّ ومزارعَ ممتدّة وحقولاً مليئة ببقايا سفنٍ خالية من البشر. إذا خرجت من المتحف، وعبرت الحديقة، ومشت في الحارات الضيّقة التي يسمّونها «الجرين فورت» أكبر تجمّع للسود في «بروكلين»، رأت السيّدات السمراوات يجلسن على أبواب البيوت، ويتحدّثن بصوت عالٍ، لكنّها لن تفهم منه شيئًا لأنّه سريع، ومليء بالقهقهات التي تشبه ضحكتها، ويدخّنّ السجائر مع خلفيّة موسيقيّة عالية تأتي من إحدى النوافذ، من هذا المربّع الذي لا يزال يبيع الملابس الأفريقيّة، وألوان الشطّة والبهارات والعطور والروائح، وعقود القارّة السمراء الحارّة التي جاءت منها أيضًا. في الليل تسمع من تلك المنطقة ضجيج الانفجارات الناريّة والبالونات، وصياحًا مليئًا بالحماسة المباغتة، وصوت هتاف عميق يهزّ «فلات بوش» ويوقظه. تفتح النافذة وتضحك مصفّقة بكلتا يديها كالمجنونة. فتح الكثيرون نوافذهم وراقبوا الألعاب الناريّة، وبالونات طائرة، تحمل صورة «أوباما»، تطلقها منطقة «الرد هوك» Red Hook التي لم يعرف أهلها النوم. على إثر الألعاب الناريّة، خرج الناس في الشوارع حاملين خارطة «بروكلين» القديمة؛ قبل أن يُقام الجسر العظيم، كانت مجرّد بيوت صغيرة وفقيرة، يقطنها العبيد والسود والمهاجرون الباحثون عن عمل في مصانع الحديد والزجاج والبلّور، والفقراء الذين يعملون في الحقول. منذ مجيئها وهي ترى اللافتة الزرقاء تملأ الشوارع الكبيرة والصغيرة (Change) التغيير.

تضعها هي أيضًا على صدرها كشارة لكلّ المراحل المقبلة التي تحلم بها، ويضعها طفلها على حقيبته المدرسيّة، يضعانها لأنّهما، كالآخرين، يريدان التغيير، ويحلمان بالكلمة الملاصقة لها في الشارة (Hope) الأمل. ويطاردان مزيدًا من الكلمات الأخرى التي يردّدها الجالسون في مقاهي «بروكلين» بحماسة؛ لأنّ ذلك يشعرهما بأنّهما صارا جزءًا من هذه الخارطة، جزءًا من آمالها العميقة.

خرج طفلها من تحت الأغطية، وفتح عينيه متسائلاً:

ـ ماما إيه اللّي حصل؟

ـ «أوباما» فاز.

ابتسم، ثم أغمض عينيه ونام. وظلّت في النافذة، تراقب الألعاب الناريّة، تراقب البهجة، ثم التعب، ثم أشعّة الفجر على «الأفنيو» الذي امتلأ بزجاجات البيرة، وصوت آلات التنظيف العملاقة. ثم الصمت الذي يرافق لحظات الشروق المتعَبة من السهر. بعدها يعبر الباص المليء بالعمّال النازحين إلى «منهاتن»، يركض الموظّفون إلى المترو، وتتصاعد روائح القهوة من النوافذ، والمقاهي، وعربات «الدونتس». في الصباح هزّها من كتفها، وسأل السؤال مرّة ثانية:

ـ «أوباما» فاز.. صحيح يا ماما؟

ـ أيوَا.

يركض وراءها من الغرفة الضيّقة إلى المطبخ الأضيق، وهو يعدّد قائمة آماله التي علّقها في رقبة «أوباما». تقف ساهمة أمامه، لأنّها تخشى أن يتّهمها بإهماله وينهمك في البكاء كعادته، تهزّ رأسها وتكتفي بكلمة «أيوَا» التي صار يكرهها، وهي لم تعد تملك غيرها؛ لأنّها كلمة لا معنى لها، ولا تؤكّد النفي أو الإيجاب، تعني فقط: وماذا بعد؟

ـ أنا لازم أقول لـ «أوباما» إنّ هناك أشياء كثيرة لازم تتغيّر.

ـ طيّب.

ـ لازم يغيّر «الإنفيرومنت»، و«الرين فورست»، و«جو جرين إفري وير»، ويغيّر «مصر». ممكن؟

ـ إن شاء الله، كلّ حاجة ستصبح خضراء.

ـ أنا ممكن أعمل انتخابات وأفوز زيّ «أوباما»؟

ـ كلّ شيء جائز.

ـ أكون رئيس «اليونايتد ستيتس»؟

ـ كلّ شيء جائز.

ـ الآن؟ ناو؟

ـ كلّ شيء بميعاد يا حبيبي.

تشعر أنّها أصبحت أكبر سنًّا، وأنّها كانت تسمع تلك الكلمات المستسلمة والحذرة، والتي لا تعني شيئًا في الحقيقة. كانت تسمعها من أمّها التي كانت تعقيباتها تأتي متواترة «إن شاء الله.. كلّه بأمره.. من يعرف؟ كلّه بأوان..». تتأكّد من أنّها صارت تشبه أمّها أكثر، خصوصًا بعد أن قصّت شعرها ليصبح قصيرًا أسود فاحمًا، وأنّ لشعرها رائحة الصبغة اليابانيّة «بايجن» التي كانت أمّها تفضّلها لتخفي بها الشيب، وأنّ مشيتها أيضًا صارت لها تلك الحركة البطيئة المسالمة المتعبة، تمامًا مثلما كانت تراها في نهاية اليوم متعبة ومجهدة، تستعمل قاموس المسلّمات الوجوديّة، لتكبّل أحلامها بأن تصبح مضيفة طيران أو عالمة فضاء، بأن تقول لها ضاحكة «العلم عند الله يا بنتي وكلّه بأمره».

تتركه يكتب خطابًا طويلاً لأوباما. تتذكّر أنّها كانت تكتب خطابات كثيرة لربّها، وأنّه لم يردّ أبدًا، ومع ذلك ظلّت تعتقد أنّه سيحقّق أحلامها.

تأخذه من يده وتمشي. تمشي كثيرًا لأنّ اليوم يوم عطلتهما الأسبوعيّة. تمشي لأنّ الغرفة التي تسكنها مقبضة، ولأنّها لا تستطيع النوم ليلاً، ولأنّ روحها القلقة تجعل الاستكانة التي في عينيها مخيفة. حين يعودان في نهاية النهار سيجلس إلى جوارها يتابع شاشة التلفزيون، وهي تدفن رأسها في الأغطية أكثر وتحلم

بهم، تحلم بحياتها التي تنساها وتضيع من يدها.

اسمها «هند»، لكنّ لها أيضًا ألقاب تدليل كثيرة. كلّ ما تتذكّره من ألقابها كان «يا ثرمة» حين سقطت أسنانها في مراحل التبديل المختلفة للأسنان، و«يا أمّ ضبّ»، لأنّ فكّها العلوي أكثر بروزًا من السفلي، و«يا عوجة»، لأنّ يديها لم تكونا تستطيعان الإمساك بالأشياء كما ينبغي ليدين. تنزلق الأشياء من يدها وتنكسر لأنّ عقلها يشرد بعيدًا، وتتحوّل ـ مع تلك القسوة التي تُنطق بها الألقاب ـ إلى دابّة حرون، تتحوّل علاقتها بأمّها إلى جحيم. تنفجر عادة بعد كنس دموعها مع بعض التنهّدات، تصرخ في وجه الأمّ سائلة إيّاها: لماذا لا تحبّها؟ أو أنّها ليست أمّها بالتأكيد. وربّما تمادت أكثر بالتعبير عن سخطها بكلمة متكرّرة وعنيدة «باكرهك.. باكرهك». وغالبًا ما يتطوّع أحد بالتدخّل ليعلّمها الأدب. بعدها تندلع معركة تخرج منها بمزيد من الخدوش.

لم تكن قادرة على الاستسلام المبكّر في مثل هذه المعارك، تناوش بكلمات وخربشات تنتهي عادة بأن تتلقّى على وجهها عدّة صفعات، ينزف على إثرها أنفها المحدودب الطويل، بعد اللطمة القاسية. تركض وتدسّ رأسها أسفل الفراش الخشبي الواطئ، تسمح لنفسها أن تبكي بمرارة، تشهق بالعة حسرتها، حين يأتي صوت حذاء مفضّض بريش نعام، اشتهت هند مرارًا أن يكون لها مثله. ترى من أسفل الفراش كعب الأمّ الأحمر المصقول،

وقميص نومها المحلّى بالدانتيل. يكون الليل قد حطّ، ورائحة سيجارة أبيها تأتي من الغرفة القريبة. بعد حِران طويل، تمدّ الأمّ ذراعها لتمسّد شعرها، وتضمّها إليها قائلة: «تعالي يا ستّ البنات». تكزّ هند على شفتيها مبتلعة دموعها، وتردّ: «إنتِ مش بتحبّيني». تضمّها الأمّ أكثر إلى أحضانها: «أنتِ هَبْلة؟ فيه حدّ لا يحبّ بنته؟ أنا ليس لديّ أغلى منّك». هنا يتأكّد لهند بؤسهما التامّ كلتيهما.

لكن، برغم كلّ محاولات الترويض تلك، لم تكن هند قادرة على أن تكون ـ كما اشتهت الأمّ ـ راضية وحمولاً ومطيعة، كي تستطيع أن تعيش في غابة من الذكور. وبرغم كلّ التعليمات الحذرة: «إنتِ بنت. تِسْلكي في الدنيا ازّاي براسك الناشفة دي؟». لكنّ «هند» لم تستطع أن تكون ذلك. وكلّ ما اكتشفته هو أنّ تلك المرأة التي تروح وتجيء في ردهة البيت بروب بلون العسل، هي أمّها لأنّها تشبهها تمامًا، تشبهها الآن بعد أن عرفت معنى الغيرة والهجران والوساوس، لهما الأنف الطويل نفسه، المتعَب من أثر الدموع، وأنّها تمسك بأسفل ظهرها دائمًا من أثر الولادات الكثيرة، وأنّها تبدّل قِرَب الماء الساخن كي يسكن الألم، وأنّها دائمًا بانتظار أبيها الذي يجيء متأخّرًا، وأحيانًا لا يجيء. وتأتي لها الخادمات بحكايات عن زوجها لا تودّ تصديقها، وأنّ الصباح يكشف أرق عينيها المتعبتين، ويجعل براكينها تنفجر بلا موعد.

تعرف هند أنّ أمّها إذا استيقظت بهذا الأرق، فإنّ انفجارًا وشيكًا سيحدث، وستكون هي، باعتبارها البنت الوحيدة، ضحيّته. سيقودها ذلك إلى أسفل الفراش ثانية؛ لتذرف مزيدًا من التنهّدات، وتتلقّى مزيدًا من التهديدات بتكسير رأسها الناشف. لم تكن بريئة تمامًا في تلك المناوشات، فهي قادرة على تحدّي الأمّ بعينين جامحتين ومخيفتين أحيانًا، كما أنّها قادرة على إثارة غضبها بدأبها على العبث بكلّ أشيائها، خصوصًا المغلقة، كعلب المكياج والأوراق المدسوسة بعناية في الأدراج، كتلك القصاصات التي تجمعها الأمّ من «طبيبك الخاصّ»، و«حوّاء»، وغيرهما من المجلّات عن مشكلات الحياة الزوجيّة، وكيف تستأثرين بحبّ زوجك بوضع الكولونيا في ماء الاستحمام للتخلّص من العرق، ووضع أوراق المِستكة في طيّات الملابس الداخليّة، كي تكون زكيّة الرائحة، وكيفيّة عمل الحلوى للتخلّص من الشعر الزائد. . ، تلتهم ذلك كلّه بفضول، غير عابئة بتعليمات أمّها. لم يكن يغفر لها هذا التلصّص غير تفوّقها الدراسي الملحوظ، حيث استراحت الأمّ للاعتقاد بأنّ شيئًا قد يكون مناسبًا لها، كأن تكمل تعليمها مثلاً. ولم تكن تُداري قلقها على مصير ابنتها، والتصريح بالقول لها إنّها ليست جميلة، فلا تعتمد على ذلك وليست «عِذْلَة» أي تجيد أعمال البيت ببراعة، «وأبْصَر مين يرضى بيها».

تزوّجت هند منذ عدّة سنوات وأنجبت وسكبت الكثير من العطور على الوسائد، وتركت جلدها المرن اللدن ناعمًا ومحبّبًا، وطبّقت كلّ الوصفات التي تعلّمتها، مثل كيف تحتفظين بزوجك، وبدّدي السأم بتغيير ألوان ملابسك الداخليّة، والغيرة الحلال. لكن كلّ الوصفات أدّت إلى النتيجة التي تكهّنت بها أمّها منذ زمن طويل، وتمحورت حول كونها ليست «نِطْلَة»، بعد أن وجدت معنًى جديدًا لهذه اللفظة، وهو أنّها لا تعرف عن الحياة ولا الرجال شيئًا.

بعد زواج لم يستمرّ طويلاً، وبعد سلسلة من النزاعات الأسريّة الصغيرة، مثل خبط الأبواب، والعبارات الجارحة مثل «أنا لم أحبّك قطّ»، و«مش عاجبك مع السلامة»، و«أنتَ حقير.. وأنتِ تافهة»، وتطوّر المناورات الكلاميّة إلى حَمْل الحقائب، والدموع، وتلصّص الجيران، وتدخُّل الأصدقاء... كان كلّ ما يهمّ هند في حياتها الزوجيّة القصيرة هو تلك الحقيقة التي صارت أوضح: أنّ على واحد منهما أن يختار النهاية التي تناسبه.

ذات صباح، وبعد أن أنهى زوجها حمّامه الصباحي، وأراق كثيرًا من العطور، واختار ملابس داخليّة من القطن الأبيض التي ما زالت ناعمة ومخمليّة كليلة غرام أولى، ووضع بيجامة من الحرير الأسود، وعددًا من الواقيات الذكَريّة في حقيبته، خرج ولم يعد ثانية. بعد عدّة أشهر وضعت في عدّة حقائب كلّ ما تبقّى لها في

البيت، وغلّفت الأثاث بالواقيات البلاستيكيّة وجرّت حقائبها ومضت. كلّ ما تركه لها الزوج كان تأشيرة سفر سمحت لها بدخول البلاد البعيدة، وطفلاً يجرّ بدوره حقيبتين، وضع فيهما ما سمحت له به من لعب خفيفة وصغيرة قابلة للحمل، وسكَنَا شقّة صغيرة على ناصية «فلات بوش» مع الأفنيو السابع. واستراحت لهذا الخيار، وقالت كما كان أبوها يقول: «اللّي تجيبه ريح الشمال تأخذه رياح الجنوب». هكذا وجدت نفسها بين ريح الشمال وريح الشرق والجنوب معًا، وحيدة وبائسة. وعلى الرّغم من وحدتها التي تجسّدت بكلّ المعاني المؤلمة، فقد كانت ترى النساء حولها ـ أصغر قليلاً أكبر كثيرًا ـ من بلاد الله التي لا يعلمها سواه، مثلها تمامًا ويشبهنها إلى حدّ موجع ومخيف ومؤنس في آن. صارت تعبر كلّ يوم ميدان «فلات بوش» إذا أرادت أن تذهب إلى المترو أو المكتبة العامّة. تذهب إليها كلّ يوم لتتأمّل صور الكتّاب الذين حلمت بأن تكون مثلهم. تراهم على الجدار يؤنسونها أيضًا؛ لأنّهم كانوا مثلها يعرفون أنّ الحياة ليست جميلة. تجلس على طاولة كُتِبَ عليها (تعلّم الإنجليزيّة)، وإلى جوارها لوحة رماديّة لوجه أينشتين، كُتِب تحتها «أينشتين أيضًا كان لاجئًا». تترك وجه هيمنجواي الذي كان أيضًا لاجئًا، خلفها، وتجلس مرتبكة إلى جانب آخرين أقلّ ارتباكًا منها.

اسمي هند. جئت من القاهرة ـ لا أعرف بالضبط لماذا؟ أحاول تعلّم الإنجليزيّة. أحبّ اللغة العربيّة، أدرّسها، أشعر أنّها فقط لم تعد كافية، أشعر بخجل كلّما كان عليَّ أن أتكلّم بالإنجليزيّة. حتى الكلمات الصحيحة التي تعلّمتها، عادةً ما أنطقها بطريقة تجعل الآخرين لا يفهمون ما أقول. أذهب دائمًا إلى أماكن المثقّفين، وأدّعي أنّني واحدة منهم، لا أفهم تمامًا ما يتحدّثون عنه. أجلس على المقعد البعيد كي لا يسألني أحد، ولا أجد نفسي مضطرّة لقول شيء، أشعر أنّ عبارة «لا تؤاخذيني، ماذا تقولين؟» التي أسمعها طوال الوقت، صارت تجلدني، وأنّ لديّ مشكلة مزمنة مع التواصل. أدرك أنّ كوكب «بلوتو» في برج الجدي، أي في المنزل السابع في مواجهة برج السرطان، أي منزل التواصل والتفاهم. ربّما يجعلني هذا غير مفهومة؛ لأنّ طاقة «بلوتو» المعاكسة في مواجهة برجي الفلكي. أشعر أنّني غبيّة وجاهلة أكثر من أيّ وقت مضى في حياتي، وعليّ أن أُعيد حساباتي مع أشياء كثيرة.

يقدّم الآخرون أنفسهم بطريقة أبسط وأوضح..

ـ «فاطيما» من مالي، ٢٤ سنة، تربّيت في فرنسا، جئت في زيارة بعض الأقارب أعمل بائعة في محلّ.

ـ «إميليا»، جئت من روسيا منذ عشرين عامًا مع زوجي، أنا

كبيرة جدًّا لم أعد أعرف كم سنة مرّت عليّ. . أحبّ أن أجد أحدًا أتكلّم معه.

ـ «فريدناز»، باكستان، ٢٢ عامًا، متزوّجة حديثًا، وجئت لأعيش مع زوجي.

ـ «إليهاندرو»، من بيرو، سوبر في عمارة.

ـ «نازهات»، أنا من بوسنيا ـ أي «البوسنة». كنت أعمل طبيبة. سنّي ٥٥ سنة.

ـ اسمي «دويج»، جئت من هاييتي، ١٨ سنة، عاملة نظافة.

ـ «سعيد»، اسمي «سعيد»، قبطي مصري. أعمل سائق ليموزين.

دائمًا ما يتغيّرون. يأتي بعضهم، ويترك بعضهم المكان لشخص جديد. بعد حصص الدرس، يبيعون موادّ التنظيف ومساحيق المكياج. دائمًا ما يتعرّفون بطرق أسهل إلى بعضهم، لكنّهم يتبادلون معها كلامًا مقتضبًا، كأنّها في الحقيقة ليست منهم، أو ليست معهم. بعضهم يسألها: أنتِ مُسلِم؟ (هكذا، بصيغة المذكّر). تهزّ رأسها مبتهجة، لأنّ ثمّة روابط محتملة قد تُدخِل إلى حياتها بعض الصداقات أو المعارف. تضطرّ أن تتحدّث عن بلدها لتحدّد مكانها بين «إسرائيل» و«مكّة»، حيث تتركّز معظم

الاهتمامات الجغرافيّة. تضطرّ أن تظهر بعض جهلها، وهي تسأل عن موقع هاييتي أو البيرو. يتبادلون خبرات الاغتراب في النهاية، مثل أقرب مكان للتسوّق الرخيص، وفرص العمل، ومواقع الطعام المجّاني، ومكاتب الضمان الاجتماعي؛ أسعار الغرف وإيجارات الشقق، وأماكن بعض النزهات القصيرة غير المكلفة، مثل ساحل «شيبست باي» العريض الذي يجاور آخر محطّات المترو المتّجه إلى «بروكلين». هناك يجلس المغتربون على الأرصفة المائيّة التي تذكّرهم بالموانئ ومحطّات السفر؛ يقضون الوقت المتّسِع أمامهم في صيد الأسماك من المحيط الذي يفصلهم عن بلادهم. يتأمّلون السفن العابرة، وتمثال الحرِّيّة البعيد، وجسر جزيرة «لونج آيلند» وأطراف «نيوجرسي». يدخّنون السجائر، ويتحدّثون عن الوطن والفيزا، والتأمين الصحّي، والضمان الاجتماعي.

تتعرّف في الدرس إلى كثيرين من العرب الذين جاؤوا حديثًا من المغرب، أو الجزائر، وحتى السودان واليمن، ولا يتبادلون معها كلمة واحدة عربيّة، يقولون لها، إذا حاولت التحدّث معهم بالعربيّة: (أنا أتكلّم اللهجة). وينخرطون في تبادل جمل إنجليزيّة ركيكة، ويدّعون عادة أنّهم لا يعرفون بعضهم بعضًا على الإطلاق لأنّ العالم العربي واسع ومتعدّد ومختلف، ولا يشبه بعضه بعضًا. تحاول تصديق ذلك، وتقول إنّها مدرّسة لغة عربيّة، مدرّسة لغة

منقرضة بائدة، لكنّها لا تعرف كيف تحبّ لغة بديلة، لأنّها للأسف تتعلّق بالأشياء بشكل جنوني وكلّ ما أحبّته في حياتها يستعصي على النسيان.

تحمل أوراقها، وتعبر «فلات بوش» وهي تحدّث نفسها. تتحدّث كثيرًا بلغة غامضة خفيّة منقرضة تجعل المارّة يحدّقون فيها. تجلس على المقعد الخشبي أمام مدرسته؛ تحتسي بعض القهوة، وتدخّن سيجارة وتنتظره. ثمّة برد يخترقها. لا تنجح السيجارة في اختراقه. تراقب البرد الذي يتكاثف حول وجهها ويحوّلها إلى امرأة خريفيّة مجهَدة، امرأة وحيدة وعارية، لا تشبه أحدًا. يأتي على مهل، ويقترب منها بحذر ولا يقبّلها. يضع يده في يدها برفق؛ ليسيرا أحدهما إلى جانب الآخر متماثليْن في الطول والحركة. يباغتها بأسئلة لا تجد إجابة لها:

ـ ماما أنتِ لم تصفّفي شعرك؟

ـ يعني؟

ـ أنتِ شكلك أصبح غريبًا يا ماما. لماذا توقّفتِ عن وضع مكياج على وجهك منذ أن جئنا؟

ـ ربّما لأنّه ليس لديّ وقت.. ربّما.

ـ ماما، أنت فقط لا تهتمّين بنفسك.

ـ ربّما. المهمّ أنّني ما زلت أهتمّ بك. عملت إيه النهار ده؟

ـ عملنا مظاهرة وكتبنا Change، وامتنعنا عن الأكل.

ـ لماذا؟

ـ أكل المدرسة ليس جيّدًا. كلّ يوم الأشياء نفسها، وكده.. عملنا احتجاجْ، وكتبنا أنّنا نريد بيتزا وهامبورجر وآيس كريم، ورفعنا صورة «أوباما» وكتبنا Change.. وأنتِ كمان لازم تغيّري يا ماما..

ـ إزّاي؟

ـ يعني شعرك، وشكلك، وكده..

ـ يعني ماما خلاص مش عاجباك؟

ـ لا يا ماما، لكن أنتِ لازم تغيّري.. أنتِ طول الوقت حزينة، وساد sad.

ـ طيّب.

ـ لكن يا ماما لمّا تغيّري لبسك، وكده... توعديني إنّك لن تحبّي شخصْ تاني. ممكن تخرجي مع أصحابك وتنبسطي، يعني تعملي «هانج أوت» مع أصحابك..

ـ ماشي..

ـ لكن لو حدّ سألك من أصحابك: ممكن نعمل «ديت»؟ قولي: لأ. Date معناه تتجوّزي، وكده.. وأنا مش عايزك تحبّي حَدْ تاني..

ـ حاضر.

ـ أنا ح افضَل أحبِّك على طول.. لكن في «الهاي سكول» ممكن أبدأ أعمل «ديت»، وأخرج مع «جيرل فريند»!

ـ طيّب... لمّا نوصل «للمدرسة الثانويّة» يحلّها ربّنا..

ـ لكن أنا عمري ما ح أسيبِك. وحازورِك على طول. وممكن تسكني معايا لو كنتِ عجّزتي وكده..

ـ طبعًا.. سأكبر، وأعجّز، وأموت.

ـ لكن أنا مش عايزك تعجّزي..

ـ...

ـ ولا تموتي.

ـ حاضر.

# ٢ باي ريدج

## *Bay Ridge*

يتقاطع «فلات بوش» مع شوارع كثيرة. يتقاطع مع الأفنيو الخامس، ويتعانقان عند مفرق البناية التي سكنتْ فيها. تسير فيه وحيدة لأنّها، ولفترات طويلة، تخجل من أن تدخل إلى المقاهي المنتشرة والمطاعم العربيّة وحدها. تأخذه من يده وتسير مسافات على رصيف البحر، تشاهد العبّارات الصغيرة بين «لونج آيلاند» و«بروكلين». تسير حتى تفقد ساقاها الإحساس بالمشي؛ لأنّها تريد أن تتخلّص من بعض سمنتها، ومن ضجيج الأفكار في رأسها.

يقول بضجر وتعب:

ـ أنا حفظت الشارع ده... لا أريد أن أذهب إلى «البيريج» تاني.. Please.

لا تستطيع أن تتركه بمفرده في البيت، ولا يستطيع أن يجاريها في الركض لمسافات طويلة. أحيانًا يصرّ على البقاء في البيت مردّدًا: «أنا مش عايز أروح البيريج».. وإذا رافقها، فإنّ تضحياته دائمًا مشروطة بالمطالب. «إذا ذهبت معكِ ممكن.. ممكن أشتري.. ممكن أعمل..». كلّما كبر صار يذكّرها بأبيه أكثر. كلّما عاشا معًا صارت متأكّدة من أنّ كلًّا منهما يسير باتّجاه معاكس للآخر، وأنّ عليها أن تتركه في مكان ما، في لحظة ما؛ لأنّهما ليسا معًا طوال الوقت.

في طريقها من بيتها إلى «باي ريدج»، تعبر كثيرًا من الجيوب العرقيّة. تعبر أرض المكسيك، حيث أبواب البيوت ليست مغلقة تمامًا، والسلالم رحبة، والنساء القمحيّات مثلها بشعور كثيفة سوداء، يعبرن منتصف العمر بألوان مبهجة، وثياب مفتوحة على الصدور الممتلئة المشبَعة، وحولهنّ يركض عادة أطفال كثيرون. ولبيوتهنّ رائحة المشروبات المنزليّة المثلّجة التي يبعْنَها. على الأرصفة القريبة تشاهد العمّال يتحلّقون في مجموعات على الرصيف المتّسع لتجمّعاتهم، بانتظار عمل ما. تراهم متبطّلين حاملين «عدّة» محتملة لعمل ما قد يناديهم: حبل.. أَجَنة من الحديد.. فأس.. «عدّة» قصّ الحشائش، أياد خشنة، وعضلات جاهزة لحمل ونقل وإصلاح ما يطلبه الزبون منهم.

تَراهم هي كما تعوّدت أن ترى كثيرين من العمّال اليوميّين في

بلدها، في الميادين المتناثرة، على أرصفة أضيق قليلاً بانتظار أعمال يوميّة صغيرة قد تأتي أو لا تأتي. يجلسون هنا وهناك في حلقات، يفركون أياديهم الخشنة في جلسات استرخائيّة بطيئة، يقتسمون فيها السجائر والقهوة والأطعمة الشعبيّة الرخيصة، ويواجهون الانتظار بهذه النظرات الشرسة المتحدّية. تخاف من تجمّعاتهم التي تنذر بعراك محتمل بلا مبرّر، أو مناوشات مع المارّة لأسباب تافهة، أو حركات غير مفهومة فيما بينهم، للتواطؤ على معاكسة امرأة عابرة مثلها، في يدها طفل، ولها شعر قصير أسود مثل كلّ المكسيكيّات، كأنّها انحدرت ذات يوم من حيث جاؤوا.

تعبر في طريقها المقابر التي تسكن ربوة عالية، وتشرف على كنيسة ضخمة. تحبّ تماثيل العذراء الجصّيّة على أبواب البيوت. تشعر أنّها مصلوبة مثلها في فضاء ما، بتلك النظرة المستكينة لامرأة وحيدة. تحبّ فضاء المقابر وباقات الورد البلاستيكيّة الملوّنة، تحبّ جلسة العجائز على الكراسي الهزّازة بجوار البيوت، وهنّ يبادرنها بتحيّة لم تتوقّعها. تدخل بعد ذلك إلى منطقة الإسبان الأكثر حيويّة وبهجة، حيث النساء الخلاسيّات الممشوقات يتحرّكن بصخب حول البيوت التي تحوّل نصفها الأمامي إلى مطاعم منزليّة صغيرة، وكثير منها يتحوّل في المساء إلى مدارس وساحات لرقص «الصلصا» و«التانجو»، وتفوح من حولها رائحة التجارة العظمى للبهجة الموقّتة.. الموسيقى،

البارات الدافئة، الراقصون يتبارون في مهارات السرعة، ورائحة موادّ دخانيّة تلعب في أروقة البيع والشراء.

لم تر الليل أبدًا هناك. كان دائمًا يجذبها من ثوبها، كأنّه يخشى عليها من لعبة التأمّل العابر لحالات التعانق المحسوب في الرقصة المرتقبة، يجذبها من يدها باتّجاه محطّة الباص، ثم يبدأ في السؤال:

ـ ماما إنتِ بتحبّيني؟

ـ طبعًا..

ـ ولن تتركيني؟

ـ أبدًا..

ـ طيّب، يللّا نرجع البيت.

بيت أبيها لم يكن مثله شيء. تسير «هند» في طفولتها، فترى البيوت من حولها مفتوحة على سراديب طويلة وحارات ضيّقة، كلّها من الطين الداكن، أكوام القشّ فوقها، وحوائطها بلا طلاء، أبوابها مفتوحة تستطيع أن ترى باحتها، مربَط البهائم، أو مَزْيَرة من الفخّار، راكيّة نار مرصوص في دخانها إبريق الشاي أو عدد من حبّات البطاطس، فرن تتسلّقه القطط والبشر أحيانًا؛ ليناموا على مصاطبه الدافئة. البيوت حولها مفتوحة، ترى من خلال محطّات

سيرها، كلّ تفاصيلها، جلسات العتاب، وضجّة الأطفال، وحُصُر السَّمار البلاستيكيّة، يتكدّس فوقها البشر.

تسير في الأرض الترابيّة صيفًا، الطينيّة اللزجة شتاء، وتتفحّص بعض الجارات اللاتي يدلقن ماء الغسيل أمام البيوت، وتفوح من مواقد الكيروسين روائح الطعام، والروث، ومساحيق الغسيل. تعبر هند بعض المساكن الطينيّة وبعض الأحواش الفارغة. في طريقها اليومي إلى المسجد، وتراقب في فنائه الكافورة العالية، يجاورها المحمل الخشبي الذي يغسّلون عليه موتاهم. تعبر شبكة الكهرباء ومبنًى حكوميًّا آخر لثبت المواليد. تعبر ماكينة الطحين، فتسمع بوضوح حركة السيور في أحشائها التي تدقّ بإيقاع منتظم، تشاهد جلبة النساء من حولها. تعبر حنفيّة الماء الوحيدة التي تنتصب فوق بناء حجري. يسمّونها «المجموعة»، وأحيانًا «المَيَّه المُعْيَن» ـ أي الماء الحكومي الموصوف للبشر.. في طريقها إلى مدرسة «مقاوي الابتدائيّة» تعبر على كثير من الأشياء.

تتأكّد أنّ بيتهم ليس مثل سائر البيوت. لبيت أبيها سور طيني غليظ، رسموا عليه، بألوان جيريّة، جِمالاً وهوادج وقوافل، تسير باتّجاه الكعبة مسدلة الستائر. كأنّ الرسم هو البرهان الوحيد على أنّهم جاؤوا من نسل قبيلة من الأجداد الذين انحدروا من بطن قبيلة ما، أو إشارة تاريخيّة إلى الأسلاف الذين حملوا كسوة الكعبة من

كتّان بلاد القَبَط. وقد يكون الرسم الذي محاه المطر شهادة بأنّ حاجًّا حمّل جماله ورجاله، وركب البحر، وعبر إلى الضفّة المباركة، ثم عاد ومعه حِجّة للنبيّ المختار. تتوسّط السور بوّابة ضخمة كانت فخمة ذات يوم، صارت قديمة ومرقّعة بألواح خشب إضافيّة لتُصلِح من حالها البائس. خلف البوّابة عدّة أشجار من الكافور والكازورينا تفضي إلى عدّة أبنية من الطين، أحدها تسكن فيه عربة «كاديلاك» قديمة. والبقيّة كان مجرّد بناء طيني مكوّن من غرف، يفضي بعضها إلى بعض كقطار فارغ، تزوّج فيه الجدّ من بنت العرب وبنت الأكابر وبنت القبط، وورثه الابن عن أبيه؛ فصار الممرّ الطيني مخازن للغلال، وجدرانًا طينيّة صلدة يسمّونها «منافع»، يركضون داخلها في لعبة الاختباء، وتدفعهم الأمّ ليلعبوا في هذا البيت التحتاني إذا فاجأها بعض الزوّار.

بيتهم ليس جميلاً. مجرّد سلالم عالية قليلاً، تنفتح على بلكون واسع يفضي إلى صالة شديدة الاتّساع، خالية من الأثاث لأنّ (العَفْشْ بِيتْبَهْدِل). تفرش فيها الأمّ حصيرة من السَّمار صيفًا وكليمًا من الصوف شتاء. في هذا الفضاء المتّسع يأكلون ويركضون ويتناوشون، ويتحرّكون بين البلكون الغربي والبلكون الشرقي، بين الأوضة الصيفي والأوضة الشتوي، بينما يظلّ الصالون للضيوف، وغرفة الأب مغلقة.

تجلس الأمّ في البلكون حالمة ببيت جديد، فكلّ البلد بَنَت

البيوت العالية، وصاروا إذا وقفوا في أدوارهم العليا يكشفون الداخل والخارج. تغامر أمّها فتحدّث أباها عن أحلامها قائلة: «نِفسي في بيت زيّ بيت خالي الشريف لملوم». سيبرم الأب الذي فرغ لتوّه من زجاجة البيرة شواربه وأصبح أكثر تفكُّهًا «عليه السلام يا ستّي.. ما هو زيّنا ابن عرب برضه، ولاّ اتولد على كتفه ختم النبوّة؟». أمّها التي تتحاشى ما يمسّ أخوالها البعيدين، ستدير وجهها بعيدًا عنه غاضبة، ولن تكمل سرد أحلامها. المرّة الوحيدة التي ذهبت فيها «هند» مع أمّها إلى بيوت أخوال أمّها البعيدين كان الخال قد مات، فقضت الأمّ نصف النهار تغسل وتعدل وتكوي ثيابها السوداء، تبحث عمّا تبقّى من مجوهراتها ومناديلها المعطّرة في الأدراج، ثم تلتفت إلى الأب لتعدّل من هيئة ربطة عنقه، فيما وقفت «هند» بفستان أزرق وأشرطة شعر بيضاء ناصعة، كأنّهم للتوّ قد خرجوا من ألبوم صور أنيقة.

انطلقت بهم العربة الكاديلاك القديمة بين إقطاعات من الأرض الرمليّة، على أطراف إقليم «البحيرة». «الشريفة» شديدة الامتلاء، شديدة البياض، تسفّ بعض النشوق في أنفها، وتسعل في مناديل بيضاء مطرّزة، تسحّ الدموع بتأثّر، وهي تهزّ رأسها دلالة على التسليم بقضاء الله. جلست الأمّ أمامها بأناقة مفرطة وبكت قليلاً، وتبادلت القبلات مع سيّدات صغيرات اتّشحن بالسواد، وانخرطن في الحديث عن أشياء بعيدة، وأشياء أقرب. سيتلوّن أنف الأمّ قليلاً من الانفعال وهي تتفقّد الحليّ، الثياب

الأنيقة، والجوارب الشفّافة، وبكارج القهوة النحاسيّة، وروائح البخور المكّي حولها، ثم تأتي على فنجان قهوتها، وتقبّل يد الجدّة الشريفة مظهرة مزيدًا من التأثّر، ثم تخرج. سيظلّ الأب بعدها يتحاشى لزمن طويل إيذاءها، إذا تفاخرت بأخوالها قائلة: «خالي الله يرحمه العمدة الشريف لملوم»، سيقول بتأثّر: «الله يرحم الجميع».

بيتهم ليس واطئًا، ولا عاليًا كما اشتهت أمّها. فقط عدّة سلالم تفضي إلى مربّع واسع يسمّونه البلكون الشرقي، مصقولة بأرضيّة شطرنجيّة من البلاط الأبيض والأسود، ترسم عليها بالطباشير خطوطَ لعبةِ «الحَجلة». وأحيانًا يصلح كعارضتين لكرة القدم، وبعض ألعاب أخرى كـ «الاستغماية» و«الدبّة العَمْيَا». في المنتصف يقف الباب الثقيل، وقد تكفّت بنافذتين من الزجاج الملوّن، تتداخل قطع الزجاج المعشّق مع اللاصق الأبيض الذي يرمّم جروحه وكسوره الواضحة. فبرغم أنّ الباب كان ثقيلاً جدًّا يصعب إغلاقه وفتحه، فإنّه كان يعاني دائمًا من خبطات شرسة تؤدّي إلى مزيد من الكسور. وصار ذلك الزجاج الملوّن يتفتّت أكثر حين تصادفه يدٌ غاضبة، مثل يد الأب التي تتركه يرتجف من الهزّة العنيفة خلفه، وهو يلعن أبو العيشة وأيّامها النكدة. وتشاهد هند أمّها بعد ذلك متكوّرة حاضنة جسدها الذي يهتزّ من البكاء، تجلس في وسط البيت حابسة دمعتها، ثم توصده بأسف خلفه. الباب أيضًا كان يهتزّ من صراخ اللهو والركض وراء الكرات التي

تخطئ مرماها، وتسقط على نوافذه الزجاجيّة، مؤدّية إلى مزيد من الشروخ. كانوا خمسة من الذكور يركضون حول أمّهم، بعد أن تركوا تشكيلاً جديدًا على جسدها، وآلامًا مبرّحة على ظهرها. تركوا أيضًا آثارهم على الحوائط والنوافذ. وتحوّل البيت الذي كان عددًا من الغرف المتوازية، إلى ملعب كبير، باستثناء غرفته التي يجب أن تكون مرتّبة وهادئة، لا يفتح أحد بابها إلّا إذا كان الأب ممدّدًا في فراشه، يقرأ بعض الجرائد، وتكون في مواجهته جالسة على مقعدها تتحدّث باتّزان، في روب من الطحينة والعسل المزيّن بوردات حمراء. تلعب «هند» في مكان ما.. متلصّصة على صوته، فإذا كان رائقًا ضاحكًا، فإنّ ربيعًا سيمرّ من على بابهم الزجاجي، ستبتسم الأمّ في رضا، ولن توبّخها حتى لو سكبت الدقيق على وجهها لتخيف إخوتها، وحتى لو تشعلقت في الكازورينا في مسابقة «نطّ القرود»، وحتى لو دلقت كولونيا «اللافندر» على صدرها، وهي تُدَعْبِس على الكريمات والأصباغ في دولاب أمّها.

تركض «هند» في البيت فرحانة، وتبني من التراب والصخور وبقايا العلب والزجاجات والحاويات الفارغة لعبتها المفضّلة «بيت بيوتة»، وفيها ترسم على التراب بيتًا ومطابخَ وأولادًا، وستضع الدُّمى القطنيّة على حجرها، وترضعها حليبَ صدرها، وتكنس وتصفّ في أرجاء المربّع الترابي الذي صنعت منه أسوارًا متوهَّمة صورة بيت يسكن أحلامها. بيتٌ يمرّ الربيع على نوافذه دائمًا،

وتنعس فيه، دون أن يعبر رجل في الظلمة، ويصرخ في وجه امرأة في روب ملوّن بالطحينة والعسل والأزهار: «أنا حاغُور في داهية من وِشِّك... أنتِ فاكرة أنِّك حتربطيني بكومة عيال؟». تراه أحيانًا في كوابيس أخرى، يجرّ المرأة من دانتيل الروب العسلي الفاتح، ويقول لها: «غوري. خلاص، أنا مش عايزك». وكانت «هند» تعرف أنّ دموعًا وتنهّدات وزفرات وركلات خلف باب من الخشب القديم، المعشّق بالزجاج، بعدها تنكسر ألواحه الملوّنة. عادةً تترك هذه المشاحنات أمّها بعينين منتفختين من البكاء والأرق، وهي تقضي النهار القادم في تضميد جراح الباب باللواصق البلاستيكيّة، كي لا يعبر الهواء البارد من شقوقه إذا جاء موسم البرد.

باب بيت أبيها ضخم قديم، خرجت منه قوافل الجِمال ذات يوم ولم تعد. تتأمّل تفاصيله من الداخل، تراقب حركة الكون من خلفه مرَح المارّة، وصراخ أطفال لا تعرفهم، وكرةً شرابًا تتأرجح بين أقدام الصبية.. وسط التهديدات تزحف من تحته، تفتحه بحذر.. تختلس النظر إلى بنات لا يشبهنها، يلعبن هناك في الفضاء المفتوح. يجرّها أحد إخوتها من شعرها إذا تسكّعت أمامه. تقول لها أمّها: «ح اكسَر رجلك لو عَتّبْتِيه». فتنظر إلى العتبة الفاصلة، وتخبّئ اشتهاءاتها إلى يوم تخرج منه ولا تعود.

تراقب عبور الغجر في فصل الربيع، يمرّون أمام الباب، يتركون خلفهم غبار قطعان الماشية في الطريق الترابي، تسير

خلف خيامهم المفتوحة على ترعة العبّاسة. تحلم هند ببيت يحتضن الشارع، تستطيع أن ترى ما بداخله دون أن تطرق بابه، تستطيع أن تفترش باحته، وأن يحدّثها المارّة إذا عبروا، أن تشمّ رائحة الطبخ ومساحيق الغسيل وعَرَق الغرباء الذي ينسكب أمام عتباته، لكنّ باب بيت أبيها كان دومًا عاليًا ومغلقًا، تقف خلفه ويقف أمامها.

* * *

تسير هند الآن في ضواحي بروكلين أكثر ولا تكلّ من المشي، كأنّها تحقّق أمنية قديمة بأن تسير في بلاد لا يعرفها فيها أحد، تعبر مناطق أكثر من حيّ اللاتينو والإسبان والطليان والصينيّين؛ لتشتري بعض الخضراوات والفاكهة، وتقارن الفرق بين أسعار الفيتناميّين وأسواقهم الأكثر تواضعًا، تترك حيّ الأتراك ثم تسير إلى أرض العرب، أو «البيرج» كما يسمّونه. تكون ساعتها قد مشت أكثر من سبعين شارعًا، وعددًا لا بأس به من الأحياء المتجاورة، المتنافرة في هيئة بيوتها وأشكال ساكنيها ورائحة مطابخها، وألوان الجلود البشريّة التي تسكنها، ونوعيّة البضائع التي تتوافر فيها. تكون قد تعبت من تأمّل هذا الخليط من اللغات والوجوه، وهذا الكوكتيل من الموسيقى العالية. تكون أكثر حنينًا إلى رائحة النارجيلة، تقصد المقهى الشعبي الضيّق المليء بالعاطلين الذين يبتسمون بفضول لوجودها،

ويحاولون أن يذكّروها بأصلها، حين يفاجئونها بالألفاظ البذيئة التي يتبادلونها بلهجات مختلفة. تدرك ساعتها أنّها في «البيرج» وأنّها وصلت حقيقة إلى أرض العرب و«خليج بروكلين» الذي استقبل هجرات متتالية من أفواج عديدة، جاؤوا من غزّة ونابلس وبيروت والإسكندريّة، ويتمدّد كهول الجيل الأوّل على المقاعد الخشبيّة، يلعنون الغربة ويملأون أفواهم بالبقلاوة والهريسة من المحلّ المسمّى «حلو العريس». تراقب الكهول الآخرين وهم يتنقّلون بين «أسماك بحري»، و«فلافل أبو علي»، و«كشري الصحابة»، و«لحم حلال» من «بقالة أبو كمال».

يضعون في المحلّات التي تبيع البضائع العربيّة صورًا قديمة، وخرائط لمدن قديمة، ولافتات يُحيُّون فيها صمود أهل غزّة، ويتضامنون مع جنوب لبنان، ويركضون في الشوارع إذا تحدّت مصر البرازيل في مباراة كرة قدم، حتى لو خرجت من كأس العالم، بعد هذا الانتصار. يتبادلون الشتائم حولها بلهجاتهم المختلفة. المقهى الذي تقصده ضيّق ومظلم، والنارجيلة لها رائحة ماء عطن.. ومع ذلك أسموه «ألف ليلة وليلة». تتنفّس ببطء وحذر، وتنظر حولها بترقّب بعد أن تكتشف أنّها الأنثى الوحيدة. تتصفّح عدّة جرائد ومجلّات صفراء. عامل المقهى طويل ونحيل، تذكّرها هيئته بكلّ مدرّسي العربيّة في قريتها، ينادونه بالأستاذ تدليلاً على تقدير ماضيه الذي لا يعرفه أحد. تحاول أن تخفي وجهها خلف الجريدة، قبل أن يفاجئها بالسؤال المعتاد، المُعدّ لها:

ـ إنتِ ساكنة لوحدك؟

ـ أيوَا.

ـ ولقيتي شغل؟

ـ الحمد لله.

ـ يعني عندك فيزا، ولّا كده؟

ـ عندي دعوة للإقامة.

ـ يعني إيه؟ جرين كارد؟

ـ لا. أنا مدرّسة.

كانت تكذب. وهو يواصل الأسئلة التي لا تجد لها إجابة. ولكن في البيرج يقتلون الغربة بحياكة الأسئلة التي تظهر براعتهم في كشف أكاذيب القادمين الجدد الذين يصبحون بعد مدّة مجرّد أُناس يشبهونهم تمامًا، يبحثون عن عمل وفيزا، وعن غرفة وأشياء يعرفونها، وعاشوها آلاف المرّات، يكمل الأستاذ محمّد:

ـ وبدّرِّسي إيه؟

ـ لغة عربيّة.

ـ يعني العرب في أميركا ناقصين عربي، وباعتِين يطلبوا مدرّسين؟

ـ...

ـ وبتشتغلي؟

ـ أنا عندي إقامة.

ـ والإقامة دي تقدَري تاكلي بيها؟

ـ أحيانًا.

ـ أنا مثل أخوك.. بَلاَ دعوة، بَلاَ مدرّس.. لو عايزة شغل قولي يا أستاذ محمّد.. تلاقيني. أنا هنا منذ أربعة عشر عامًا.

ـ طيّب ح أقول.

ـ أنا مثلاً عندي بكالوريوس تجارة، وكنت أحلم بأن أكون بحّارًا منذ وقت طويل. لكن أنت ترين الآن ماذا أعمل؟

ـ نعم أستطيع أن أرى.

ـ أنت لا تحبّين تاخدي وتعطي في الكلام.. باين عليكِ.

تهزّ رأسها قليلاً للأمام والخلف، وتقول:

ـ أحيانًا.

تبدو عليه علامات اليأس، وعدم فهم هذه المرأة التي تأتي وحيدة وتمضي وحيدة، وتخشى من البحبحة التي يمارسها الغرباء باختلاق موضوعات، أحيانًا أكاذيب، ليجعلوا لوجودهم معنى.

يقول بيأس:

ـ طيّب لمّا تحتاجي حاجة قولي يا أستاذ محمّد.

تردّ باقتضاب يثير غضبه أكثر:

ـ شكرًا.

تتلفّت حولها وتراقب دخان البانجو يخرج من السجائر الملفوفة حول مباراة كرة قدم على الشاشة، تثير عددًا من الألفاظ البذيئة تصبح فيها أمّك وأختك والشرموطة التي تزوّجتها، محطّ تبادل الشتائم. على الطاولة التي تجلس عليها، يأتي عبد الكريم الكردي، ويجلس قبالتها، وهو يقضم قطع الحلوى التي يحملها في يده. تعرف من لكنته أنّه عراقي. يقول لها إنّه جاء مبكّرًا قبل الجميع، يعدّ في السنوات التي صار لا يتذكّر عددها، وهو يمسح آثار الكنافة من على فمه. أنفه الحادّ يجعل ابتسامته أشبه بابتسامة النسر قبل انقضاضه على الفريسة. يبتسم، فتصبح الهالات السوداء حول عينيه محلّ تشكّك حول إدمانه العَرَق، والمشروبات الروحيّة، برغم حديثه الدائم عن فضائل المركز الإسلامي الذي يقع في تقاطع شارع فولتون مع ناصية ماكدوجل، يسألها كأنّه يعرفها أيضًا باللهجة نفسها المتشكّكة:

ـ أنت متزوّجة؟

تهزّ رأسها، فلا يعرف إن كان هزّه نفيًا أو إيجابًا، فيتأهّب للسؤال الثاني:

ـ عندك أولاد؟

تقول له: ولد.

يبتسم عبد الكريم الكردي الذي يبدو أكثر لطفًا من مظهره، ويبدأ في نصحها:

ـ أهمّ حاجة في الدنيا هي الأولاد. والحياة هنا صعبة، والواحد لازم يضع عينه على أولاده.

يتركها ويجلس على طاولة أخرى، ليكمل لعبة الدمينو التي تنتظره، تعرف، بعد أن تألف المقهى قليلاً، أنّ عبد الكريم كان من أوّل أفواج اللاجئين، وأنّه تزوّج فتاة مكسيكيّة كانت تعمل في أحد مقاهي «برايتون بيتش»، اسمها جوجو، خمريّة وجميلة ومستديرة، وكلّ شيء، بدءًا من أظافرها وحواجبها عبورًا بمناطق أخرى فيها، يبدو مستديرًا ومدبّبًا ومهيًّأ لأن يصبح محطًّا للإعجاب. وربّما كان عبد الكريم بشاربه وطوله الفارع محطًّا للإعجاب ذات يوم في قديم الزمان. اختارت جوجو شقّة صغيرة ليسكنا فيها على شاطئ «برايتون بيتش»، لأنّها ترتاح لأحياء الروس والطليان ولا تحبّ أحياء العرب. قالت ذلك بصراحة ثم أكملت: «برايتون بيتش» يطلّ على البحر الذي تبحر فيه عبّارات «لونج أيلاند»، ومليء بالحانات الصغيرة، والرجال الروس الذين يشبهون زوجها. فهم على جدِّيّتهم يمتلكون قلوبًا رحبة، ويتحوّلون بعد الكأس الأولى إلى كائنات هشّة ورقيقة، ويُظهرون كثيرًا من الضعف والألم، فقد أحبّت أكثر من رجل، بينما كان عبد الكريم

مشغولاً بالتاكسي الذي يعمل عليه. ولم تخفِ «جوجو» مشاعرها بالسأم، وضجرها من رائحة العرق القويّة التي تلازم العرب. وتركته سريعًا بعد أن أنجبت منه ثلاث بنات. ظلّ يسكن معها في الشقّة نفسها، لأنّه لا يعرف مكانًا آخر، وهو أيضًا يودّ البقاء بجوار البنات اللاتي يكبرن. وقد شاهد ذلك بعينيه، فقد صارت ابنته الكبرى «ديانا» تشبه أمّها، مدبّبة ومستديرة ومُغوية. صارت خليطًا نقيًّا من تهجين رائع، كانت أيضًا تشبه أمّها في الشبق والعصيان والرغبة في امتصاص الحياة. صريحة وواضحة ووقحة في بعض الأحيان، ولا يقدر عليها إلّا خالقها، كما يقول عبد الكريم لنفسه. لم تأخذ من ملامحه سوى الهالات السوداء التي تكرهها، وتخفيها بكريمات الأساس. منذ طفولتها صارت تشارك أمّها كلّ الاهتمامات المتّصلة بالمسّاج ومرطّبات الجلد والماسكات، وولعها بتصوير جسدها في كلّ الأوضاع. ومنذ أن لاحظ عبد الكريم هذه التحوّلات، فقد صار ينهال ضربًا عليها حينًا، ويكسر أثاث البيت أحيانًا، ويتعارك على أتفه الأسباب. وكان من الضروري أن يترك هذا البيت، ويوقّع عدّة محاضر للعنف الأُسري التي كان يمكن أن تؤدّي إلى سجنه، لولا تدخّل بعض الصالحين في المركز الإسلامي لشرح الفروق الثقافيّة، وتفسير النار التي تغلي في قلب عبد الكريم.

بعدها نزح نهائيًّا إلى «البيرج» ليجلس في المقهى، ويتحدّث عن خطورة أن تربّي أطفالك في هذا الجحيم. وعلى الرّغم من

إدمانه العَرق والويسكي وكلّ الكحوليّات، فقد صار يتردّد كثيرًا على المركز الإسلامي عند تقاطع شارعي فولتون وماكدوجل، ويحبّ الجلوس مع إمام الجامع.. يذهب ليتسوّق له أحيانًا. كما صار يتطوّع في بعض الأعمال الخيريّة، مثل إجراءات دفن الموتى في مقابر المسلمين بنيو جرسي. كان متخصّصًا في إجراءات التكفين، وشراء القماش الأبيض والبخور ولوازم الموتى، وقد يحمل في سيّارته بعض المتطوّعين ليسيروا خلف عربة دفن الموتى، ويقيموا صلاة الجنازة، ويدعوا للميّت بأن يُسكِن الله روحه فسيح جنّاته، ويغفر للجسد الذي دُفن في ديارِ غير المسلمين. صار خبيرًا أيضًا في إعطاء نصائح للّاجئين حول أماكن التسوّق، وغرف الإيجار، ومحلّات العرب. ويتطوّع كثيرًا في النصح بضرورة الحرص على العيال في هذه البيئة الفاسدة، والعياذ بالله. كان عبد الكريم أيضًا صاحب نظريّة البرجين، كما تلقّفها من إحدى المراسلات الطوعيّة التي تصل إليه باستمرار، والتي توصي بطبع الرسالة وتوصيلها إلى أكبر عدد ممكن من البشر لتزداد حسناتك، وتتحدّث تلك الورقة عن الإعجاز القرآني الذي بشّر وأنذر بالحادي عشر من سبتمبر، وسقوط المدن الظالمة. تجلس وحدها قبالة عبد الكريم الكردي الذي يوزّع عليها كلّ مرّة قصاصة جديدة، لا تودّ كالعادة أن تقرأها.

تدخّن متأمّلة الوجوه التي تراها كلّ مرّة، ثم تخرج بسرعة لتتفادى شهود المشادّة التي تحدث كلّ مرّة بين أُناس لا تعرفهم،

وتؤدّي إلى الشتائم التي تتجنّب سماعها. تتسلّل ببطء من المقهى لتشتري علبة دخان، وتجلس على رصيف البيرج تراقب الشمس وهي ترتحل في المحيط، قبل أن تأخذ الباص عائدة إلى بيتها. كلّما أرادت أن تعود إلى حيّ العرب، تحت وقع الحنين أو المقت، يرفض أن يذهب معها، ويطلق تصريحاته الحادّة:

ـ لا أحبّ أن أذهب عند العرب.

ـ لماذا؟

ـ البيرج مش نظيف، وكمان فالجر (vulgar). وأنا لا أريد أن أكون واحدًا منهم.

ـ سنأكل كشري.

ـ مش عايززززز.

ـ ستترك ماما تذهب وحدها؟

ـ لماذا تحبّين هذا البيرج؟

ـ ربمّا يذكّرني بمصر.

ـ لكن أنا لا أحبّ البيرج، ولا أريد أن أرجع مصر تاني.

ـ...

# ٣ المقبرة الخضراء

## *Green-wood*

يتقاطع الأفنيو السابع مع الجرين وود تلك المقبرة الكبيرة التي تسكن ربوة عالية تذكّرها بتلال فرعون. تحبّ أن تسير في تعاريجها صباحًا؛ لأنّها مليئة بالزهور والصمت الذي لم يعد يخيفها. تتسلّى بقراءة أسماء الموتى الراقدين تحت أضرحة الرخام. تشعر ببهجة الموت والنسيان وسكينة العجائز. البيوت التي تواجه المقبرة أيضًا قديمة ولها واجهات من الرخام، وعلى عتباتها في المقاعد الخشبيّة الهزّازة تجلس دائمًا كبيرات السنّ من الروسيّات والإسبانيّات «هسبنك»، أو القادمين من أميركا اللاتينيّة، اللاتي يفتحن أبواب البيوت، الملوّنة ببهجة تربك اللون الرمادي للأحياء المجاورة. يخرجن على مهل من بيوتهنّ،

ويلاحقن ضوء الشمس الشحيح لفصل البرد. يبتسمن لها بطفولة، فتبتسم ثم تمشي بتثاقل بخطوات متعبة، وضجرة، كأنّها توشك على نهاية ما. ترتدي معطفها الثقيل الذي اشترته من مخزن للملابس المستعملة، تشمّ من طيّاته رائحة النفتالين والعطن الذي يلتصق بالملابس القديمة، تشعر أنّه يجثم على جسدها بثقل وكآبة، تختفي فيه وتتشابه مع كلّ الأشياء حولها، تشبه العجائز والشوارع، باردة ووحيدة ومحايدة.

تدرك الآن أنّها صارت جدّتها أكثر من أمّها. تذكّرت كيف كانت تجلس دائمًا في حجر جدّتها مجرّد طفلة ضجرة بمؤخّرة شبه عارية، تتحرّك كثيرًا لأنّها خفيفة ونحيفة، ولأنّ البنت تزحف قبل الولد، وتتعلّم الكلام قبله، وتحبو قبله، وتطلع أسنانها أيضًا قبله، وتثبت أنّها باختصار مخلوق قادر على النجاة والتعايش مع أقلّ ممكنات للحياة، فقد تركتها أمّها تتسلّق الربوة العالية خلف البلكون الغربي، وتزحف حتى تلك الحجرة العالية المسقوفة بالخشب والطين التي تقف وحيدة منعزلة كأنّها قبّة سماويّة، التي يسمّونها «العالية». تجلس على بابها امرأة لم يلقّبوها أبدًا بلقب «جدّة» برغم سهولة الألقاب وشيوعها للبعيد والقريب، خصوصًا كبار السنّ. كانوا يسمّونها «الضيفة» برغم أنّها لم تغادر بيتهم قطّ. يقولون عنها «الضيفة نامت، الضيفة قالت. ابعتوا غَدَا للضيفة، هاتوا طاسة الخضّة من حِدَا الضيفة. . .. إلخ».

«الضيفة» قرويّة صغيرة ومنكمشة. على ذقنها وشم أخضر. وعلى ظهر يدها مزيد من نقوش الوشم.. عروس، سمكة، أسد. لغرفتها دائمًا رائحة شمع معطّر. تجلس وحيدة، تفتل بعض الحبال من الليف، أو ترتق ثقوب ثوب قديم. ملابسها مطرّزة أيضًا بأسود وأسماك وعرائس صغيرة. في حجرها تحبو هند بعد أن زحفت خلف أمّها نصف النهار، وحاولت جذبها من ثيابها الطويلة، وهي تبكي: «ماما اقعدي، ماما ديس»؛ أي ماما اقعدي لأرضع البزّ. ولأنّ أمّها تركض دائمًا وراء أشياء كثيرة، فقد ترسل بها إلى حجرة «الضيفة» التي تجلس فاضية بلا شغلة ولا مشغلة، تأخذها «الضيفة» في حجرها، ثم تربّت على ظهرها، حتى تنام. أو تعلّمها «الضيفة» كيف تمدّ يدها ببقايا الأكل لتطعم كتاكيت أو أفراخ بطّ صغيرة في علبة من ورق الكارتون. بعد أن تموت «الضيفة» سيقولون عنها ترحّمًا: «إيدها كان فيها البركة، الله يرحمها إن كانت وحّدت الله قبل ما جاءها الملاك».

وتقول أمّها أيضًا: «جدّك مقاوي الله يرحمه كان طويلْ وعريضْ، ونام مع الجارية والستّ، وتزوّج بنت العرب وبنت العجم، ولم ينجب إلّا منها، تلك القرويّة التي جاءت من عزبة القبط، الله يرحمها إن كانت وحّدت قبل ما جاءها الملاك».

تُدرك هند، بعد أن أتى الملاك، وطاف ببيتهم، مثل طاسة الخضّة، أنّ التي سكنت تلك الغرفة العالية هي جدّتها، وأنّها

كانت قرويّة صغيرة من العزبة البيضاء «عزبة القبط»، قبل بناء مسجد «النور»، كما يسمّيه العامّة لقُبّتِه الكبيرة الرخاميّة التي لم تشهدها القرى المجاورة. من تلك العزبة التي حاروا في إطلاق الأسماء عليها جاءت الضيفة. كانت فتاة صغيرة تعقد على وسطها حزامًا من القماش البالي كعاملة حقل. كانت تدسّ في خصرها نوّار القطن الأبيض عندما عبر شيخ العربان بفرسه وسط الحقول. مرّر بعقاله وغترته على بطن الصبيّة المنتفخ بالقطن وتفاءل حالمًا بالذرِّيّة الصالحة، وقال في نفسه: إنّها أمّ الولد، والنبي عليه الصلاة والسلام أنجب من قبطيّة. ثم جذبها من ذراعها وحملها على حصانه، سار بها، وسار أبوها خلفه منحنيًا متّسخًا، وفي يديه بعض طمي الأرض السبخة. وقال: على بركة الله. بعد أن وضع في يد أبيها الواقف ذاهلاً جنيهًا من الذهب الخالص.

فكّت عن خصرها الحزام المتّسخ، ليتأمّل جسدها الذي كان مثل قطعة من الجبن الأبيض الناعم الحليبي. الجسد المستدير كقطعة كحلوى لدنة مستسلمًا بين يديه، تحمّمت الجدّة ـ التي سيصبح اسمها «الضيفة» للمرّة الأولى ـ في طست من النحاس الخالص، ومسّدت شعرها الطويل الذي سترثُه هند منها، ولمّعت سمكات مدقوقة بالوشم في الماء الذي انسكب على جسدها، بينما بضع خادمات كنّ يغنّين لها خارج الغرفة (ودي بنت مين في البلد ياللّي انشبك شالك.. أنا خدت شيخ العرب ياللّي الأمير خالك).

شيخ العرب لا يحبّ البيوت، لأنّها مسقوفة وواطئة. يسكن في خيمة كبيرة تتوسّط الأرض الفضاء، تسكن نساؤه في بيته الكبير، في عدد من الغرف الطينيّة المتجاورة في صفّ واحد يشرف على باحة الدار الرمليّة؛ في الجهة الأخرى كان صفّ مماثل من الغرف تُسمّى غرف المطابخ والخزين، وبينهما عدد من النخلات. لم تسكن «الضيفة» واحدة من غرف البيت؛ لأنّها كانت مثل الناقة النافرة، أخذت بعض الوقت حتى لانت واستكانت.

لذلك فقد بنى لها الجدّ حجرتين مرتفعتين، أعلى تلّة صغيرة من تلال فرعون، لم تغادرهما ولم تدخل قطّ ساحة البيت الكبير. لم تشهد قطّ ضجّة المطابخ ولا روائح يوم الطحين، كانت تتسمّع الضجّة وتتكهّن بما يدور في غرف الكرار، وتراقب من بعيد أطياف النسوة اللاتي يركضن بين الغرف. كانت «الضيفة» تجلس أمام بيتها وتنتظر خادمات صغيرات، يحملن معهنّ روائح المطابخ، يدخلن بسرعة، ويلقين تحيّة مقتضبة على عجل، ثم يتركن لها الطعام أمامها ويركضن دون أن يعطينها الفرصة لتبادل بعض الكلمات. لم يقلن لها أبدًا يا «ستّ» ولا يا «عمّة». قلن عنها «الضيفة» أو «جلبة سيدي»، وكأنّ ذلك يختصر وجودها في الحياة. كلّما أحسّت بالوحدة فتحسّست ثوبًا أسود من القطيفة، مسحت وبره بيديها وبدأت تطريز صدره بقطع الخرز والزجاج الملوّن. بعد ذلك نصبت حبلاً في عارضتي الحائط ونشرت عليه أثوابها، جلب لها شيخ العرب الحرير الدمشقي والكتّان

الأشموني. صفّت على الحبل أحمالاً أكثر فارتخى مثل صدرها تحت عبء الحمولة.

انشغلت بتضميخ أثوابها بالبخور والمسك، ونشرها في عين الشمس، كي تكيد ضرّاتها، أو تحصّنها من العثّة، وفي الليل قد تطبقها تحت المراتب كي تسبل كسراتها، أو تحشو جيوبها بأوراق الحنّاء والريحان، ثم تراقب بطرف عينها بوّابات السور العالي.

«الضيفة» لا تتحدّث كثيرًا، وإذا حكت ستروي حكاية واحدة عن زوجها الذي كان يمتلك مربط جِمال، وصناديق خشبيّة تروح وتجيء بين «غزّة» و«خان يونس». يملؤون الصناديق بالغلال ويعودون بالزيت وقطع الصابون الحلبي، وأثواب الحرير، والقطيفة المكّي والبخور اليمني. وبرغم كثرة نسائه، فلم يعرف الذرِّيّة إلّا على يديها.

تقول «الضيفة»: «كنت كلّما أفرغت بطنًا من الولادة، وضعت الولد في الغربال، وأرسلته إليه في خيمته؛ ليراه أو يضعه في حجره. يعود الرضيع ساهمًا كلّ مرة. وبعد ليلة أو ليلتين من عودته، ينتفخ وجه الرضيع، ويتحوّل إلى الزرقة ثم يموت. عندما جاء الخامس قلت: العين فلقت الحجر. كفّيت الخِرق فوق الغربال، وقلت للنسوة: مات، لحق بمن سبقوه. ثم وضعته على صدري وظلّ يرضع، ناعسًا ليّنًا كقطعة من القطن الأبيض». نُقل عن «الضيفة» أيضًا قولها: جاءت سِتّنا في المنام، وأخذته من على

صدري، وغطّته في ماء الغِطاس، ثم أعطته لي. في الصباح كان أبيض وأحمر زيّ الوردة. والمسيح والعذرا اتكتب له عُمر، بعد ما قلت: ابني رايح مع اللّي راحوا. أرسلته بعدها لأبيه يشوفه، قال: سبحان الله. وسمّاه «إبراهيم».

تحبّ «الضيفة» مزّ قطع القطن، وتقشير الذرة والثوم، وكلّ الأشياء التي تحتاج إلى مهارة الأصابع. تغزل الحبال من الليف، وشرائط لمبات الكيروسين من القطن، وتجدل الحُصر من ألياف السّمار. وحين لا تجد شيئًا لتنسجه، كانت تصنع من بقايا أوراق الجرائد قراطيس صغيرة متداخلة، لاستعمالها في نقل النار من اللمبة إلى المواقد لتوفير أعواد الثقاب.

على تلك الربوة العالية المواجهة لخيمته، كانت تنسج وتغنّي وتربّي طيورها الداجنة، وتمدّ ساقيها في القناة التي تسحّ الماء، لأنّها فلّاحة ولا تستطيع أن تعيش بدون الطين والدواجن.

تنعس هند في طفولتها في حجر «الضيفة» التي تفتح صدرها، حاكية كلّ الحواديت التي لم يسمعها أحد بعد، تحكي لها قائلة: لو كان بيتنا قريبْ... تفتح كلّ الحكايات بتلك الجملة :(لو كان بيتنا قريب)، لم يعرف لها أحد بيتًا بعيدًا قطّ. كان بيتها هو بيتهم، تقرفص هند بجوارها وهي تكبّ قطن الوسائد على الأرض، وتنشره في الشمس وتعيد مزّه، أي جذبه لينفش ويصير هشًّا كحلوى غزل البنات. البنات في حواديتها دائمًا يقضين أعمارهنّ

في جذب الخيوط ونفشها؛ ليتمّ دكّها في وسائد مخمليّة، يسيل عليها عرق المحبّة، وتعب الولادات، ودموع الهجر والفقدان. الوسائد التي نخبّئ فيها وجوهنا في الليل، وتسرح عليها أفكارنا يجب أن تكون ليّنة وحميمة، تتوسّد هند ساق «الضيفة» وهي تفتتح حكايتها بالعبارة نفسها: (لو كان بيت أبويا قريب).

تقاطعها هند متسائلة: (فين بيت أبوك؟) فتضحك «الضيفة» وهي تحاول التذكّر: قرب جرن الأهالي، بعد وادي الملاك، خلف أرض الهيش في العزبة البيضاء. لم تكن تعلم أنّ العزبة التي جاءت منها صارت (عزبة الجامع ـ العزبة البيضاء سابقًا). ذات يوم عبر جدّك الله يرحمه، تقول في محاولة لتحديد اللحظة (كنت واقفة هناك على باب البيت.. أكنس الأرض؟ لأ.. كنت أجمع القطن في وسيّة العرب)، حين جاء وحملها على جواده، وأغلق الباب الذي صار بيتًا بأسوار عالية. تتطلّع «الضيفة» إلى الخلاء، فلا تعرف المشرق من المغرب، ولا تعرف حتى إن كان لها أحد من أسرتها ما زال على قيد الحياة، ولا تحلم إلّا بأن تسير على حوافّ الترع، وتغسل ثوبها في الماء الجاري، وتحكّ كعبي قدميها على مصفاة، عند رأس فدّان مزروع بقرون فول أخضر. تنظم حبّات الفول في خيوط فتلبسها هند عقودًا تتدلّى من فوق صدرها، وتقفز كأرنبة حولها. ترسلها أحيانًا لتجلب لها بعض الشمع من دكّان «سالم العطّار»، تسألها بشغف عن تفاصيل لم تعد موجودة:

ـ «سالم لسّه عايش؟» تهزّ هند رأسها بالموافقة.

ـ «لسّه بيقف في الدكان؟» تهزّ هند رأسها نافية.

ـ «مين بيبيع؟».

تحرّك هند شفتيها بكسل لتردّ بإجابة مقتضبة: ابنه.

ـ «بيت أبو معتوق لسّه قصاد دكّان سالم؟».

لا تعرف هند من أبو معتوق، كما لن تعرف نصف الأسماء التي تذكرها «الضيفة» لها، لكنّها تهزّ رأسها لتثبت لها أنّ كلّ الأشياء ما زالت كما هي، أو كما تخيّلَتْها. فمكنة الطحين إلى جانب وسيّة العرب، والمجموعة أمام خليج مقاوي، والغرابوة يسكنون أرض الهيش. كما أنّ كلّ الناس الذين سمعت بهم كأصحاب الدكاكين، والنجّارين والسمّاكين (لسّه على حالهم) أو ما زالوا كما هم، أو كما تخيّلتهم ذات يوم.

لم تعرف هند لماذا أسموها «الضيفة»، ولا لماذا ظلّت ملابسها في صندوق خشب معدٍّ لسفر ما. لم تعرف أيضًا لماذا تنثر ثوبها القطيفة الأسود في كلّ فصل من فصول العام، وتعطّره، وتعيد طيّه، استعدادًا لرحلة غامضة، ولا لماذا احترق وجهها بتلك البقع الداكنة. ترث هند منها هذا النمش، إلى جانب الشعر الطويل وقصر القامة والضجر.

ظلّت هند تلك الطفلة الضجرة، تبحث عن حقيبة ما لتكدّس فيها الأثواب التي تضجر من الدواليب، تبحث عن حقيبة تضعها تحت منامتها، تغضب فتحملها، تحزن فتتوسّدها. في أحلامها ترى «الضيفة» وهي تمدّ أصابعها الخشنة في كفّها، وتتحسّس خطّ العمر، وتضحك قائلة: «سكّة أبو زيد». لم تكن تعرف أنّ حياتها ستصبح هججًا دائمًا، وتغريبة طويلة مثل قصّة أبو زيد. لم يعد ذلك فقط ما تتوق إليه روحها القلقة، لم يعد جِمالاً وركائب ونجومًا سائرة في دهاليز سماء ما. لم تعد رحلة الشتاء والصيف في الحكايات كافية لتشبع نزق وقلق روحها. تنام هند على حجر «الضيفة» كلّما أرهقتها الوسائد الجافية القاسية التي لا تعطي حنانها لأحد، فتقول لها في الحلم: «لو كان بيت أبويا قريب.. كنت أروح وأجيب صحن زبيب، تاكليه وتصلّي على الحبيب، وكلّ واحد له حبيب يقول: اللهمّ صلّ عليه»، فتنعس حالمة ببلاد بعيدة تأتي الأحلام وتحملها إليها.

تحقّقت أحلامها دفعة واحدة. فهي الآن تمشي في فلات بوش دون خارطة، وتعرف عددًا من الشوارع لا بأس به، وتقضي نهارها جالسة أمام السوبر ماركت الضخم على ناصية الحيّ الذي تقصده لرخص أسعاره، تتفحّص أوراق العروض الشرائيّة لتقارن بين الأسعار، تعرف الآن أنّ هناك كلمات ضروريّة للحياة، مثل التوفير والكوبونات. و«اشترِ واحدة تحصل على الأخرى مجّانًا». وتعبر الجرين وود متأمّلة الصلبان على المقابر في محاولة أن تنسى

جدّتها التي عاشت في بيت صغير أعلى التلّة، لم تغادره قطّ، ثم ماتت حاضنة صليبها الخشبي، ناعسة في مقابر الأسرة باسم (الضيفة أمّ البنين، رحمها الله، وأدخلها فسيح جنّاته)، وتاركة خلفها مجرّد صندوق خشبي صغير رصّت فيه أثوابها الكثيرة؛ أثوابًا من الستان والمخمل، مطرّزة بسمَكات وعرائس، وحبلاً قصيرًا منصوبًا في طرف حجرتها، وضعت عليه بعناية ثوبًا من القطيفة السوداء لم يعفّره تراب الأرض قطّ، ظلّ مسبلاً معطّرًا ساكنًا على الحبل. وفي صندوق أصغر من الورق المقوّى تركت بعض الشمع وقطع الصابون وإبر الغزل، تركت أيضًا في شقوق الغرفة خصلات من شعرها الذي تساقط في طست الاستحمام على أثر الحبَل، والولادات، وموت الرضّع، والأيّام البيضاء والسوداء.

# ٤ ويندسور ترّاس

# *Windsor Terrace*

كان السيّد ويندسور يسكن الأفنيو الرابع، قبل أن تكون هناك شوارع من الأساس. كانت تلك المنطقة مجرّد مزارع هولنديّة اختارت الجزء المنحدر من شرق بروكلين لكونه أرضًا خصبة. بقيت من ذكرى تلك المزارع سوق السبت، وهي سوق الخضراوات والدواجن التي يُقبل عليها الفنّانون، لأنّها «أورجنك» وطبيعيّة، ولأنّ ضجّة السوق موحية وتُثير الحنين. وكانت هند تحبّ الأفنيو الرابع لأنّه أرخص، ولأنّها تستطيع أن تفاصل وتفاوض، وتجد ما يناسب الحال. تجلس على الرصيف وسلّمات الأفنيو الرحبة وتشهد في أيّام السبت حركة المعابد اليهوديّة في المناطق المحيطة التي تمرّ فيها النساء الصغيرات، بتلك الباروكة

الكاريه البنِّيّة التي تخفي الرأس الحليق تمامًا، تراقب التنانير الطويلة السوداء، والمعاطف السميكة. يحيّينها بخفر في طريقهنّ إلى بيت «ألوهيم»، وكثيرًا ما يتوقّفن ويسألنها: «هل أنت يهوديّة؟» تهزّ رأسها نافية بسرعة قبل أن يتركن لها قصاصات من الورق، تعرف أنّها دعوات لزيارة بيت الربّ، تحاول دائمًا أن تتفاداها. رصيف الأفنيو الرابع متّسع كشرفة رحبة وعليها يقام ما يسمّونه: (flee market) أو سوق البرغوت. فوق الرصيف تتكوّم الأشياء التي لا يريدها أصحابها.. أواني مطبخ، ملابس قديمة، أحذية، صناديق خشبيّة، لوحات، أنتيك، صور في ألبومات مات أصحابها منذ عقود، أسطوانات موسيقيّة عليها صور ألفيس، ليزا مينيلّلي، فرانك سينترا، كاميرات تصوير منذ مطلع القرن، مكتبات مكبوبة على الأرصفة، دفاتر ترك عليها أصحابها بصمات أصابعهم ولحظاتهم الحميمة، صارت أكوامًا من الذكريات التي هجروها، أو تركوها خلفهم بعد أن ارتاحت عظامهم في الجرين وود. يعبر الهواة، يقلّبون بمتعة في الأشياء القديمة. تكتفي هند بأن تجلس بالقرب من بضاعة إميليا. تفترش إميليا جزءًا صغيرًا من الرصيف، تصفّ عليه أحذيتها العتيقة. تحفظ ماركاتها، وتصنّف أسعارها حسب العقود.. الخمسينيّات، الستّينيّات، السبعينيّات،... تقول لها مؤكّدة قيمة مبيعاتها: «فانتج». كلّ هذه الأشياء يسمّونها فانتج، لا أعرف لماذا يجنّ الأميركيّون بها؟ ربّما لأنّها تصلح لحفلات الهالوين والحفلات التنكُّريّة. كلّ طلبة التمثيل يعرفونني،

يأتون من منهاتن ويقولون: «يا إميليا، أريد حذاء مارلين منرو. هؤلاء الصغار المجانين يأتون دائمًا باحثين عن أشياء عجيبة».

تعبر هند هذا الترّاس كلّ يوم تقريبًا، لأنّه يتقاطع مع مدرسة طفلها، ولأنّه متّسع ويسمح لشمس الشتاء الضنينة أن تتمهّل في عبوره، ولأنّها منذ جاءت تحبّ مشاهدة العجائز يجلسن مثلها ويحاولن تذكّر الأيّام التي عبرت بسرعة. تحبّ المقعد الخشبي المواجه لقارئة البخت «جوجو». تعبر عليها إميليا التي ترتدي معطفًا رماديًّا، يشبه معطفها تمامًا، تجلس بجانبها وتبتسم. قصيرة نحيلة، منحنية قليلاً، ووجهها مليء بالتجاعيد، وثمّة شعر أبيض يخرج من أماكن غير متوقّعة في وجهها، مثل فتحة الأنف، وحوافّ الشارب. لعينيها هذا التيقّظ الحادّ، كأنّهما كرتان من لهب. وإذا ضحكت إميليا وفتحت فمها، فقد تظهر أسنانها الداكنة والموشكة على التهاوي. تشدّ معطفها قليلاً إلى الأعلى، حين تجلس وتخلع جوربها لتكشف ساقيها لضوء الشمس. إذا جاء الضوء فسيصبح الشعر على ساقيها أكثر لمعانًا ووضوحًا. تهزّ ساقيها المتورّمتين كأنّها طفلة معلّقة في أرجوحة. تستطيع إميليا التحدّث دائمًا وبلا انقطاع، كأنّها تروي قصّة حياتها الطويلة الممتدّة، تحمل في حافظة من القماش كوبونات غامضة لمختلف السلع الغذائيّة المخفّضة السعر والمجّانيّة، ترتّبها بعناية لحين الحاجة إليها. تتحدّث باستفاضة عن التوفير والأوفر، وتعشق المحاورات الفلسفيّة.

قابلتها للمرّة الأولى في المكتبة، في إحدى المناقشات عن تأثير وسائل الإعلام في تكوين الرأي العامّ في أميركا. كانت تجلس في الصفّ الأوّل لحاجتها إلى إرهاف السمع، كما يفعل عادة كبار السنّ، أزاحت بيدها لافتة المشارك، وجلست على الكرسي المخصّص له، كانت تجلس خلفها تمامًا، عندما تبدي رغبتها في افتتاح الحوار بسؤالها عن معنى التفكير الحرّ الذي وُضع كعنوان للمحاضرة. ودون أن يشعر المتحدّثون المفترَضون بدأت إميليا في التعقيب قبل أن تبدأ المحاضرة.

قالت، وقد اكتسب صوتها حكمة واتّزانًا مباغتًا، إنّها مواطنة من الاتّحاد السوڤيتي السابق، هاجرت مع زوجها إلى أميركا منذ الحرب الباردة في السبعينيّات، وزوجها بروفسور في الفيزياء جاء لاجئًا سياسيًّا، تقاعد منذ زمن طويل. وهي ربّة بيت، عاشت عمرها في بلد لم يكن به إلّا إعلام رسمي واحد، لكنّها بعد عشرين عامًا من الضجيج في نيويورك، وهي الآن على حافّة الثمانين، وبعد أن صارت متعبة من الإعلام هنا الذي أصبح يذكّرها بالاتّحاد السوڤيتي القديم، مجرّد كلام يعبّئ الناس، ويتحكّم في اختياراتهم وأذواقهم وأفكارهم.. هي الآن متعبة أكثر، وتفضّل فقط أن تتابع «د. فيل»، أو برنامج «أوپرا وينفري»؛ بينما يفضّل زوجها متابعة الـ بي بي سي.. يتطلّع الجالسون على الطاولة بعضهم إلى البعض الآخر، في محاولة لإيقاف إميليا، التي استمرّت تتحدّث بلا توقّف، عن خبرتها في الإعلام المرئي

والمسموع. فقد جاءت إلى أميركا ولم تكن تعرف كلمة إنجليزيّة واحدة، وسكنت في منطقة يسكنها الروس والإسبان، وكان يمكن أن تقضي حياتها دون الحاجة إلى كلمة إنجليزيّة واحدة، لكنّها كانت تحبّ سماع الراديو الترانزستور الصغير الذي يرافقها، ومنه تعلّمت وصارت تتكلّم...

تتكلّم إميليا بلا توقّف ولا فصلات. ولم يستطع أحد من الجالسين على الطاولة انتزاع الكلام من فمها. كانت مواصلتها للحديث تتطلّب تركيزًا، ومهارة عالية، ودرجة من اليقظة تجعل كلّ محاولات الانقضاض عليها، لتسكت، هدفًا ميؤوسًا منه. وبدأت حلقة النقاش تعاني من انسحاب أعضائها واحدًا بعد واحد، بهدوء أو ضجر، حتى ذهب الجميع، وبقيت هي خلفها تمامًا، كلتاهما بانتظار الأخرى، وبجانبها، لمدّة طويلة بعد ذلك. وجودها يعطيها بهجة أن يرافقها أحد حين تسير وحيدة، وحكمة أن تستسلم لدواخلها وأفكارها؛ لأنّ إميليا حين ترافقها لا يعني ذلك أبدًا أنّهما معًا؛ وأصبح أيضًا تعلُّق إميليا بها واضحًا، ربّما لأنّها الوحيدة التي تظلّ صامتة مستمعة حتى النهاية، وترافقها من مناقشة كتاب إلى متابعة حوار. كانت إميليا جاهزة بالقصاصات والإعلانات، ومتفرّغة لتدوّن في دفتر مواعيدها كلّ المناسبات المرتقبة، وربّما تتّصل بها من حين إلى آخر لتذكّرها بمواعيد الندوات المقبلة.

زوج إميليا يعشق الطبخ وأعمال البيت، ولا يهوى الخروج مطلقًا. ويحبّ أن يطبخ وهو يسمع الموسيقى الكلاسيكيّة، يحبّ الهدوء المزعج، ولا يعطي لإميليا فرصةَ أن تفتح فمها. يقول إنّه متعب، وإنّ الأصوات صارت تزعجه. تحبّ إميليا أن تعبّر عن نفسها باستفاضة، فقد صارت تنتظر هند كلّ صباح، على المقعد الخشبي أمام متجر الطعام في الأفنيو الرابع، وتنتظران ضوء الشمس الشحيح، وتتقاسمان كوبًا من القهوة، تشاهدان المارّة والعابرين، وتتبادلان كوبونات الطعام، وقصاصات الأنشطة المجّانيّة، كإعلانات فصول الرقص والطبخ، وكلّ المهرجانات المرتقبة... «مهرجان الشرق»، «بروكلين جاز ميوزِك»، «قابل كاتبك المفضّل في المكتبة»... إلخ.

تجلسان بعدها صامتتين، كأنّهما نسختان، من على مقعد يتحمّل هذا التناقض، والتشابه، تواجهان فراغ البارك الخالي من البشر، وظهْر البيوت التي تتسلّقها أغصان اللبلاب، وفي مواجهتهما الشمس البخيلة شحيحة الضوء. تُعيد إميليا فرز الكوبونات التي لا تحتاجها، تمدّ يدها بكوبونات الفوط الصحّيّة النسائيّة، وحفاضات الأطفال، ومأكولات الرضّع؛ لأنّها لا تحتاجها. ثم تسألها:

ـ ابنك عمره كم سنة؟

ـ ثماني سنوات.

تسحب إميليا الكوبونات لتردّها إلى حقيبتها :

ـ طيّب. خذي هذه ستحتاجينها.

تهزّ رأسها نافية.

ـ أنت ما زلت صغيرة، وتحتاجين هذه الأشياء.

تؤكّد لها نافية.

ـ لم أعد أحتاجها منذ سنوات.

ـ أنت ما زلت صغيرة، إنّها تعود بعد فترة.

ـ لكنّها غادرتني منذ سنوات.

تهزّ إميليا رأسها تفهّمًا :

ـ أنا أيضًا عرفت سنّ اليأس عندما جئت إلى هذا البلد. كنت يومها صغيرة.. في السابعة والخمسين.

تهزّ هند رأسها ولا تعلّق.

فتتركها إميليا، وتعبر الشارع إلى صديقتها المكسيكيّة، جوجو مطلّقة عبد الكريم الكردي، التي تضع الآن على غرفتها الزجاجيّة (قراءة الحظّ ـ قراءة كفّ ـ أبراج فلكيّة ـ تاروت).

تجلس وحدها ممسكة كوبونات الفوط الصحّيّة التي لا تحتاجها، تراقب الدوالي الرفيعة التي نمت على ساقيها، وتقطّع

كوبونات الفوط الصحّيّة إلى قطع صغيرة كما تهوى أن تفعل بكلّ ما يجرحها، تلقي بالنثار في كوب القهوة الفارغ.

تأتي إليها مثلما ذهبت، بلا سبب، ودون أن تودّعها، أو ترحّب بها، تجلس بجوارها ثانية، وتستكمل حوارها الذي تنهيه وحدها وتبدؤه وحدها. لإميليا رائحة العجائز، تلك الرائحة الغامضة التي يتركها الزمن بلا مبرّر، رائحة تعرفها هند، وطالما خبرتها وهي جالسة إلى جوار امرأة كبيرة السنّ تعمل في بيت أبيها، كان اسمها هكذا مركّبًا منذ عرفوها «الجدّة زينب».

الجدّة زينب سمراء، لكنّها إذا واجهت فرن الخبز البلدي في باحة بيتهم، يصبح لونها في لون الخبز المقدّد، تسكب على صدرها المفتوح سطلاً من ماء الحَمية، وهي تغطّ خرقة قديمة في الماء لتمسح بها «عرصة الفرن»، ثم تسكب مزيدًا منه على قُبّة ثوبها الذي يلفحه الفرن بمزيد من الصهد. تجلس خلفها امرأة صغيرة لتساعدها في الخبيز. تقول لها، عقب كلّ رغيف تضعه في الفرن: «ناوليني يا أختي». تدير المرأة يدها في لقان العجين، وتُخرج قطعًا متساوية بكفّة يدها، وتضعها على المطرحة. فتخرج من فم الفرن تلك القطع، وقد صارت أرغفة مستديرة ناضجة.

الجدّة زينب ليست جدّتها، ولا تمتّ لها بصِلة، وفي صوتها تلك اللكنة البحراويّة التي تميّز الغرباء. وظيفتها الأسبوعيّة فقط هي صنع الخبز، لكنّها كانت تأتي أيضًا لتُعدّ طقوس العجين..

تغسل القمح وتفرده على حصائر السَّمار، تعطّره بالحِلبة الحصى والترمس وحبّات الذرة الخشنة، وتحمله على رأسها إلى الطاحونة البعيدة. تفتح مخازن الغلال وتغلقها، تغسل في أحواض العجين، تجمع أوراق الشجر الناشف، ليصبح «وقيدًا»، أو وقودًا للفرن.

الجدّة زينب أيضًا تأتي كلّ جمعة لترشّ الرشوش، وتنثر الماء والملح في أرجاء البيت، وهي تحوقل من أعين الحاسدين، وتسقي بماء طاسة الخضّة أهل البيت، وتُعدّ بعض أبرمة الحمام والأرزّ المعمَّر في المواسم المعروفة كـ «عاشوراء» و«الرجَبيّة»، و«أوّل شعبان»، ويدها فيها البركة كما يقولون، تغمّسها في زيت الزيتون وتمسّد بها ظهر الأمّ المتعَب دائمًا، أو تجبّر بها أرجل الصبيان الذين يتعثّرون كثيرًا، وتنكسر أقدامهم في التنطيط على الحوائط.

الجدّة زينب ليست خادمة، وليس هناك ما يشي بذلك. فهي لا تعمل عندهم فقط، وكثيرًا ما تعبر على بيوت كثيرة لتقوم بالأعمال نفسها.. الاعتناء بالولادات، وربط سرّة الرضّع، ومعالجة الأوجاع بمساحيق زيتيّة من الكافور واللبخة، ودهن بذرة الكتّان، بيد مدرّبة سريعة وخبيرة.

أعلى جبهتها وشمٌ على هيئة سمكة خضراء، وأخرى بلاستيكيّة مدلّاة بخيط على قبّة صدرها، وعلى معصمها عدد من السمكات الخضراء أيضًا. فتحة منخارها مشقوقة من أثر (شناف)

كان يزيّن أنفها ذات يوم، شرمَ فتحة الأنف، ونزل تاركًا هذا الشقّ الطولي.

الجدّة زينب شعرها غزل البنات أبيض، وقد أنهكته الأيّام. تسبّله تحت العَصْبة، بأن تغمس يدها في الزُّبد، وتدهن مفرق شعرها الأبيض اللامع. تسير في البيت نحيلة مثل قصبة مجوّفة خاوية من اللحم، وفي ساقها الأكثر نحولاً يتقوّض حِجل ثقيل من الفضّة الخالصة. بيتها غرفة من الطين أسفل سور غرف الخبيز، تتسلّق هند الحائط الواطئ، وتصبح في قلب دارها. تقول بنبرة متودّدة: «يا جدّة، ماما عايزاكِ». تصبح بعد برهة في قلب البيت، تحلب البهائم، تصنع قطع الجبن، تجمع البيض وتراقب البطّة الراقدة على أفراخها.. ترصّ في كراسي الجوزة، ويخرج الدخان الداكن من أنفها المشروم، وهي تضحك قائلة: «الدخّانة بتطيّر عفاريت الراس».

تواظب الجدّة زينب على حضور دقّة الشيخة «السفينة» التي تطرش دمًا، ترتدي ثوبها الأخضر يوم سوق الخميس، وتتكفّت بطرحة بيضاء، وتقول باقتضاب، بعد أن تلقي ما جلبته من السوق على الأرض: «أنا رايحة الدقّة.. فُتُّكم بالعافية». تقول ذلك بصرامة، وتختفي من الضحى العالي حتى أفول الشمس. تأتي بعد ذلك متعبة ومكدودة، وغير قادرة على التحدّث، تفرد جسدها في البلكون الغربي، ويسمع العابرون صوتها وهي تتحدّث مع أشباحها

وهي ناعسة. حين دخلت هند إلى غرفة الخبيز لم تكن تريد شيئًا، كانت تريد فقط أن تتفقّد خروج الخبز الطري من فم الفرن الملتهب. ثم بعد برهة من تأمّل حركة المطرحة مع العجين الطري، قالت بتودّد: «عايزة حنّون يا جدّة»، أي رغيف خبز صغيرًا، يُصنع عادةً للصغار. لم تجبها الجدّة زينب التي كانت مشغولة بإكمال حكايتها: «قلت حدّ الله ما تمدّ إيدك عليّا».. فهمتْ أنّها تحكي لقرينتها قصّتها مع زوجها الأوّل.

كانت هند قد سمعت تلك القصّة كثيرًا، فلم تبالِ بالإنصات للحكاية المكرّرة، ولم تستجب الجدّة زينب لمطلبها بصنع «الحنّون»، وأكملت: «صار يضربني على وِشّي، ويقول: كنتِ فين يا بنت الكلب؟ وأنا أقول له: كنت منذورة للشيخة السفينة. ما سابني إلّا لمّا وقّع سِنّتي الكبيرة دي».. تفتح فمها لتُري قرينتها أنّها ثرماء بسنّة واحدة. قالت هند بضجر: «عايزة حنّون بقى يا جدّة». لكنّ الجدّة كانت مشغولة أكثر بالخرقة التي تمسح بها سطح الفرن.. «تركني يا أختي زَيّ الخرقة دي» تشير إلى خرقة الهباب، ثم تكمل: «قام راح يتوضّا على جسر الترعة. ولمّا جه يبرك، نسي المطواة اللي شرخ بيها جسمي مفتوحة في جيبه، وكان نصلها حامي». وتشير إلى الشرخ الذي في وجهها من أثر مُدية قديمة: «أنا قلت له حدّ الله حدّ الله.. لكن لا آمن بحدّ ولا بربّ، قام فتحِتْ المطوى بطنه، وهو بيتوضّا، وجابوه لِي في البيت خلصان».

هند التي سئمت التنصّت على بقيّة التفاصيل، وأحسّت بإهانة تجاهلهما لها، قالت بعنف أكثر: «ياللاّ يا جدّة».. لكنّ وجه الجدّة احمرّ مثل جمرة، وأمسكت بعود من الحطب، وأشارت بغضب: «ياللاّ يا بت من هنا ما فيش حنّون». كانوا قد اعتادوا هيجانها بلا سبب، تهشّ الأطفال مثل كلبة عاقر، ثم تعود فتربّت على شعور رؤوسهم بيدها الخشنة، وتغمس الحنّون في العسل الأسود، وتلقّم الأفواه المفتوحة لتصالحهم بتودّد. لكنّ هند لم تواجه غضبها بالصمت ولا الخوف، بل كبشت بيدها حفنة من تراب الأرض، وطوّحت بها في وجهها. وفي المرّة الثانية كان الغبار يغطّي لقان العجين. فعلت ذلك، ثم لم تتوقّف عن العدْو، حتى وصلت إلى شجرة البوسيانس وصعدت في قفزات متواصلة، بينما عصا الجدّة زينب الطويلة تلاحقها وتتوعّدها حين تنزل. وحين نزلت أخيرًا سحبتها اليد الخشنة إلى هناك، حيث أغلقوا بابًا خشبيًّا قديمًا عليها حتى عدّى نصف النهار وهي خلف الباب. كانت الغرفة الطينيّة الرطبة مليئة بالجحور وأكوام العشب الأخضر، تقفز فيها الأرانب التي تظهر فجأة، وتقضم الخضار ثم تعود واجفة إلى جحورها. جلست هند على الحجر الصخري البازلتي الأسود، خلف الباب وتأمّلت الجحور حولها، والمناور العلويّة تفرز ضوءًا شحيحًا قادمًا من سماء قرمزيّة باهتة.

بعد ذلك جاءت الجدّة زينب حاملة الحنّون والعسل. لكنّ البنت التي بالت في سروالها لم تفتح فمها، ولم تنفع معها طاسة

الخضّة، ولا القفز فوق البخور الجاوي سبع مرّات. صارت بالية، وفي عينيها ذلك الوميض الغامض. بعد عدّة أيّام قالت إنّها شاهدت الجدّة زينب على هيئة ضفدع طيني أخضر بلون البرسيم، وإنّها كانت تقفز على أكوام العشب الذي رموه للأرانب، وإنّها وقفت قبالتها، ومدّت لسانها كمُدية بيضاء، وطلبت منها أن تلحس بطنها بلسانها، وأن تبلع ريقها بعد ذلك. كانت خائفة من الظلمة ومن حركة الأرانب؛ ففعلت. لحست بطن الضفدع الأخضر، وبعدها تسرّب منها البول، وظلّ ينسرب لأعوام قادمة، رائحته النفّاذة تلتصق بأثوابها رغم كلّ الاحتياطات.

الجدّة زينب لازمت البيت بعد ذلك لعدّة أسابيع، ظلّت ترشّ الرشوش وتحوقل بالرقى. ولم تجد بُدًّا من غسل جسد البنت بماء الورد، وألبَستها ثوبًا ناصع البياض، وحملتها إلى «الشيخة السفينة». وبعد أن أضاءت سبع شمعات في شبّاك الشيخة، وقالت: «والنبي حبيبِك ما تكسفيني. أنا اللّي روّعت الصبيّة». بالت هند في سروالها، ولم تكفّ بعدها عن التبوّل في سراويلها، بل صارت ترى في أحلامها الجدّة زينب في هيئة ضفدع ضخم يسير خلفها في جحور سرّيّة، ولعاب رخو يسيل من فمها.

تعبث الجدّة زينب في شعرها وتتثاءب. لأ، العين فلقت الحجر، ثم تحكي لها عن بلاد تشيل وبلاد تحطّ؛ فترى حبّة الحكمة قد دبّت في شعرها وانتشر الشيب في جذور شعرها. وهي

لم تكمل العاشرة بعد. تنقع الحنّة مع حبّة البركة ومغلي الشاي، وتضع ذلك على رأسها؛ فيتحوّل شعر هند الطويل إلى مزيج من هباب أسود وحمرة ناريّة متّقدة، ويشقّ اللهيب الأبيض جذور الشعر، ويطلع من جديد، تتنهّد الجدّة زينب من الأسى، وتقول: «ورّتنا بنتك العجايب يا ستّ». تضيف أمّها إلى ألقاب ابنتها لقب «الجنّيّة» و«المهفوفة» و«المطيورة».

نحيلة وقصيرة، وصارت عيناها مع الوقت أكثر غموضًا. تمشي الآن بجانب إميليا، وتظلّ تواصل المشي كلّ صباح معها، مخترقة أرصفة الأفنيو الرابع، حيث تحبّ إميليا أن تتفقّد الرصيف العريض المليء بصناديق الحاجيات التي استغنى عنها أصحابها من الطلبة والموظّفين الموقّتين والسيّاح، وألقوا بها على الرصيف للمارّة. يلقون بالكتب والصور، وما أصبح حمله عبئًا يجب التخلّص منه ويكتبون عليها.. «خذني لو أردت». تتأمّل العبارة التي تشعر أنّها موجّهة إليها بلا مناسبة.

تبحث إميليا في الصناديق عن الأحذية القديمة والزجاجات الفارغة، تقلّب ببطء وصبر في صناديق النفايات، ثم تجلس بغنيمتها في أيّام السبت على ناصية ويندسور ترّاس بجانب الباعة، عارضة بضاعتها المنتقاة. تخصّصت إميليا في بيع الأحذية، تنادي في السوق على العابرين: (حذاء «مارلين منرو»، حذاء «أودري هيبورن»، حذاء «فرح فاوست».. أحذية مدرسيّة).

تقول لها إنّها تذكّرها بأشخاص كثيرين في حياتها، تضحك إميليا، فتنكشف أسنانها التي سقطت، وتقول ضاحكة: «أعرف.. أعرف.. كلّ الناس يقولون إنّني أشبه عجائز فيلم زوربا. للأسف لم أرَ هذا الفيلم. ولا أعرف السيّد زوربا، لكنّ كلّ العجائز يشبهن بعضهنّ البعض يا عزيزتي».

يسقط المطر الخفيف على وجه إميليا الضئيل، المليء بالتجاعيد. تتركها تقلّب وحدها في العلب الورقيّة الملقاة على رصيف ما، تجلس هند على المقعد الخشبي الذي يواجه مدرسة طفلها، فيما تظلّ عيناها تتابعان إميليا، وهي تدفع عربتها الصغيرة، حاملة فيها أحذية على مقاسها، وأخرى لا تناسبها. تدفع عربتها، وتبتعد.

# ٥ كوكو بار

## *Coco Bar*

تحت نافذتها بالضبط يقع البار الصغير، الذي تفوح منه رائحة بيرة طازجة من براميل خشبيّة تبدو عتيقة. تحبّ رائحة البيرة لأنّها تذكّرها بأبيها. تقول الجدّة زينب: «أبوكِ كان غاوي. الله يرحمه بقى، كان يمشي في العلواية والبنات يغنّوا من ورا الشبابيك، وفاطمة القروميّة يا ما شَعَرِت فيه ـ أي قالت فيه شعرًا: من تحت شبّاكنا هوّ الحليوه اللي فات.. من تحت شبّاكنا حنكه ينقّط عسل.. من تحت شبّاكنا، وأنا أعمل إيه يا بنات؟ من تحت شبّاكنا هوّ الحليوه اللي فات».

كان وسيمًا وأنيقًا. ذلك ما تظلّ هند تتذكّره عن والدها. يرتدي بذلات أنيقة مكتملة. كان هذا يتطلّب جهدًا إضافيًّا من

الأمّ، في كيّ مناديل جيبه البيضاء، وترتيب جواربه وربطة عنقه، بما يتناسب مع ما يرتديه. صوره أيضًا في الألبوم أمام مدرج كلّيّة الحقوق، جامعة فؤاد الأوّل، أنيقًا وسيمًا. تعرف هند أنّه، منذ سنة تخرّجه، لم يلتحق بأيّ عمل لأسباب لا تعرفها، فقط علّق على باب المضيفة أعلى التلّ (محامي جُنح في المحاكم العموميّة). لكن لم يكن له مكتب ولا قضايا ولا موكّلون، ولا يزور المحكمة إلّا إذا أراد أن يسلّم على بعض أصدقائه. وظلّ بتلك الهيئة يخرج كلّ يوم مرتديًا زيّه الكلاسيكي، ملمّعًا شعره الأسود بالفازلين، يفتح صدريّته ويسير في الطرقات التي تعرفه وجيهًا أنيقًا، متقاعدًا مولعًا بأن يجلس في مجلس المدينة، أو الجمعيّة الزراعيّة أو المجلس المحلّي؛ وكلّها غرف في مبنى واحد بُنِيَ من الطوب الأحمر وسط البلدة؛ يعجّ المبنى بالمتعلّمين من أصدقائه، كالدكتور شامل الصيدلي، والأستاذ إميل الناظر، وسعادة رئيس مجلس المدينة الذي يتغيّر اسمه كلّ بضع سنوات. وهم الأشخاص أنفسهم الذين يلتقون أيضًا للسهر في مبنى مجاور يسمّونه «المضيفة». وهو بيت صغير أعلى تلال فرعون، كانت تسكن فيه امرأة تُسمّى «الضيفة». تذهب هند إلى المضيفة طوال الوقت لأسباب متعدّدة، تتسلّل حاملة له بعض الأغراض التي يحتاجها: «بابا عايز عَشَا، بابا عايز غيار نضيف، بابا عايز حاجة حادقة؟». تجهّز لها أمّها صواني صغيرة من بعض المخلّلات المنزليّة، والفول النابت والليمون، وتحملها باتّجاه المضيفة.

أحيانًا تذهب إلى هناك لتسأله عن فَكّة لماما. كانت هند تكره ذلك الجزء من مهامّها المنزليّة التي لا يستطيع أحد غيرها القيام بها، ويرفض الإخوة الذكور الإقدام على المحاولة. ذلك التفاوض اليومي على النقود كان يتمّ من خلالها، أحيانًا ما ينفجر في وجهها بالسباب الذي تحفظه «فكّة فكّة فكّة. هو أنا قاعد على مكنة.. كلّ يوم أدقّ زفت فلوس». لكن، أمام نظرة هند الثابتة واللائمة في آن، كان يُخرِج في النهاية من جيوبه القطع النقديّة لتحملها وتذهب. في مرّات كثيرة تعود هند فقط بهذه الجملة المختصرة «مش معايا».

تستقبل الأمّ هذه الجملة القصيرة، التي تختزل كلّ معاناتها، باحمرار في الأنف، وتنهّدات، تعرف هند أنّها بداية انهيار مفاجئ، يطوي البيت فجأة طوفان من الكآبة والألم.

تذهب هند إلى المضيفة لأسباب غير معلنة أيضًا، تسأله ببراءة «ماما بتقول شوفي بابا عايز حاجة؟».

لم يكن أحد من إخوتها يستطيع فعل ذلك، لأنّ أباها في النهاية يبتسم لطفلته، ولا يستطيع أن يتمادى في قسوته، حتى لو أراد.

كانت المضيفة بيتًا قديمًا على الربوة، تسكن فيه «الضيفة» رحمها الله، ثم وضع أبوها عليه بعد وفاتها لافتة تذكّر بأنّه محام في محاكم النقض والاستئناف العالي، وبعض المحاكم الأخرى

التي لم يذهب إليها قطّ، لأنّه يؤمن بأنّ المحاكم مضيعة للوقت. والمضايف هي المكان اللائق بحلّ الخلافات. في المضيفة يجلس كلّ ليلة مع أصدقائه، تسمع هند أحيانًا من داخل المضيفة صوت «فاطمة القروميّة» وضحكتها الطويلة، وشخرتها التي تتبع كلّ ضحكة. تسمع ضحكات مختلطة لرجال آخرين، لكنّها لا تدخل أبدًا.

في المدرسة سيحترمونها كثيرًا، لأنّ أباها كان حريصًا على حضور مجلس الآباء الذي لا يحضره أحد، ويجلس مع ناظر المدرسة الأستاذ إميل، ويحدّثه عن المسؤوليّة في رفع مستوى التعليم، ويعرض عليه أن يشاركه سيجارة من سجائره الدانهيل الحمراء؛ فيسقط إميل الناظر من الطرب؛ لأنّه وجد من يشاركه هواجسه. ويبدأ في الفضفضة: «سعادتك، تعليم إيه؟ أنا تعداد مدرستي يزيد على مئة طالب، والمديريّة لم تدفع ملّيمًا واحدًا حتى لإصلاح الجرس المدرسي. تصوّر سعادتك أنا أستعمل فقط الصفّارة أنادي بها على الفصول؟». يعرف أبوها أنّ إميل الناظر قد افتتح مؤخّرًا دكّانًا صغيرًا، لاستئجار العَجَل وإصلاح الإطارات. وأنّه يقضي معظم وقته أمام الدكّان الذي هو مخزن صغير، بطرف الفناء المدرسي. . إميل الناظر سيصبح، بعد تلك الاجتماعات، صديقًا شخصيًّا لأبيها، تراه في المضيفة منشغلاً بإعداد أطباق السجق الحارّ، وحاملاً زجاجات البيرة، وضاحكًا على غير عادته. يؤكّد من حين إلى آخر «والله سعادتك هوّنت

علينا الغربة.. سعادتك لولا اللمّة دي، البلد كانت أصبحت موحشة».

تعرف أنّ أباها هوّن أشياء كثيرة على المغتربين أمثال إميل الناظر وشامل الصيدلي، وكثيرات من المغتربات أيضًا، وأنّ المضيفة تصبح سكنًا موقّتًا لكثير من المغتربات كأبلة ابتسام مدرّسة الموسيقى، القادمة من بور سعيد، وترتدي ثوبها المثير «ميني جيب»، ذات الأظافر الملوّنة. وأبلة فايقة مدرّسة التربية المنزليّة التي علّمت أمّها غرزة البطّة في الكروشيه.. وغيرهما. كثيرات من المدرّسات المغتربات يصبحن ضيوفًا لبضعة أسابيع، اعتادت هند أن تحمل لهنّ صواني الفطور والعشاء في مقرّ إقامتهنّ بالمضيفة. بعضهنّ يأتين في نهاية الفترة ليشكرن الأمّ على كرم الضيافة، ويجلسن معها لبعض الوقت في البلكونة الغربي، ويعلّمنها حردة الكورسيه، أو بوكل الشعر والشينواه، وبعضهنّ لا يأتين بالمرّة، بعضهنّ يجدن في موظّفين صغار أزواجًا محتملين، وبعضهنّ ينتقلن بسرعة إلى مكان آخر لأنّ «تلال فرعون» قرية صغيرة قاحلة، وغاية في التأخّر.

الممرّضات أيضًا كنّ يعرفن طريقهنّ إلى المضيفة، وغالبًا لا يجئن لتحيّة أمّها. كان الدكتور شامل اختصاصيًّا في تعريف الممرّضات الجديدات بالمضيفة، وتزوّج أكثر من مرّة بالقادمات الجديدات، ثم يختفين مثلما جئن ببساطة. وتبقى «فاطمة القروميّة»

هي الوحيدة التي تفتح وتدخل، وتجلس في وسط حلقة الرجال، وتشخر بصوتها الذكوري الغامض.

كان أبوها أيضًا مولعًا بأعمال خيريّة أخرى كثيرة، كَحَلّ قضايا النزاع العالقة بين العائلات. وكان يفعل ذلك بسعادة وقدرة فائقة على الإقناع، بهيئته الأرستقراطيّة، وبذلاته النظيفة الأنيقة وصوته الرخيم. ولأنّ المحاكم حبالها طويلة ولا أحد يذهب إليها، والتجهيز لحلقة الصلح كان يقتضي بسط الوسائد في المضيفة، وتجهيز عدّة بكارج للقهوة والشاي، وأحيانًا ذبح أضحية صغيرة، إذا تمّ الفصل في النزاع، أو الصلح. كان يجلس على البساط السَّمار في عباءة أنيقة؛ متّكئًا على عدّة وسائد. ويستطيع ببلاغةٍ الاستشهادَ بقانون العقوبات، وأقوال الإمام عليّ ووصايا الأنبياء، ويستشهد بسوَر القرآن، بفصاحة تقنع المتقاتلين بالمصالحة على «كيلة» غلال أو خمسة جنيهات، وأحيانًا على بوصة من الأرض الفاصلة بين المساقي، والاقتناع بأنّ ما عند الله خير وأبقى. وبعد حُسن الضيافة والشاي والقهوة والذبيحة، يخرجون برضا، ويظلّ الأب يشعر برضا مماثل لعدّة أسابيع مقبلة.

تقول له أمّها ـ بعد أن ترتدي الروب الذي له لون العسل ـ بعتاب، يتظاهر أنّه لن يفهمه: «إنتَ تاعب نفسك كده دايمًا مع الناس؟». سيردّ بعد أن يهزّ رأسه عدّة مرّات بتسليم: «أعمل إيه يا بنت عمّي؟ ده واجب. وأنتِ بنت عرب، وتفهمي في الأصول».

ستبتسم أمّها كما لم تبتسم من قبل؛ لأنّه حين يقول لها تلك الكلمة: «يا بنت عمّي»، فإنّ ذلك يعني رضاه التامّ، ويعني أنّه سينام في فراشه لعدّة أيّام مقبلة، وأنّه سيُعيد عليها قصّ تفاصيل النزاع أكثر من مرّة، وسيشرح لها حكمته في احتواء الأزمة. إلّا إذا تخطّت ذلك بالعتاب أو اللوم الخفيف، وتجرّأت وقالت بصوتها الغاضب الحانق الذي يعرفه أحيانًا: «وإحنا علينا بإيه من الهمّ ده.. كلّ يوم ذبيحة وبرتيتة ومصاريف؟ أنا أولادي أوْلى. وبيتك أهمّ». ساعتها ستتحوّل الجلسة الهانئة إلى خلاف لا يمكن احتواؤه. سيغضب ويخرج من الباب الشرقي، تاركًا مزيدًا من الكلمات المبعثرة عن الغمّ والهمّ والقرف. يخبط الباب الزجاجي عدّة خبطات، ويخرج ويبيت في المضيفة البعيدة المطلّة على تلال فرعون، ويوقد راكيّة النار، وتعبق النكهات المختلطة في الفضاء، وتكون ثمّة معطّرات إضافيّة كالسطلانة والحشيش والسجائر، ورائحة «فاطمة القروميّة» وعطرها الثقيل، وهي تضحك ويهتزّ لحمها الأبيض الغليظ، وجسدها الممتلئ وهي تقول: «ما قلنا لك عِشرة النسوان غمّ يا ابن خالي».

يحبّ أبوها القراءة، ويقرأ كثيرًا لأنّه يحبّ أن يبدو خبيرًا بكلّ شيء. يفضّل قراءة رحلات كولومبس، وإدوار لين في بلاد العرب. يقرأ عن أماكن لم يرها، كمنابع النيل وأرض البجه، يتحدّث عن باريس ونابولي وطنجة. ويقول لأصدقائه في المضيفة إنّه سافر إليها كثيرًا، ويصدّقونه لأنّه يتحدّث بثقة، ويدلي بتفاصيل

تقنعهم. كانت هند تصدّقه أيضًا وتركب معه في مخيّلته عرض البحر، وترى السفن والموانئ البعيدة. كانوا كلّهم يكذبون حوله ويتواطؤون على التصديق لتصبح لجلسة المضيفة بهجة الأشياء المشتهاة. فالدكتور شامل الصيدلي كان يقول إنّه يسافر لمؤتمرات مهمّة، ويخترع أدوية للصرع وقرح الفراش، وآلام المفاصل، ومقوّيات الباه. ويتفنّن في مزج السطلانة بالأفيون، ويؤكّد أنّ لكلّ داء دواء إلّا آلام البروستاتا فهي، والعياذ بالله، لا شفاء منها. يضحكون لأنّهم يعرفون أنّ المؤتمرات التي يذهب إليها عادة ما تكون في الإسكندريّة، وأنّها مجرّد جولات لاصطياد بعض المومسات البيضاوات. ويعرفون أنّه صار مدمنًا للأفيون الذي أتلف عقله. إميل الناظر كان أيضًا يكذب، ويقول أشياء عادة ما تكون مرتبطة بفحولته. كان إميل الناظر نحيلاً وقصيرًا، وله بشرة داكنة، كثيف الشعر، ويبدو مضحكًا في تصوّره للفحولة التي يداري وراءها ضآلته، ولكنّهم كانوا يحبّون نكاته الحارقة، التي تضيف إلى جلستهم طعم السجق والخيار المخلّل. فاطمة القروميّة كانت أيضًا تقول إنّ أصولها ترجع إلى أشراف المدينة المنوّرة، وإنّها أطهر من الحضرة الشريفة. تترك بضحكتها الطويلة الممطوطة هذا الألق للعهر والأمومة، وتُثير بدخان الجوزة في يدها بهجة الأنوثة والعهر معًا.

ينام في المضيفة لعدّة ليال. تقف هند أمام البوّابة الخشبيّة العابقة بالأدخنة، وتسأله «ماما بتقول شوفي بابا عايز حاجة؟».

تسير معه ممسكة بيده، يعبران ماكينة الطحين، وخليج مقاوي وعدّة دور طينيّة صغيرة، وهو يشير بيده. . «ده كان إقطاع جدّك سليمان. وهذه مزيَرة المرحومة جدّتك سقاوة. ودا خليج الرمل. تسير معه متعثّرة في الطوب والرمال، عائدًا إلى بيته متعبًا مكدودًا يبتسم بيأس، ويلتحف بفراشه أو يستلقي في البلكون، ويتحلّقون حوله.

اعتاد أبوها أن يتناول البيرة قبل أن ينام. تركض باتّجاه دكّان عمّ محمود، وتقول: «زجاجتين بيرة ستلّا، وعلبة سجائر دنهيل». يتحلّقون حوله قبل أن يبدأ في سرد قصّة سيّدنا «موسى»، وهو نائم على الحصيرة السمار في البلكون الشرقي، ويقول بين كلّ مقطعين: «صلّوا على النبي». تحبّ هند قصّة سيّدنا يوسف أكثر، وتحبّ صوته وهو يردّد مقاطعها بهذا التأثّر الشجي، وهو يبتلع جرعة من الرغاوى الصفراء في كوب البيرة، يقف على تلك الآية ويكرّرها «يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا إنّ الشيطان للإنسان عدوّ مبين». يحفظ النصّ القرآني ولا يخطئ في تشكيله وتنقيطه، يشرب البيرة على مهل ويكمل: «قال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة». تتدخّل أمّها أحيانًا لتقطع الحكاية، مؤكّدة أنّ الحسد حقيقي. يكون ساعتها رأسه في حجرها، وأصابعها تعبث في شعره، وأولاده متحلّقون حول قدميه، صغارًا ومتعلّقين بصوته العميق الذي يشدّهم لحكاية تلو أخرى. ربّما حلمت ساعتها أن تكون شيئًا عظيمًا تحمل عصا

ينفلق بها البحر، أو تركض في الصحراء فيتفجّر الماء من تحت قدميها. حلمت أن يصبح لها دور في قصّة كبيرة. وبدا لديها هذا الهوس بدور بطولي مؤثّر في الحياة، عندما قال لها مدرّس العربيّة ذات مرّة: «إنتِ إن شاء الله ستصبحين حاجة عظيمة».

بدأت تبحث عن معنى لهذه العظمة. وكان هدفها الأوّل هو تلك الفريسة السهلة التي تجلس في آخر الفصل، صامتة عادة وخائفة. اسمها «إنجيل»، ممتلئة كدبّة سمراء قصيرة، لها ملامح مختلطة من طمي وعَرق وبساطة مدهشة. ومعها بدأت مهامّها في هداية البشر؛ تنتحي بها جانبًا وتحدّثها عن أهمّيّة قول لا إلٰه إلّا الله، لتدخل الجنّة. تهزّ إنجيل رأسها بفهم وانسحاق. تؤكّد لها مرّات عديدة: «قوليها في سرّك. المهمّ أن تدخلي الجنّة بها». تُخرج إنجيل من حقيبتها القماش المتّسخة قطعة من الخبز الطري المحشو بالحلاوة الطحينيّة، أو الجبن، وتمدّ بيدها إليها مقتسمة طعامها «تاخدي حتّة سندويتش؟». تحاول بذلك تغيير الموضوع، والخروج من تحت يد مخلّصها بسلام.

تمشي إنجيل بجوار كلّ الحوائط؛ لأنّها تخاف أن تركض فتصطدم عفوًا بأحد أثناء الركض، وتمشي بحذر لأنّها طيّبة دائمًا وبلهاء أحيانًا، لا تفهم الإهانة إذا قصدها بها أحد. تبدو مسالمة معظم الوقت، لأنّها لا تستطيع أن تكون غير ذلك، ولأنّ ذلك ينقذها من مواقف حرجة كثيرة. تسمع كلّ محاولات هدايتها

وإقناعها بتغيير ملّتها بلا تعليق أو ضجر، فقط تهزّ رأسها موافقة، وتختم في النهاية بأنّ «الربّ وحده يمنحنا البصيرة». تردّد هذه الجملة كخلاص، تعطي بها انطباعات إيجابيّة؛ علّ ثمّة أملاً ما في هذه البصيرة المنتظرة. لم تفقد أملها في هداية إنجيل قطّ، حتى اختفت إنجيل فجأة من المدرسة، وبات واضحًا أنّها فقدت أوّل معاركها في هداية البشر.

في تحوّلاتها لتحقيق بطولتها، أصبحت هند أوّل بنت ارتدت في المدرسة هذا الحجاب المسدل الطويل. كانت البنات يضعن على رؤوسهنّ أغطية خفيفة، تكشف نصف الشعر والضفائر الطويلة، حتى القرويّات كانت ضفائرهنّ تترنّح من جانب الشعر، بلا مخاوف. حتى وضعت هذا الحجاب الثقيل على كامل رأسها، وقالت «إنّ الله أمر بالخِمار وليس بالإيشارب الشيفون الهَفْهَاف»؛ لتُظهر بذلك قدرًا من التقشّف والزهد. ثم غضّت بصرها عن زجاجة البيرة، واستغفرت كثيرًا لأنّ أباها في الحقيقة رجل طيّب. ارتَدت الكثيرات في المدرسة ذلك الحجاب الثقيل مثلها، رغبة منهنّ في إظهار مزيد من الاحتشام؛ فاختارت اللون الأسود أو الأزرق لحجابها، لتُظهر مزيدًا من الخشية والتديُّن والاختلاف.

ثم كانت أوّل من لبسن قفّازًا أسود، وقالت بتواضع «أنا لا أصافح. لعن الله المصافح والمصافِحة». كانت تسير في طريق طويل من عقاب الذات، وجلدها بمزيد من النواهي. وحتى بعد

أن بحثت في عدّة تفاسير وعرفت أنّ المصافحة هي تماسّ الجسد بالجسد، ومنها المحاككة والملامسة، وأنّها تفضي إلى المضاجعة، وأنّ كلّ ذلك ليس له علاقة بسلام عابر. وقرأت عدّة تفاسير. لكنّها، ومن باب دفع الشبهات، ظلّت ترى في السلام شبهة، وأنّه يفتح باب الإثم، وأنّ القلوب تسلّم والأجساد تهمّ بالخطيئة.. كانت أوّل من استبدل «صباح الخير» لزميلاتها بـ «السلام عليكم». كان ذلك حدثًا غير اعتيادي، فكلّ من لم يسلّم آثم قلبه. الحقيقة أنها كانت مشغولة بالإثم طوال الوقت، مشغولة بتفسيره، وتأويله والبحث عن قائمة من التفسيرات التي تجعلها وحدها القائمة بفهمه. كانت أوّل من صمّم تلك الوقفات الخماسيّة للوعظ والإرشاد في ركن المدرسة. كانت براعتها أن تجعل الآخرين يبكون ويشعرون بالذنب؛ أيّ ذنب. كان ذلك مبهجًا لأنّ الطريق الطويل الذي عاشته يبدأ بالذنب وينتهي به. وبينما انشغل الطلبة بالإذاعة المدرسيّة والأنشطة الطلّابيّة ومجلّات الحائط الفكاهيّة، كانت مشغولة بغضّ البصر، وكبح الشهوة، وبأن تكون شيئًا عظيمًا.

كان أبوها ما زال جالسًا على الحصيرة نفسها، وأمامه زجاجة بيرة واحدة، لأنّه متعب ويحاول أن ينام. وعلى فمه تلك الابتسامة التي تتذكّرها، وهو مشغول بإكمال حكايته: «قال يا موسى ألقِ عصاك فإذا هي حيّة تسعى».. لم تكن تجلس إلى جانبه، كانت وحدها تصلّي التهجّد، أو تبحث عن الحلال

والحرام، وتبحث في حقيقة كونها شيئًا عظيمًا، وسيغيّر بها الله أشياء كثيرة لا تعرفها. من المؤكّد أنّها صدّقت ذلك، ولفترة طويلة، لكنّها مثلما لبست هذا «الإسدال» الأسود الطويل، كانت أوّل من خلعته، وقالت إنّ الستر لا يتنافى مع الجمال، وإنّ الله أباح ما ظهر منها. ودخلت في متاهة طويلة من التفسيرات التي تجعل تراجعها مقبولاً، واختياراتها الجديدة مسنودة بدعم النصوص التي تفسّرها على راحتها؛ لتملك هذا الوعي المغاير للآخرين. كانت مشغولة في ذلك الوقت بأن تكون مختلفة. استبدلت بالأثواب الواسعة التي تجرّها وراءها في التراب، أخرى أقصر، أضيق، وأكثر انسجامًا مع تضاريس جسدها، أثوابًا ملوّنة بتلك الألوان الزاهية التي اشتهتها، إذ لم يثبُت تحريم لها. وتركت أيضًا خصلة شعرها تنحدر من أسفل غطاء رأسها لأنّ الله غفور رحيم، ولن يرى في خصلة شعرها إثمًا كبيرًا. ها هي الآن تسير في فلات بوش مكشوفة الرأس، ولا أحد ينظر إليها. نظراتها ما زالت مصوّبة إلى الأرض لأنّها لا تستطيع أن ترفع رأسها أبعد من ذلك. نظراتها الخائفة ميراث طويل من غضّ البصر والخوف والانسحاق والتلاشي في آن. ما زالت ترتدي تلك الملابس الفضفاضة، لأنّ جسدها ليس متناسقًا تمامًا، ومليءٌ بترهّلات امرأة في منتصف العمر، شعرها ملموم في لفّة واحدة، متشابكة خلف رأسها، كتلة من الخيوط المتشابكة الثقيلة، لأنّها فقط لا تجد وقتًا كافيًا لتصفيفه، وعليها أن تركض طوال النهار خلف

الحافلة، والسوق، والمدرسة، والأحياء التي تشتري منها البضائع الرخيصة. إلى جوارها تمشي الإسبانيّات بملابس قصيرة عارية مبهجة، وشورتات ساخنة ولا ينظر إليهنّ أحد. يتمدّدن على النجيل الأخضر حول بروسبت بارك وتنكشف أفخاذهنّ للشمس.

تعبر هند الحديقة وهي في طريقها إلى المكتبة كلّ يوم، تجلس على السلالم الرحبة بانتظار الدرس. يجلس سعيد بجوارها وهو يبتسم بمحبّة، تراقب تلك المحبّة في عينيه، ولا تعرف كيف تستقبلها، تراقب التشريط الطولي على خدّه ودقّة الوشم على مفرق ذقنه، وتتذكّر أنّ أباها كان له هذا التشريط الطولي؛ لأنّه جاء من زمن كان التشريط والفصد هما العلاج الوحيد، لكنّها لم تفهم مغزى دقّة الوشم الأنثويّة التي تجعل ابتسامته أكثر اتّساعًا. سعيد يرتدي دائمًا بذلات كاملة لأنّه سائق ليموزين، يحمل لها أحيانًا سندويتشات حلاوة طحينيّة أو فلافل ليقتسماها، قبل الدرس أو بعده. وعادة ما يقطع طعامه ويعتذر منها للردّ على تليفونات مفاجئة، يردّ بأدب «نعم يا أبونا.. حاضر يا أبونا». ثم يشرح لها كيف طلب القسّيس منه بعض الأعمال التطوّعيّة في الكنيسة. لم يقل لها سعيد كيف أتى إلى أميركا. كان يحاول أن يضفي صورة المخلّص على حضوره الطفولي المثير للضحك، يذكر دائمًا أقاربه الكثيرين واللوتري وأعمال الكنيسة الخيريّة. وقد حاول أن يدعوها قائلاً بتردّد «لماذا لا تأتين لتقضي الأحد معنا وبعدها نخرج ونتمشّى..؟» تهزّ رأسها موافقة لأنّها تحبّ أن تسير بجانبه،

وتشعر أنّ رجلاً في هذا العالم ما زال يكترث لحضورها. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة التي توصّلت إليها في النهاية. أن تسير، وأن تشعر بأنّ ثمّة من يكترث لوجودك، وأن تشعر بأنّك قادر أن تُحِبّ وأن تُحَبّ، وأنّ الأشياء لم تفلت كلّها من يدك، العمر، والمحبّة والأحلام. ترى هند في سعيد ملامح صديقها الوحيد الذي وُلد في برج الجدي وأحبّها بصدق ومات ببساطة. تحبّ أن تكون بجانب سعيد لأنّه طيّب ومجامل، ويذكّرها بكلّ من أحبّت.

الكنيسة الوحيدة التي عرفتْها هند أو رأتها من بعيد لم تُبن حتى الآن، تعبر عليها بعد أن تسير من عزبة التلّ إلى تلال فرعون، ترى في طريقها القليل من البيوت، لتدخل إلى غرفة الدرس التي بناها الأستاذ وديع في أعلى التلّ. الأستاذ وديع مدرّس الفرنساوي المتزوّج من أبلة إيلين مدرّسة الكيمياء التي تدقّ صليبًا صغيرًا بين حاجبيها. يأتي عدد أكبر من المدرّسين المغتربين، يسكنون دائمًا حول تلك المنطقة البعيدة الرخيصة، المجاورة للمدارس. يصبح بيت الأستاذ وديع بجانب بيت إميل الناظر، والخواجة مينا الجواهرجي، ومدام تريزا الخيّاطة. وحين يبدأ عام دراسي جديد قد يأتي آخرون مثل الأستاذ سمير جريس مدرّس الرياضيّات. بيوتهم تتجاور خالقة هذا التآلف بين من يسكنونها، تقف غرفة الدرس أعلى التلّة وحيدة بيضاء، من الطين والجصّ، خالية إلّا من عدّة مقاعد، تفوح منها رائحة شموع محترقة أحيانًا. تطوّق غرفة الدرس عدّة أشجار، ولوحة معدنيّة

كُتب عليها «قرار ببناء كنيسة أمّ النور بعزبة مقاوي مركز تلال فرعون». . على مسافة قريبة وموازية سيولد «مسجد النور» المعروف بـ «المسجد الكويتي»، إشارة إلى الشيخ الكويتي الذي أرسل تبرّعًا لبناء المسجد الذي وقف منتصبًا عاليًا، بمنارة عالية وسلالم من الرخام، وسجّاد أخضر وماء مثلّج. لم تشهد البلدة مثل فخامته من قبل. التلّة الصغيرة تتعثّر في احتمال بناءين للربّ في مساحة مختصرة ضيّقة. تُبنى «كنيسة أمّ النور» عدّة مرّات، ويصيبها حريق ليلي كلّ عدّة أشهر، ويصبح الطريق إليها يتعثّر في الممشى المؤدّي إلى المسجد الكويتي، وتندلع على أثر كلّ حريق اشتباكات ينخرط فيها الأستاذ وديع وعدد من جيرانه. لم تعرف هي إذا كانت «كنيسة أمّ النور» قد اكتملت ذات يوم أم لا؟

أصبح الطريق إلى بيت الأستاذ وديع مليئًا بالحراسات الأمنيّة، والمشادّات الجانبيّة، والزجاج الملوّن المتكسّر من شرفات المبنيين كليهما. على التلّ كانت الطرق قد أصبحت أكثر، ولم تعد تمرّ من جوار التلّة وتوابعها. هذا ما بقي في ذاكرتها عن تلال فرعون وما تبقّى منه نسيتْه، لأنّها صارت تنسى كثيرًا، ومعظم الوقت تترك الطعام ليحترق، وجرس الإنذار بالحريق يقلق من حولها في البناية، ولا تعرف كيف صارت تشيخ هكذا بسرعة، وبلا مقدّمات.

يحمل سعيد هند في عربته الليموزين لتخرج معه، يجلس

بجوارها في الكنيسة الكبيرة ذات السقف العالي، وهي تسمع بأدب. أبونا الذي أمامها في بذلة رماديّة، باسمًا وأنيقًا، رحّب بها مثل الجميع الذين شدّوا على يدها بقوّة، وقدّموا أنفسهم بتواضع، وأشعروها كأنّها قد كانت جزءًا قديمًا منهم. كانت وما زالت تبتسم بأدب، وتقف حينما يقفون، وتجلس حين يجلسون، وتهزّ رأسها مصدّقة حينما يفعلون، تردّ الابتسامات بالابتسام. سمعت قصّة المسيح حين ذهب إليه رجل يسأله عن عمره؛ فقال له: «ستموت في الأربعين، بعد أن يبلغ ابنك البكري خمسة عشر عامًا». بكى الرجل الذي لم يكن له ولد، ولم يُرِد أن يموت. وكان يخاف النبوءة؛ فأعرض عن الزواج وعاش وحيدًا، لا يقرب امرأة قطّ. وذات يوم طرق بابه شابٌّ طلب أن يبيت عنده ليلة لأنّه على سفر. وفي الصباح هزّ الشابُّ الرجلَ الناعسَ فوجده ميتًا، وبعد عشرين سنة عرف الشابّ أنّ الرجل الذي استضافه، ووجده في الصباح ميتًا، كان أباه.

كانت هند قد سمعت هذه القصّة بعدّة روايات، ولم تعد تتذكّر أيضًا أين سمعتها. ولم تر فيها سوى حكمة أن تنظر إلى كلّ «رجل» على أنّه فقط مخلوق مثير للشفقة منذ بدء الخليقة، ولا حاجة إلى المسيح أو لأيّ نبيّ ليبرهن على تلك الحقيقة. هزّت رأسها لأنّها متأثّرة بالموعظة، أو ينبغي أن تُظهر ذلك. نزل الرجل بالبذلة الرماديّة وسلّم عليها بحماسة، ورحّب بها ثم جلس إلى جوارها. وصعد رجل دين آخر، كان أيضًا ببذلة رماديّة ومبتسمًا،

وذكر اسمها مرحّبًا وهو يحيّيها من فوق المنصّة. ونظر الحضور إليها وابتسموا مرحّبين أيضًا. كانت قد ضاقت بالترحيب وهزّ الرأس والابتسام، وقرّرت تغيير تعبيرات وجهها، وأن تدّعي التجاهل. قال الرجل الذي رحّب بها «إنّ رجلاً قد قابل رجلاً صالحًا، فسأله النصيحة، قال له الرجل الصالح، وهو يشير إلى قلبه: اجعله يشعر بثلاثة كلّ يوم: بالخجل والإثم، والثاني أن تجعله يشعر بالخوف، والثالث أن تجعل هذا القلب يملك الشجاعة. فالقلب إذا لم يشعر بالإثم لن يتغيّر، وإذا لم يشعر بالخوف لن يجد الحافز ليتغيّر، وإذا لم يملك الشجاعة لن يستطيع أن يتغيّر». كانت تظنّ أنّها قد تخلّصت من الإثم الذي لازم حياتها، وتحرّرت من الخوف، لكنّها اكتشفت ثانية أنّ شبح الإثم يطارد حياتها من كلّ الاتّجاهات، وأنّه لا سبيل للخلاص. قبل أن تقرّر الرحيل انطلقت التراتيم منبعثة ممّن انخرطوا في الغناء والعزف.

في الممرّات إلى طاولة الطعام، جلست ورأت صور إرساليّات مسيحيّة إلى بلاد تعرفها.. أزقّة سوهاج، أحياء دارفور. لم تكن مهتمّة بشيء. في الحقيقة كانت تشعر بأسى؛ لأنّ الرجل الوحيد الذي دعاها إلى الخروج كان يحاول هدايتها. لم تتأثّر بالأطفال الذين يشبهون طفلها، يركضون على علب الحليب وأغذية المعونة. كانت متأثّرة للغاية بأنّها مجرّد نكرة، ومثيرة للشفقة وامرأة مهملة، تجلس على طرف الطاولة. يجلس بجوارها

سعيد الذي ظنّت، على سبيل التخيّل، أنّه يحبّها، وابتهجت لتلك الفكرة، لأنّها تريد أن تتخيّل أنّ هناك من يحبّها. يبتسم سعيد ويضحك وهو يتبادل الكلمات مع أشخاص يعرفهم. تأكل ببطء، بانسحاق، ولا تحرّك بصرها عن قطعة الهامبرجر في الطبق الورقي. تبتسم بانسحاق يذكّرها بـ «إنجيل»، وسندويتش الحلاوة. كانت في الحقيقة قد صارت أشبه بإنجيل أكثر من ذي قبل؛ بدينة وبشعر قصير، أكثر انسحاقًا لأنّها صارت تخاف من كلّ شيء، تبحث عن حوائط متخيّلة لتسير بجانبها لأنّ «بلوتو» في مواجهتها للأعوام المقبلة، ولأنّها إذا مشت وحيدة فلن ترى بيوت الجيران الذين تعرف وجوههم، ولا البيوت التي كبرت فيها، ولا أحدًا سوى فلات بوش الواسع البعيد، المفتوح على مفارق طرق لا تعرفها.

تعود كما جاءت، تركب سيّارة سعيد بتردّد، تراه مبتهجًا كما لم تره من قبل، تسأله بتردّد:

ـ مالك مبسوط كده؟

ـ أنا دائمًا سعيد، اسمي حتى سعيد.

ـ يا بختك!

ـ الإنسان عندما يكون مؤمنًا، لازم يكون «سعيد».

تشعر أنّها قد سمعت هذا الكلام من قبل، سمعته كثيرًا.

سمعته ولفظته عدّة مرّات، لكنّها حاولت أن تعطيه الفرصة ليشعر بأنّه يعلّمها شيئًا جديدًا. تسأله ببلاهة:

ـ مؤمن بإيه؟

ـ بربّنا طبعًا.

كان يوشك على وعظها بأهمِّيّة الإيمان واليقين، ويبدو أنّ الدرس الذي أعدّه في مخيّلته لإصلاح حياتها كان جاهزًا للفتك بها، بعد الحالة الروحيّة التي توهّم أنّه عمّدها فيها. ظلّ صامتًا بانتظار الكلمات النهائيّة التي ستؤكّد بطولته في إنقاذ الناس من الضلال، واستسلامها لهذه الأضحية، وكانت مشغولة بالإثم ذاته، الإثم الذي يجعل للحياة معنى. ولكن يبدو أنّ الوصولَ إلى حالات التعاطف التي يضمّ فيها الغرباء بعضهم بعضًا، مستحيلٌ، لذلك، وفي محاولة يائسة لأن ترى كيف يبدو التشريط الطولي على صدغه فاتنًا، قالت له:

ـ تعرف أنّك أوّل رجل يدعوني إلى الخروج في هذه المدينة؟

قالت ذلك بهمس عاتب، ليرقّ قلبه ويرى في وجودها احتمالات أخرى.

ابتسم ونظر بعيدًا ليتفادى هذه الاحتمالات الممكنة.

تكمل:

ـ تعرف أنّني أريد أن أشعر هذه الليلة بأنّني حرّة، حرّة فقط

من كلّ توقّعاتي عن نفسي. . . حرّة في الخلاص على طريقتي، حرّة في روحي. . أتعرف ما معنى حرّة في روحي؟

تضحك وهي تلقي برأسها بدلال إلى الوراء على الكرسي الأمامي لليموزين، فلا يعلّق. تطلب منه أن يمشي معها قليلاً كي تحكي له أكثر، لكنّها صارت منفعلة وتشعر بالإهانة، لأنّها كانت في حالة نادرة من الرغبة في الارتماء في حضنه إذا طلب منها ذلك، وأن تظلّ إلى جانبه في العربة الليموزين إلى الأبد، دون أن تشعر بالخطيئة. كانت منفعلة لعدّة أسباب أخرى، منها أنّ كوكب «مارس» أيضًا سكن هذا الشهر برجها؛ ليضيف إلى توتّرها هذا الاندفاع القاسي. وحتى بعد أن حكت له حكاية جدّتها وعدّة حكايات أخرى، وهما يلعقان الآيس كريم في الأفنيو السابع، فقد ظلّ سعيد محرجًا مرتبكًا، مبتسمًا تلك الابتسامة التي بدت بلا معنى.

رأت عربته تسير في الشارع الطويل المظلم، الممتدّ بلا نهاية، ثم دخلت بمفردها إلى «كوكو بار» الذي يقع أسفل شقّتها بالضبط، وطلبت بيرة، ولامت نفسها أنّها لم تحكِ له حكاية أبيها بدلاً من جدّتها، إذ ربّما تبدو أكثر تأثيرًا. لامت نفسها لأنّها لم تعطه الفرصة ليصبح بطلاً، وأحسّت بالأسى لأنّ الرجال أيضًا يتوقون إلى أدوار البطولة. وضعت يدها على خدّها لأنّها فوّتت فرصًا كثيرة معه، والآن هي مثقلة بهذه الرغبة في الفضفضة، وأنّ

في ذاكرتها حكايات كثيرة من الصعب أن تحكيها لأحد حولها، فمعظم روّاد كوكو بار مثلها من النساء يجلسن بمفردهنّ، أو مع رفيقاتهنّ من النساء، ولا يجدن من يسمع الحكايات التي عادة ما تدور في مكان ما من ذاكرتهنّ..

جلس أبوها في مخيّلتها على الحصيرة في البلكون الشرقي، المحاطة بأشجار الكافور والعَبَل. كان نوح ساعتها في السفينة وابنه على الجبل الذي سيعصمه من الماء، قال: «لا عاصم اليوم من أمر الله، إلّا مَن رحم». البلكون الشرقي مفتوح على السماء، وهي تدلّك قدميه، ورأسه على حِجر أمّها، والنجوم في السماء، وعدد من إخوتها يحيطون به من كلّ جانب. تتفاوت أعمارهم قليلاً، ولكنّهم جميعًا أصغر من أخيها الأكبر، الذي صار طويلاً وله لحية صغيرة، يبدو فخورًا بها. يخرج في سبيل الله عدّة أيّام كلّ شهر، وأمّه تقول: «بيذاكر»، لأنّها تخشى أن تصدّق أنّ طفلها الذي كان ولدًا جميلاً يهوى جمع الطوابع، وعزف الهرمونيكا وقراءة مجلّات «ميكي» و«سمير»، والمراسلة وسماع الموسيقى، صار مهتمًّا أكثر بالنوافل والفروض. لا تعرف لماذا عَبَرَ سلّمات البيت التي تؤدّي إلى البلكون الشرقي، بهذه الخطوات البطوليّة المتحفّزة؟ ولماذا يصرخ في وجه أبيه: «حرام.. حرام. ما تفعله حرام».

يعتدل الأب بجسده الذي كان مستلقيًا على ساق الأمّ، ينظر

الإخوة الأصغر الذين ما زالوا منهمكين في قصّة نوح، بعضهم إلى بعضهم الآخر، وإلى أخيهم الأكبر. يحرّك الأب أصابعه بتلك الحركة التي تبدو كأنّها تمرين على الصبر والتحكّم في الغضب، يُطرِق الأب صامتًا، ويركض الابن الأكبر الطويل النحيل الذي يرتدي جلّابيّة بيضاء ناصعة، عطرها ثقيل، ويضع سواكًا في جيبه إلى الداخل، وهو يكرّر العبارة التي حفظها عن ظهر قلب: «لعن الله شاربها وحاملها وشاريها». يركض باتّجاه غرفة الخزين. ويبكي وحده متشمّمًا رائحة القمح العطن والأجولة المكوّمة في غرفة الخزين، يبكي كطفل صغير خائف: «أصْلِي خايف عليه من النار يا ماما.. إنتِ عارفة إنّي بحبّه قدّ إيه». يدخل الأب غرفته متعكّزًا على كتفها، كما يحبّ أن يفعل، تقول له: «هل أنت حزين.. بابا؟». لا يردّ. ينام على فراشه، ويفتح الراديو الصغير بجانبه؛ ليتابع نشرات الأخبار «هنا البي بي سي».

تُدلّك قدميه المتعبتين من الوقوف كلّ النهار، كما يحبّها أن تفعل. كفّها صغيرة ضعيفة مُواسية؛ يحاول أن يُزيل ضباب الصمت الذي لم تألفه في والدها. تدخل الأمّ وفي يدها ابنها الأكبر الذي لا يزال يبكي. يبتسم الأب حين يراه، ويضحك فجأة كأنّه اكتشف أنّ هذا الشابّ هو طفله الأوّل. يقول الابن: «أنا خايف عليك يا بابا». يبتسم الأب «سآوي إلى جبل يعصمني من الماء». يردّ الابن مستعدًّا لإثبات حججه الدينيّة: «ما أسكر كثيره، فقليله حرام».

يبتسم الأب قائلاً: «قليل منه يقوّي القلب، ويذهب الحزن. عارف من قال ذلك؟ أحمد ابن حنبل، يعني أنت حنبلي أكثر من ابن حنبل؟».

يبكي الابن الأكبر، ويضحك الأب الذي استعاد قدرته على الدعابة، وهو يؤكّد أنّ البيرة «اختراع فرعوني عظيم».

ينام الأب وهو يشكو ألمًا في كتفه اليسرى.

تجلس ابنته الآن في بار صغير في أحد أروقة بروكلين، تراقب شراب الشعير الفوّار في الكوب، تراقب الفقاعات البيضاء وهي تنطفئ على السطح، تتطلّع النادلة الصغيرة الجميلة إليها، وتودّ أن تُخرجها من صمتها. تسألها عن ابنها. تقول لها: «أين الشابّ اللطيف الذي يرافقك؟». تبتسم لسؤالها وتشير إلى السقف مباشرة، إلى فوق البار، حيث تقع الغرفة التي يعيشان فيها، وحيث يستلقي الولد الصغير على فراشه بانتظار أن تعود.

تنام هند كثيرًا لأنّها متعَبة ووحيدة، ولا تجد ما تفعله. تغطّي وجهها بالأغطية لتخفي عنه أرقها، يلتصق طفلها بها وهو يشاهد في الشاشة وجوهًا مرهقة مثل وجهها في الإعلان:

«الاكتئاب حزن، تعب، إجهاد، ضيق، عدم رغبة في الكلام، كآبة، تفكير في الانتحار.. اسأل طبيبك عن حلّ. الاكتئاب مؤلم. اسأل طبيبك عن سيمبولتا.. سيمبولتا

سيساعدك». يتابع حركة الوجوه التي تظهر وتختفي في إعلان عن عوارض الاكتئاب، ووصف علاج، يهزّ رأسها الذي خبّأته تحت الأغطية: «ماما.. أنتِ ساعات لا تردّين عليّ، وتكونين حزينة و very sad».

تسأله بسأم:

ـ وبعدين؟

ـ أنتِ لازم تروحي لدكتور... أنتِ ممكن تموتي.

ـ ما تخافْش.

ـ لكن لو متِّ مثلاً، أنا ممكن أعمل إيه..؟

ـ ترجع مصر.

ـ لكن أنا مش عايز أرجع مصر.

ـ إحنا لازم نرجع.

ـ ليه لازم؟ لو أنتِ مش مبسوطة هنا ممكن تاخدِي «سيمبولتا»، أو تروحِي لدكتور.

تدفن وجهها في الوسادة وتضحك. لا يحبّها حين تضحك على تعليقاته، يدير وجهه غاضبًا فتخبّئ وجهها تحت الوسادة، وتنام.

# ٦ تانجو

## *Tango*

تسمع خطواته على السلّم، وحده يُحدِث هذه الضجّة. أوّل مرّة رأته في هذه البناية، كان على السلالم ذاتها، بعد أن أسقط صندوق الزجاجات الفارغة، ثم اصطدم جسده المتعجّل بعجلة طفلها التي تركتها أمام الباب. حينما فتحت الباب كان يجمع قطع الزجاج الهشّة، وهو يسبّ صاحب البناية وسكّانها الذين يتركون درّاجاتهم على السلّم الضيّق. كان الزجاج قد تناثر على الأرض؛ فسحبت درّاجة طفلها ودخلت صامتة، وتركته حائرًا في تنظيف ما انسكب من سوائل على الأرض. ظلّت رائحة الكحول على السلالم بعدها لمدّة طويلة، رائحة خميرة ورغوة فوّارة، وزجاج مكسور على بابها بالضبط.

في المرّة الثانية، حين رآها، حاول أن يبدو أكثر لطفًا، وأن يعدّل من آرائه قليلاً، فيقول إنّ تلك هي المرّة الأولى التي يؤجّر فيها مالك البناية شقّة لأمّ وطفلها، وإنّ ذلك جيّد ويضفي على البناية بعض البهجة التي لم تعرفها من قبل. هزّت رأسها وهي تنظر إلى السلالم الضيّقة المظلمة، وشمّت الرائحة النفّاذة التي تأتي من الخشب القديم، نظرت حولها ولم تنظر إليه، ثم أكملت خطواتها باتّجاه شقّتها في صمت.

كان يسكن فوقها بالضبط. يحمل صندوقًا من الزجاجات كلّما هبط أو صعد، يرتدي دائمًا تلك الخوذة الرياضيّة فوق رأسه، ويمتطي درّاجته التي تقف في مدخل البناية. يعيش وحيدًا. تُدرك ذلك من خطواته فوقها كلّ ليلة مترنّحة بطيئة. صارت تعرف خطواته المتعجّلة على السلّم كلّما خرج أو دخل، تعرف متى يخرج إلى عمله، ومتى يعود. تعرف أنّه يتنصّت على البناية بأذنيه المرهفتين. وصارت تعرف أنّه حين يقابلها في السلّم الضيّق، سيقول الكلمات نفسها: «هل سمعتِ تلك الضجّة في البناية أمس؟ هل سمعتِ صوت الباند والموسيقى؟ أنا لا أعرف كيف يؤجّر المالك هذا المبنى لتلك الكائنات الغريبة؟ لا أعرف كيف أنام في هذا البيت.. أطفال، وباند، جيران غريبو الأطوار؟».

تتركه وتدخل ليكمل بقيّة اللعنات. تعرف أيضًا أنّ له زوّارًا أطوارهم غريبة. تعرف تلك المرأة الصغيرة التي تأتي إليه، تركن

درّاجتها بجوار درّاجته، وتصعد حاملة معها صندوق زجاجات البيرة. تعرف أنّه إذا جاءت تلك المرأة الصغيرة؛ فسيتحوّل الباند من الشقّة المجاورة إلى الشقّة التي تعلوها. شقّته. تصبح الموسيقى العالية هي الوسيلة الوحيدة لتختلط مع إيقاع الأجساد اللاهثة، والشهقات المتتالية، وتتداخل العبارات الجنسيّة مع إيقاع الخبط المتتالي فوق رأسها بالضبط، حيث يقع فراشه. ترفع هي بدورها صوت التلفزيون أو المكيّف كي يعطي بعض الضجيج المضادّ، ولا تعرف كيف تنام إلّا بعد انتهاء المعركة الجسديّة المحتدمة فوق رأسها. بعدها، وفي منتصف الليل تمامًا، تهبط السيّدة الصغيرة حاملة في يدها زجاجات البيرة الفارغة، تلقي بها في صندوق القمامة، وتأخذ درّاجتها، وتمضي.

تغيب السيّدة البيضاء الصغيرة أيّامًا وأحيانًا أسابيع. يدخل أثناء ذلك في حالات من السكون التامّ، لا تشعر بحركة قدميه فوقها. فقط تسمع حركة المياه في المرحاض، إذا استعمله، أو صوت أوعية المطبخ. وتشمّ فقط رائحة القهوة من شرفته. تعرف أنّه ينام على فراشه فوقها بالضبط، وتشعر إذا تقلّب أنّه يتململ في فراشه، ويتثاءب ربّما من الضجر.

حين يدخل في البيات التامّ، تحاول الانشغال بالجارة التي تسكن تحتها، وإلى أيّ حدّ تستطيع التعرّف إلى موعد عودتها من العمل، وموعد زيارة صديقها لها، وتتشمّم خلطة «التاكو»

و«الناتشوز» من نافذتها السفليّة. كان هذا البيت يطمئنها بتصميمه البائس؛ لأنّه يجعلها مُحاطة بالبشر، وتشاركهم لحظاتهم الحميمة، دون أن يُدركوا ذلك، ودون أن تعرف أنّهم يفعلون الشيء نفسه. يعرفون نبرة صوتها حين توبّخ طفلها، ويسمعون كركرة المياه في أرجيلتها ليلاً، ويعرفون أنّها تنام وحدها، وتتململ كثيرًا في فراشها، ولا تطفئ التليفزيون لأنّها تخاف من الصمت المطبق.

يعرف الجيران المتلاصقون في البناية اسم طفلها ومدرسته، وكيف تسحبه خلفها كلّ صباح؛ لتعبر به الشارع حتى يدخل. يعرفون موعد غسيل صحونها، ورائحة الشاي بالقرنفل مساء، وهي تخرج من شبّاكها. يعرفون صوت ضحكتها، وأيضًا يعرفون الأيّام التي لا تنام فيها، وتجلس طوال الليل خائفة أن يتوقّف قلبها فجأة، تاركةً هذا الولد الصغير الناعس في الحجرة الضيّقة على فراشه. هل يفكّرون مثلها كيف يفرك عينيه في الصباح، ويهزّ جسدها فيجده متصلّبًا باردًا مفارقًا للحياة. كتبت على كلّ الحوائط أسماء أناس تعرفهم، أو لا تعرفهم جيّدًا: إميليا، سعيد، فاطيما، ثم وضعت جواز سفره على الطاولة. الآن بإمكان أيّ شخص أن يجده، ويرسل به طفلها إلى أبيه، وبإمكانه أن يحمل جواز سفره، ويعود تاركًا جسدها لصاحب البيت والشرطة، والمكتب الثقافي، أو وكالة إيواء اللاجئين؛ كي يلقوا به في أيّة مقبرة.

تسمع الخطوات على سلّم البيت الخشبي القديم، تعرف أنّها ليست خطوات جارها الثقيلة. إنّهما قَدَما صديقته السيّدة الشقراء التي تميّز هند أيضًا وقع خطواتها، لكنّ السيّدة الصغيرة لم تكمل طريقها إلى شقّته بالأعلى؛ توقّفت على بابها. أحسّت بحركة التأهّب التي تصدر من شخص يقف أمام بابها بالضبط، ظلّت بانتظار الطارق، وحين فتحت لها كان أنف السيّدة محمرًّا، وبدت لها عن قرب في الخمسين أو في أواخر عقدها الرابع، وبيدها طفلة صغيرة في عمر طفلها، أو أصغر قليلاً. قالت باقتضاب كأنّها تعرفها منذ زمن طويل: «لا تؤاخذيني. خذي البنت عندك عدّة دقائق فقط.. يجب أن أتكلّم معه.. سأعود حالاً». ثم قفزت بسرعة على السلّم. دخلت البنت الصغيرة التي بدت متفهّمة، وكأنّ تركها عند امرأة لا تعرفها أمر عادي، يحدث لها كلّ يوم. دخلت الصغيرة إلى الغرفة الوحيدة، وجلست بجانب الولد المنشغل بالتلفزيون. لم تقل له شيئًا، ولم يقل لها بدوره شيئًا. كانا منشغلين بالكائنات الكرتونيّة التي تتحرّك، ثم بدأ حوارهما كأنّهما يجلسان على الكنبة منذ وُلِدا:

ـ أنت بتحبّ «سبونش بوب»؟

ـ فَني Funny.

ـ أنا بحبّ «إيرون مان».

ـ أتحبّ «هانا مونتانا»؟

ـ كلّ البنات يحببن «هانا مونتانا» أليس هذا سخيفًا؟ Silly.

بدا الخلاف الأوّل بينهما، ثم تحوّل إلى تبادل تعليقات حادّة، مع هزّ الأقدام في الأرض بتوتّر، وتردّدت في فضاء الغرفة كلمات من قبيل: «تافه وساذج، فريكي، سلي». كان كلاهما يهزّ قدميه في الأرض بعنف، وثمّة معركة متخيّلة في الأفق تبشّر بهذا التفاعل الكيميائي بين اثنين لا يعرف أحدهما عن الآخر شيئًا، اكتشفا للوهلة أنّهما يتجاوران على مقعد واحد، وأنّ عليهما أن يخلقا فضاء ما لهذا التجاور.

كانت مستغرِقة في تأمّلهما من مكانها، عندما سمعتْ الطَّرقات مجدّدًا، وظهرت السيّدة الصغيرة الشقراء من خلف الباب. أنفها محمرّ من البكاء، وتعاستها لا تحتاج إلى فطنة لفهمها. قالت الجملة نفسها بالنبرة المحايدة نفسها: «لا تؤاخذيني. ممكن آخد البنت.. شكرًا». خرجت الطفلة مثلما دخلت، ونزلا معًا السلالم الخشبيّة الضيّقة، واختفيا إلى الأبد. لم ترها بعد ذلك تصعد أو تهبط. لم تعد تشعر بحركتها الرشيقة على فراشه، ولا اهتزاز العرش فوقها من إيقاع نومهما معًا فوق رأسها. صارت حركته أبطأ من المعتاد، وحتى صوت المياه في حمّامه لم تكن تسمعه، ظنّت أنّه هجر البناية أو انتحر. كان الصمت التامّ يعلو سقف حجرتها، يبدو أنّه أخذ وقتًا طويلاً حتى عاد إلى كامل لياقته. ينزل في الصباح الباكر، تراه وهي ممسكة

بيد طفلها في طريقهما إلى المدرسة، تراه وهو يركن درّاجته، ويحمل صندوق الزجاجات، ويصعد في آخر الليل. أحيانًا يتقابلان، ويهزّ رأسه بتحيّة قصيرة. تبادله أيضًا تحيّة مُقتضبة عابرة. أحيانًا يضيف بعض الجمل مثل: «الجوّ رائع اليوم».. «كيف حال طفلك؟ هل يحبّ نيويورك؟».

عبرت نسمات الربيع على فلات بوش، وصار طفلها مشغولاً أكثر بقطع الشطرنج، وملاحقة أيرون مان وسبونش بوب. صارت تقطع آخر النهار بأن تجلس على باب البناية على المقعد الخشبي، أمام كوكو بار، مقعد يواجه مستر فلافل ويكشف الأفنيو العريض. مقعد يجلس عليه بعض المدخّنين إذا أرادوا أن يشعلوا سجائرهم، ويتسنّد عليه الذين يركضون بملابس رياضيّة إذا أحبّوا أن يلتقطوا أنفاسهم، وبعض الذين يصحبون كلابهم الصغيرة في قضاء بعض الوقت. تجلس عليه وحيدة وتراقب الشارع المليء بالمارّة والعابرين، تشرب القهوة وتدخّن سيجارتها، وتنفث بخار الماء القائظ الذي يثقل الجوّ حينما يعبر عليها. يعبر جارها ويحدّثها كأنّه يعرض عليها الخروج معه قائلاً: «هل تحبّين الرقص؟ هل جرّبتِ التانجو أو الصالصا؟». تشاهد وجهه عن قرب للمرّة الأولى، والشمس الغاربة حولهما تضاعف عمره الذي عبر الستّين، رغم طوله الممشوق وبنية جسده القويّة. قالت محاولة الابتسام أمام سؤاله المتودّد: «أحبّ.. لكن عمري ما عرفت كيف أفعل الأشياء التي أحبّها. حتى يوم عرسي لم أعرف كيف أرقص.

جلستُ على الكرسي، وشاهدت رقص زوجي مع كلّ صديقاتي».
ضحك، وعلا صوت ضحكته فاكتشفت وجوهًا أخرى لوجوده الإنساني، عرفت للمرّة الأولى أنّ اسمه «تشارلي». قال وقد استعاد جديّته: «هناك مدارس متخصّصة في تعليم الرقص». مدّ يده بالكارت، وقال إنّه يدرّس الرقص، ويمكنها أن تتعلّم إذا أرادت مجّانًا بالطبع. هزّت رأسها وقالت «ربّما». كانت قد سئمت من مشاهدة المارّة، وظنّت أنّه من المناسب أن تعيد تلوين شعرها والخروج لبعض الوقت. في المرّة الأولى التي ذهبت إلى صالة الرقصة الخشبيّة اللامعة المتّسعة، أحسّت بلذّة أن ترى وجهها في المرايا الكثيرة مبتسمًا وراضيًا، تتأمّل جسدها الذي لم تعرفه، ولم تره في المرايا. ظلّ جسدها علامة استفهام غامضة، منذ أن زارتها نقاط الدم أوّل مرّة. خلافًا لكلّ صديقاتها، جاءت علامات أنوثتها متأخّرة نسبيًّا. ظلّت تسمع البنات في فصول الدرس يتحدّثن أمامها عن وجع العادة، وكمِّيّة الدم. يقلن ذلك وهنّ يَقِسْن أحجام أثدائهنّ، بينما تحاول أن تختفي هي من المشهد، وتظهر عدم اهتمامها، على الرغم من أنّها حفظت الجهاز التناسلي عن ظهر قلب، بعد أن قالت المدرّسة لهنّ في حصّة الأحياء «أنا لن أشرح هذا الفصل. اقرأوه في البيت».
ضحكت البنات بصوت خافت، وكانت صورة العضو الذكري في الكتاب تثير هذه الدهشة والقلق. ظلّ الجهاز التناسلي في آخر الكتاب، بعد الجهاز الهضمي والتنفّسي والعصبي. ظلّ ملحقًا

بالانقسام الحيوي للخليّة، ملتصقًا بالألفاظ، صارت لها مدلولات جنسيّة لم تكن لها من قبل، مثل «الخرطوم»، «الدواية»، «الفيشة»، «الذكَر والأنثى». لكن أكثر الكلمات التي صارت تربكها هي لفظة «التضاريس»، قفزت هذه الكلمة من الجغرافيا إلى الأحياء، لتشير إلى علامات الأنوثة، أصبحت أيضًا كلمات مثل «السهول»، «الوديان» تعطي مدلولات جنسيّة كذلك. واكتشفت أنّها الوحيدة التي لم يزرها «خرّاط البنات» الذي يخرط الوسط والصدر والسوّة، واستدارة الأرداف ويعطي الوجه بعض الرتوش الإضافيّة، بمسحة من حَبّ الشباب.

حينما جاءتها الدورة كانت متأخّرة عن الجميع، وكانت بلون القهوة، مجرّد نقاط داكنة بُنِّيّة اكتشفتها في سروالها، ثم جاءت بعد ذلك بدم حارّ قانٍ؛ اضطرّت أن تضع لها تلك الخِرق من القماش التي تضعها أمّها في الحمّام، قبل اختراع الفوَط. ثم بدأت حَبّة من حَبّ الشباب تأتي وتذهب كلّ شهر على طرف أنفها، تأتي وتنطفئ، ويعود جسدها إلى الهدوء، ووجهها إلى استدارته وسكونه. بدأت بعدها علاقات كثيرة بينها وبين سوائل جسدها. بدأت قصص الحبّ المتخيّلة وكتابة القصائد عن الوحدة والحنين والصدور والنهود. تحبّ وتبكي وتنفجر وتنسى على إيقاع الهرمونات الجسديّة، والفقاعات الممتلئة بالسوائل. لم تحبّ جسدها، ولم تتأمّله قطّ، أدركت فقط أنّ مشاعرها موسميّة جارفة، مرتبطة بحركة هرموناتها، وأوضاعها الفلكيّة التي تنسجم،

مع أنّها برج مائي فضولي، وخائف، جبان ورومانسي، حالم ومتوهّم، خائب برغم كلّ مزاياه العظيمة في التفاني والأمومة والتعاطف.

اختفت دورة الهرمونات من جسد هند مبكّرًا، لأسباب صارت تعرفها، في الثالثة والثلاثين من عمرها، وهي خارجة من غرفتها، وعلى صدرها بقع لبن متيبّسة، وفي يدها قنّينة طفلها الذي ينام في حضنها وحضنه. وبعد أن تركت الفراش الذي كانت له رائحة بودرة التلك، واللعاب والبول والأرق، وأدوية الحرارة والهضم، والترجيع، وفي الغطاء بقع كثيرة أخرى من سوائل طفلها المتعدّدة، وبعد أن مرّت على المطبخ ووضعت اليانسون في وعاء الغلي، وبحثًا عن شيء تفعله حتى يغلي؛ عبثَت في درج مكتبه المفتوح، فوقعت يدها على رزمة من الرسائل المتبادلة التي لم تستطع أن تكمل قراءتها؛ لأنّ اليانسون فار وانسكب، وكلّ ما تتذكّره حتى الآن منها مجرّد كلمات حبّ أرسلها لامرأة ما. كان طفلها قد بدأ يبكي واليانسون برد واللبن في صدرها يحرقها. ولمحته ناعسًا في الجانب الآخر من الفراش، فوقفت فوق رأسه بالضبط ومزّقت الخطابات إلى نتف صغيرة، ونثرتها فوق جسده الذي تململ من المفاجأة وهي تركل زوجها بكلتا يديها: «قوم.. قوم اخرج.. لا أريد أن أراك في هذا البيت».

خرج الزوج ودخل معتذرًا وتائبًا وغاضبًا، ثم أصبحت

الخطيئة سلسلة من الخطايا التي تتكرّر، وتفقد في كلّ مرّة قدرتها على إحداث الصدمة، تفقد الكثير من ثقلها، يتحوّل البكاء إلى صمت، والصمت إلى اشمئزاز، ثم يتحوّل الاشمئزاز إلى حياد بارد يائس. ومع تلك اللحظات بدأ الدم الشهري يزورها في مرّات أقلّ، وبشكل غير منتظم. أدركت هند ساعتها أنّها فقدت الكثير من المحبّة واللهفة والتأقلم والولع بالحياة، وأنّ ذلك السائل اللزج، هذا الضيف الثقيل، كان يرتبط بخلايا جسدها مثل عدّة سوائل أخرى صارت تخرج من جسدها، مثل هذا اللبن الذي ينزّ من حلمتيها في أوقات غامضة وغير منطقيّة.

ـ غرفة الرقص مصقولة بالمرايا. تستطيع أن ترى بوضوح جسدها، وتتأمّل هذا الجرح القديم أسفل عينها الذي كان يثير خجلها طول الوقت. في طفولتها كانت تخبّئه. أمام صورتها في المرآة واضعة يدها على خدّها لتبدو صورتها أجمل بدونه، تجمّله بأقنعة العسل والزبادي، وكريمات صنفرة الوجه؛ فيطلّ عليها بعد كلّ تجربة بصورة أكثر وضوحًا. تعاركه بالدأب على قراءة صفحات التجميل، ومتابعة كريمات الأساس الجيّدة القادرة على إخفائه، فيكتسب في السنوات اللاحقة بعدًا أكثر تأثيرًا؛ يصبح مستديرًا كندبة غائرة أعلى الوجنتين، تحت العين بالضبط حيث تشير خبيرات التجميل بالرقّة في التعامل مع هذه المنطقة. يفاجئها الجرح كلّ عام أنّه أصبح أعمق ممّا كان، وأنّه صار يتّخذ مع تجاعيد الوجه أقواسًا أكثر تحدّبًا، أصبح يتشرّب دموعها بتمهّل،

ويلتهم ابتسامتها، صانعًا من التقائه مع تجاعيد أسفل العين أبعادًا أخرى. تحاول إخفاءه بتلطّف وهي تهزّ رأسها بتهكّم، معتقدة أنّه «خاتم الحسن» الذي يجعل لوجهها حضورًا لا يُنسى.

بدأت تصديق ذلك، تجمّله بحَسنَة من قلم الكحل على طريقة «ميمي شكيب» في أفلام الإغراء، حَسنَة مستديرة تتداخل كبقعة تزيد الجرح تعاسة. تمسح مزيدًا من كريمات الأساس وتفكّر في مشرط جرّاح، قد يضمّ إلى أعماله تصغير حجم الأنف قليلاً وملء الشفة العليا بالكولاجين، ونزع الحواجب فتصبح أكثر استدارة وارتفاعًا، لتصبح أكثر اكتمالاً. وقد يعني ذلك فيما بعد تغيير لون الشعر، أو استبدال ألوان العدسات. أحلامها عن جسدها لم تتحقّق قطّ. امتلأ بطنها به، فانشغلت بزحفه ومواعيد رضعاته، ومدى تشابه ملامح وجهه ووجهها. صارت تقضي الوقت في تأمّل وجهه الصغير، الشفة نفسها المقضومة من أعلى، والأنف البارز قليلاً، والحواجب الكثيفة المتعانقة. يضع يده على ندبتها، ويقول «ما هذا يا ماما؟».. تضمّه لتكتشف أنّ فقرات ظهره وأصابع يديه تشبهها. يتحسّس طفلها جرحها بكفّه ويقبّله بشفة علويّة رهيفة، ثم يركض ليتركها ويكبر، صارت علامات أخرى في جسدها تسترعي انتباهها، الترهّلات حول البطن، العضلات التي ارتخت بعد الحمل والولادة والرضاعة.

تتفحّص جسدها الآن كأنّها لم تره من قبل، تتأمّل ندباته

وعيوبه التي صارت أوضح في ذلك الثوب القصير، خياطة في الركبة إثر سقوط من أرجوحة بيت أعمامها، كسر في الذراع اليمنى بعد تسلّقها الباب في إحدى محاولاتها للهرب، حرق في ظهر كفّها بعد أوّل تجربة لقلي البطاطس، تهدّل في الجفن إثر نزع الشعر مرّة بعد مرّة، علامات عرضيّة على البطن كانت أنسجة امتدّت لتحتضنه وتضمّه جنينًا. جرح قديم صار ندبة أسفل عينيها، رافقت وجهها في كلّ المرايا، ملامح تجرّدها عوامل التعرية من كلّ حصونها، وكَرْمشتها الشهور والسنون، تاركةً لهند هذا الإحساس العميق بأنّ كلّ شيء صار خلفها.

أمسك تشارلي بيدها في محاولة لتعليمها الخطوة الأولى، «واحد اتنين تلاثة أربعة». اكتشفت أنّه طويل وأنّه لا يبدو كهلاً تمامًا، وأنّ جسده مشدود بصلابة وأناقة. دارت حول نفسها عدّة مرّات وهي تخطئ في الإيقاع، وحارت أين تنظر: إلى قدميها أم إلى المرايا؟ أم إلى وجهه؟ تحرَّك بين فريقها في الرقص، جذب كلّ واحدة مرّة من يدها، كأنّه يتنقّل بين حليلاته. «واحد اتنين تلاثة أربعة». انتظم الجميع في حركة الجسد، وظلّت وحدها تخطئ الإيقاع وتُعيد تقديم وتأخير قدميها، وكلّما تعثّرت زادت أخطاؤها، وبدت لها الرقصة سلسلة من الخطايا المتكرّرة التي ترتكبها بالحماقة نفسها. الرقصة مثل حياتها تمامًا، لم تستطع في الحقيقة أن تقبض على توازن الحركة، وظلّت تتعثّر في لعبة القرب والبعد.. لم تحبّ تلك اللعبة في الحياة ولا في الرقص. لم

تستطع أن تترك رجلاً يأخذها من يدها، ويحيطها بذراعه، ولم تصدّق أنّ كلّ ما عليها هو أن تستجيب ببطء ورشاقة وتردّد، خطوة إلى الوراء خطوة إلى الأمام، تدور بِحيرة حول نفسها وتفقد توازنها، دارت حول نفسها عدّة مرّات وفشلت، صارت مثيرة للضحك وهي تحاول مراقبة حركة الأخريات في المرقص حولها. كانت تشعر بالحرج أيضًا من رائحة العرق التي تنبعث من تحت إبطيها، وتعتقد أنّ اكتناز جسدها في بعض المناطق كالخصر والأرداف يجعلها أثقل، بالإضافة إلى أنّ ساقيها ليستا مرنتين بما يكفي لحالات الانزلاق والهبوط الفجائي، أثناء دورة الرقص. صارت متعَبة جدًّا.

تسير بعد الدرس بجانب تشارلي، وهو يدفع درّاجته ويمشي في طريق العودة، تشعر أنّها تعرفه من قبل، ربّما يشبه كلّ الرجال الذين لم تحبّهم. فكّرت ساعتها أنّ كلّ الرجال الذين يداومون على دروس الرقص يشبهون الضفادع، لكنّهم حين يرقصون يتحوّلون ببهجة إلى بحّارة وفرسان، ومحبّين مخلصين في سفن قديمة. فقط عندما يرقصون، يتحوّلون إلى كائنات مجرّدة أكثر خفّة وأناقة. الرجال حين يقرّرون الخيانة أيضًا يصبحون أكثر رقّة وأناقة. تذكّرت أوّل مرّة رأت زوجها يخونها..، تكره هذه الكلمة. تذكّرها بـ «زهرة العُلا» في الأفلام القديمة، تبكي دائمًا لأنّ زوجها يخونها. تكره دور الزوجة لأنّ البطلات الحقيقيّات لَسْن الزوجات على الأغلب، العشيقات فقط أكثر إغواء، ولهنّ

صدور مفتوحة وديكولتيه واسع، وعين واسعة، قادرة على النظر دون أن يرفّ لها جفن. تكره زهرة العلا لأنّها مثل كلّ الزوجات المخدوعات. يعشن مثلها في الظلّ ويتحدّثن كثيرًا عن الاحترام. لكنّ هند تفهم أيضًا أنّها لم تكن مؤهّلة لأدوار البطولة، لم تكن لها إمكانات تخلق منها بطلة في الحياة، لذلك ظلّ فيلمها المفضّل فيلمًا قديمًا، اسمه «بئر الحرمان». فالبطلة تستيقظ في الصباح بريئة وطاهرة، بعد أن تكون وضعت مشتهياتها تحت الوسادة، وفعلت كلّ الآثام الممكنة في الأحلام.

قالت لتشارلي إنّها تتذكّر المرّة الأولى التي رأت زوجها يغازل امرأة أخرى، كان ذلك في بيتها، وكانت تلك المرأة صديقتها. كلّ من عرفهنّ الزوج كنّ صديقاتها، أو خطّطن ليصبحن صديقاتها بعد ذلك. لم تفهم، حتى الآن ما الحكمة في ذلك. تتذكّر أنّها كانت ترتدي ثوبًا ورديًّا، تتنقّل سعيدة بثوبها الزاهي ممتلئة بهذا اليقين الذي يعيش به البُلهاء. كانت تتحرّك في فضاء البيت، والضيوف مشغولون في مناقشة قضيّة لا تتذكّرها، والضيوف وجوه لا تعرفها، ولم تألفها من قبل. وكانت عينا زوجها مشغولتين أيضًا بتبادل مناقشة من نوع آخر، مع صديقتها التي فرغت من رقصة انفراديّة على موسيقى «أنت عمري». كانت تحبّ هذه الموسيقى، وكثيرًا ما سألتها عن أخبار أيّام زواجها الأولى، وعن أخبار الحياة.. وهي تدير هذه الموسيقى، تجلس الصديقة في مواجهة الزوج ويتبادلان في صمت حديثًا له أكثر من

معنى. لم يكن من الصعب على هند أن تدرك أنّ زوجها يعرف تلك المرأة، وأنّه ذاقها وخبرها، كما يختبر رجل جسدًا نام معه. رغم ما يبديه في لكنته من احتقار وتعالٍ، وشبق ذكَر يعرف أنّ المرأة التي أمامه قد نامت معه. كانت هند بارعةً في التفسير، كما هي بارعة في حشو الكرنب والحمام وطواجن الفتّة. كانت مثل زهرة العلا في الأفلام القديمة، تشاهد الشبق المتبادل المدفوع بالتحدّي، لإثبات أنّ ما كان بين الزوج والصديقة حقيقة جديرة بالاعتبار والشكّ والإنكار والتجاهل. لم يكن صعبًا أن يفهم الجالسون حولهم ذلك أيضًا، لكنّ التواطؤ لغة إنسانيّة تعني أنّ كلّ ما يُفهم لا يُقال، وأنّ كلّ ما يُقال قد لا يعني شيئًا في الحقيقة.

تابعت هند المشهد من بعيد؛ كانت صديقتها واقفة بجانب الطاولة، حين تبعها الزوج بادّعاء الجوع، ودفعته الرغبة في تناول بعض المشهّيات إلى الطاولة، كان الجوع حقيقيًّا، كلاهما كان جائعًا. هل أخطأ الجوع هدفه حين امتدّت يد الزوج إلى جسد الصديقة، وعبث بإصبعه بسرعة في صدرها المنتصب على سبيل الدعابة الجنسيّة التي اهتزّ لها جسد الصديقة، وانطلقت ضحكتها المكتومة؟ وبينما كانت هند بفستانها الزاهي خارجة من المطبخ لتوّها، حاملة بعض المشهّيات، كان المشهد السابق في زاوية رؤيتها تمامًا، لكنّها تظاهرت بأنّها لم تره. وعادت إلى الوراء مثل زهرة العلا، وقالت مثلما علّمتها أمّها: «سُنّة الحياة»، صحيح أنّ ذلك حدث مبكرًا في حياتها الزوجيّة، «لكن وماله»؟ الرجال كلّهم

على هذه الحال. صحيح أنّ اللحظة التي رأت فيها زوجها للمرّة الأولى فجًّا ووقحًا، والمرّة كانت هي المرّة الأولى أيضًا التي ترى فيها نفسها بلهاء، وغبيّة إلى هذا الحدّ. لكن، بعد ذلك، أصبحت تلك اللحظات هي الأكثر والأعمّ في حياتها. أصبحت الرؤية المتتالية واضحة ومحدّدة، وكثرت المواجهات العاصفة التي ينكر فيها، لأنّ الإنكار يفضي إلى التواطؤ المحتمل، ثم يتّهمها بالهوس. تدور هند حول نفسها بحثًا عن ملابسه الداخليّة وجواربه المفقودة في البيت، وتقضي أيّامها تبحث عن أدلّة؛ كلّما وجدتها صار الادّعاء بعدم وجودها أصعب، وصار من الضروري أن تهرب مثلما قرّرت بأن تقضي النهار خارج المساحة الفيزيقيّة المفترضة لوجودهما معًا.

في البداية صبّت حنقها على المرتبة التي ينامان عليها، فهي السبب الوحيد في قلّة راحتها، وقلقها، وقلّة نعاسها، وتوتّرها، ممّا أفضى بها إلى عدم اشتياقها إلى جسده على الإطلاق، أو اندفاعها المحموم باتّجاهه أحيانًا أخرى.. جعلت المرتبة سببًا لنوبات الحزن والاكتئاب التي تصيبها. وكانت تعرف أنّ المرتبة القديمة لم تجئ معها، وأنّها كانت موجودة قبلها، وأنّ البقع الداكنة والروائح العتيقة المختلطة ليست روائحها. وعلى الرّغم من أنّها اعتبرت أنّ ذلك سُنّة الحياة، وأنّ الرجل لا يعيبه إلّا المنطقة المحيطة بجيبه، كما علّمتها أمّها، فقد ظلّت مؤرّقة بهواجسها حتى خاطت بنفسها مرتبة من القطن الأبيض، وصارت تتقلّب عليها

ببطن منتفخ ممتلئ، ولكنّ الأرق نام على وسادتها إلى الأبد..

لم يعلّق تشارلي الذي شكّت أنّه لا يستطيع أن يفهم لكنتها، وغير مهتمّ في الحقيقة بهذه التفاصيل. بعد أن انتهت هند من تلك القصّة، بدأت سرد بعض أحلامها وكوابيسها له:

في الحلم ترى أصحابها، وأحيانًا الرجال الذين أحبّتهم في صمت يضمّون أياديهم ويفردونها بفرح، يتحلّقون حولها، كلّ واحد يحاول لمسها. «الدبّة العميا» ليست جميلة وربّما لا تستهوي الأيادي لمسها، هي فقط معصوبة العينين وحمقاء، وتلهث وراء خيالاتها التي تعكسها الظلمة المفرطة. «الدبّة العميا» تدور بحثًا عن الأيادي التي تدفعها من ظهرها، وتتابع الأصوات الصاخبة حولها، دون أن تستطيع الإمساك بأحد. تحمل عصا غليظة وتطوّحها في الفضاء حولها لتستكشف المسافات الخالية. الأيادي المتطفّلة لا تعجز عن مغافلتها ودفعها؛ لتسقط مرّة بعد مرّة. وفي نهاية اللعبة تستيقظ من الحلم منهارة، معلنة استسلامها، والأطفال يتحلّقون حولها معلنين هزيمتها «الدبّة العميا وقعت في البير».. البئر التي سقطت فيها هذه المرّة كانت عميقة. سقطت فيها ببهجة، ظلّت تسقط فيها مرّة بعد مرّة. «الدبّة العميا» تتّصف بقدر من الحمق يؤهّلها لأن تقع في الخطأ نفسه أكثر من مرّة، تحبّ الرجل ذاته أو تبحث عن شبيهه. تسكب مشاعرها دفعة واحدة بلا حيطة ولا حذر. تصدّق أنّ الأشياء تفضي بك إلى ولادة أو موت أو

تحوّلات كونيّة لا تنتهي، وأنّ عليها فقط أن تصبح أكثر مرونة؛ كي لا تنكسر مع صلابتها المدّعاة. من الصعب أن تقول بعض الكلمات لتشارلي، لأنّها لا تعرف كيف تنقلها إلى لغته، لكنّه ربّما فهم هذا المشهد..

في الحمّام القريب من غرفتها، كانت تسمع ارتطام نقاط الماء بجسد زوجها، تشعر بحركته العارية بين غرفته والحمّام، وهو منهمك في حلاقة ذقنه، أو انتقاء ملابسه. يغنّي في غرفته، يغنّي ببهجة رجل يعرف امرأة جديدة تسمع انغلاق الباب خلف خروجه. تفتح باب غرفتها، وتقرّر أن تغرق جسدها في حوض الماء الدافئ. تستريح في عزلتها، لم تهتمّ أن تخبره بأنّها ستسافر، وربّما لن تعود.. وأنّها لم تعد تحبّه، وأنّ وجوده في الحياة صار يجرحها، وأنّ عليه أن يخلع ملابسه ـ التي لها رائحة امرأة أخرى ـ خارج بيتها. إنّها تتشمّمها لتتحقّق من ذلك، لكنّها غير معنيّة بذلك، فقط تريد أن تتحقّق من هواجسها، من أنّها لم تخطئ فهمه قطّ، وأنّه كذلك وهي تعرفه. تعرف أين يخبّئ رسائله، ومتى يحتلم وهي ناعسة إلى جواره، ومتى تتلوّث ملابسه الداخليّة بسوائل لزجة لها رائحة مقزّزة، ولماذا يتركها لتراها، ولماذا يحمل هاتفه معه دائمًا تحت وسادته، في جيبه الداخلي، ولماذا تركه خلفه على حافّة المرآة. تقلّب في الهاتف المغلق وهي تنظر امتلاء حوض استحمامها بالماء، تتوقّف طويلاً، سارحةً، قبل أن تقرّر أن تفتحه، وتقرأ رسائله، لأنّها تخاف من تلك اللحظة التي

عاشتها كثيرًا، أن تتحوّل الهواجس إلى حقائق لا يمكن الادّعاء بعدم وجودها. كانت مستغرقة في أفكارها والماء يغمر جسدها بدفء التطهّر، والهاتف ينتظرها أن تفضّ عوالمه. تعرف أنّ حروف اسمها ما زالت هي شفرته. تُدخِل حرف اسمها بوجع، وتدخل إلى قائمة الرسائل الطويلة، وتعرف أنّها لن تجد أكثر ممّا توقّعت؛ كلمات جنسيّة متبادلة، انتظار مواعيد مؤجّلة، قبلات باردة أو حارّة، تأوّهات تأخذ أشكالاً لم تعرفها.. لم تهتمّ أن تعرف أكثر، دفنت الهاتف الجوّال في الماء الساخن مع جسدها، تركت ذاكرته تمّحي ببطء..

وضع تشارلي يده على كتفها متفهّمًا أنّها بحاجة إلى أن تقول كلّ شيء لشخص لا يفهمها، ثم ربّت بيده على كتفها وابتسم، لأنّ الرجال يعتقدون أنّ تلك هي البداية الصحيحة لعلاقة ما، ومن الضروري أن يبدو متعاطفًا ومتفهّمًا ومعنيًّا بما تقول. قبّلها تشارلي على خدّها بسرعة ليُبدي تعاطفه، ثم ركض باتّجاه غرفته التي تقع فوق سقفها.

النساء في المرقص يرتدين ثياب زهرة العلا الورديّة الفضفاضة، ويمسكنَ مناديل معطّرة وأحذية عالية، كأنّ كلّ امرأة تدور حول خيباتها بطريقة ما. الموسيقى دائمًا حزينة، ودائمًا ما تتحدّث عن نساء يبكين ورجال يبحرون، وليال طويلة تستدعي مناديل معطّرة لمسح الإجهاد والعرق والحنين. أيادي الرجال بعد

الرقصة الأولى تصبح لزجة ولا تثير ما تتركه اللمسة الأولى من تعاطف ورقّة. وفي نهاية الدرس يعطي كلّ واحد ظهره للآخر ويمشون في اتّجاهات متقاطعة. على الرّغم من جهود التعارف تبقى هذه النتيجة مؤكّدة. يبقى تشارلي يسير بجانبها لأنّهما يسكنان في المبنى نفسه، ولا سبيل لقطع الطريق إلّا معها.

قال لها في إحدى المرّات، وهو يمشي بجانبها، إنّه بدأ في تعلّم الرقص حين انفصل عن زوجته الأولى. كان يريد أن يعرف المقدار الذي يجب أن يظلّ بينه وبين الأنثى، أن يتعلّم التوازن بين الرغبة والكفّ، بين الحميميّة والاعتياد. هزّت هند رأسها لأنّ تلك هي المرّة الأولى في حياتها التي ترقص مع رجل. كانت صفحة الماء في النهر الشرقي مبهجة. تشارلي طويل، ستّيني، عندما يرقص يبدو أصغر، وعندما يتحدّث لا تصدّق أنّه الرجل نفسه الذي يجرّ درّاجته كلّ يوم بضجر، ويلعن البيت وساكنيه، هو نفسه الذي يقول لها إنّ الرقص كان صرخة قديمة حزينة، أوّل من أطلقها العبيد في سفنهم، ثم الإسبان الذين عبروا البحر. يقول ذلك كلّ يوم كجزء من وظيفته. ثم يقول ذلك لها برقّة محسوبة وهي تسير بجانبه طويلاً على مسافة، ومقدار لا يتخطّاه؛ لأنّه حين وضع يده على كتفها في طريق العودة في المرّة الثانية، لم تعرف لماذا قالت له بحزم: «لا تؤاخذني. لا أحبّ أن أسير هكذا». ربّما لم يفهم معنى ما تقول ولا سببه، وربّما فسّر رفضها بعوامل ثقافيّة تجعل فهمهما لبعضهما البعض مستحيلاً، لكنّها لم تتوقّف

عن السير بجانبه وإنّما بمسافة تجعلها بعيدة. تلك المسافة التي يتحدّثون عنها في صفوف الرقص، مسافة، مسافة افتراضيّة في الرقص وفي الحياة، نضعها دائمًا حين نودّ أن نجد فقط من يسمعنا، ويتفهّم بأسفٍ أوضاعَنا المعقّدة. وهم بالطبع لا يصلحون لأدوار أطول من ذلك.

صار تشارلي يؤكّد أنّ التانجو معناه الحنين إلى الآخر. أعجبتها هذه العبارة، أحبّتها في الحقيقة لأنّ أوّل رجل أحبّته وسألته السؤال الواضح الذي تلحّ عليه النساء ليتبيّن مدى فرادتهنّ «لماذا أحببتني؟»، قال لها الرجل الذي أحبّت: «هل تعرفين أغنية فيروز: أنا عندي حنين ما بعرف لمين»؟ قال ذلك ثم صمت. تركها تترجم الجملة بأنّه كان يحسّ بذلك تمامًا معها، وأنّ علاقتهما مجرّد حنين غامض مثل حنين البحّارة الذين يحكي عنهم تشارلي. وعلى الرّغم من أنّها اعتبرت ذلك ـ وقتها ـ إهانة يصعب ابتلاعها، فإنّها، مع النضج الذي صادفها مبكرًا، صارت تعرف أنّ هذا الحنين ـ في الأغلب ـ من سنن الحياة. وصارت تتأمّل كلّ النساء حولها في المرقص من هذا المنطلق؛ الحنين. تخطّين الثلاثين بجدارة، وبدأت الرتوش الصغيرة تملأ حوافّ الوجه، مطلّقات ـ على الأغلب أيضًا ـ حديثًا، يجلسن مثلها في شرفة مطلّة على أفنيو ما، يراقبن الحياة بهدوء، ويتمنّين أن يصبحن جزءًا منها. يصبح التانجو في هذه الحالة درسًا استشفائيًّا، يتعلّمن فيه الأسس الرئيسيّة للحياة، والتي لن يكون هناك وقت كاف لتطبيقها

لأنْ ـ على الأغلب دائمًا ـ تكون بدايات الحياة ليست سهلة، لكن من المهمّ أن يفهم المرء أسباب فشله العظيم في علاقته بالآخر، والتي تدور دائمًا حول ثلاثة محاور فلسفيّة، تحتاج إلى رقصة عميقة، رقصة حريصة على ثلاث قواعد: المسافة، والجاذبيّة، والتوازن.

الرقص يشبه ألعاب المحبّة.. الحياة تبتعد حين يقترب منك الآخر، وتُقبل حين يُدبِر بخطوات محسوبة، القرب والبعد بخطوات متوقّعة تجعل المسافة المفترضة للوحدة الجسديّة مسافةً للتواصل. يتقدّم الرجل إلى تلك المساحة بحذر، ويمدّ يده يمسك يدها برقّة وثقة ورغبة.. «اتركي نفسك له. اتركيه يقود خطواتك. اتركي له حرِّيّة النأي والقرب، في مسافة واحدة». وعلى الرّغم من أنّ التانجو فلسفة الحياة المشتركة كما علّمهم، فقد اكتشفت أنّ معظم روّاد الدرس من المطلّقين حديثًا، رجالاً ونساء، وأنّهم كلّهم مشغولون بتلك المسافة، بفلسفة الحياة وألعابها. مشت بجانبه في المرّة الثانية، أحبّت أن تتحدّث لأنّها صارت تعرفه، تعرف ملامح وجهه عن قرب، وربّما صار يشبه شيئًا آخر غير الضفادع، يشبه كلبًا سلوقيًّا متناسق الأعضاء، يركض بقوّة في سباق ما. يشبه كائنًا خرافيًّا يخرج من فيلم كارتوني يشبهها أحيانًا، لأنّها وحيدة وبائسة مثله، ويدمّرها ضجيج البناية التي يتطارح فيها غيرها الغرام، وتبقى وحدها في الليل تسمعهم. كان يمدّ إليها يده بكأس النبيذ الأبيض، وجلسا

على المقعد المواجه لكوكو بار. كان العرق ينزّ من جبينه، ومن تحت إبطيها. قالت له إنّها من برج السرطان، هل تعرف أنّ برج السرطان لا يعرف التوازن؟ وأنّه مثل «الدبّة العميا» يسقط في المحبّة بلا سبب، السرطان أيضًا يحبّ أن يغمض عينيه ويركض وراء من يحبّ، وأنّها في طفولتها كانت بارعة في الاستغماية. تركض.. تركض.. تركض ثم تكتشف أنّها وحدها ملتحمة بجدار ما، وأنّ كلّ الصبيان لم يلاحظوا ركضها، وأنّ اللعبة تنتهي بوجودها أو غيابها. كان يؤلمها ذلك. ظلّ يؤلمها ذلك. كانت تحبّ أيضًا «العسكر والحراميّة»، لأنّها تركض كثيرًا، ولا يلحق بها أحد، وأنّ مشكلتها الآن هي الكتابة والنسيان. وأنت لا تستطيع أن تكتب دون أن تتذكّر أشياء كنت نسيتها. يشرب أكثر لأنّه يودّ أن يفهم ما تقول هذه المرأة التي تسكن تحت رأسه. يهزّ تشارلي رأسه الذي جفّف العرق من على جبهته أكثر من مرّة، واختلطت روائح الكحول بالعرق النازّ من جسده، وصار يلهث كأنّه فارس خائب. ما زالت تحكي له بانفعال عن ألعاب طفولتها الأخرى، مثل لعبتها المفضّلة «افتحوا لي الباب ده».

يصبح كلّ الأطفال حولها في اللعبة، وهي تحبّ أن تكون في الوسط تمامًا، حيث لا يمكن تجاهل وجودها. تتعانق أيادي الصغار، تشدّ بعضها بعضًا بأصابع متعانقة. الدائرة التي تنقبض وتنفرج في رقصة وامضة، تتوسّطها ضحيّة، عادة ما تكون هي هذه

الضحيّة، لأنّ الضحايا يثيرون الشفقة، ولأنّها أيضًا تدافع عن نفسها، وتعلن الحرب على السواعد المتشابكة الملتفّة حولها، في محاولة منها لكسر هذا الحصار، تندفع كفريسة في الشّباك التي تضحك من غليان دمها واحمرار وجهها، وتحوّلها إلى بهيمة تثيرها حركة يد مروّض الخيول، مصارع الثيران؛ بعد أن صارت كلمة «افتحوا لي الباب ده» كلمة نابية، لأنّها متبوعة بردّ غنائي مرادف يقول: «الجاموسة والدة». أي بهيمة هائجة، لأنّها تخاف أن يختطفوا منها صغيرها. فلا تفتحوا لها الباب كي لا تهرب. السواعد الملتفّة في حركة لولبيّة تضيق حول جسدها فلا تعرف كيف تهرب. بعد أن كبروا قليلاً صاروا يغيّرون كلمات الكورس في اللعبة ذاتها لتصبح «فتَّحي يا وردة، غمّضي يا وردة»، تدور مثل النحلة التي سقطت على ميسم الزهرة، تبحث عن طريق للخروج من وسط هذه الدائرة التي تمثّل دور البتلات الرقيقة لزهرة تقبض على فريستها. صارت أيضًا هذه اللازمة نابية، لأنّها قد توحي بتفتّح آخر؛ فانصرفت البنات من حولها وبقيت هي وحدها تحبّ هذه اللعبة.

لم يكن تشارلي مستعدًّا لسماعها أكثر من ذلك، بدأت علامات الحكمة تبدو على ملامحه، فيقول لها: «أنا أفهمكِ تمامًا، وأقدّر مشاعرك». يقول ذلك لينهي استطرادها في تذكّر أشياء لم يعد لها معنى. لا يعرف تشارلي أنّ الوحدة تخلق هذا الحنين، تخلق أيضًا رغبة في التواصل مع أيّ شخص، حتى لو

كان هذا الشخص له وجه ضفدع، ومن جسده تفوح رائحة العَرق والرغبة والحكمة.

عندما صعدا السلّم الضيّق، صار يجذبها من يدها لتصعد. في الغرفة التي تعرف أنّها تقع فوق رأس طفلها بالضبط، وأنّه ربّما ينكفئ الآن على خارطة قارّة أفريقيا، قالت لتشارلي الذي صارت عيناه حمراوين من التعب، ومن ألعابها الكثيرة، إنّها في الحقيقة لا تشعر أنّها تودّ ذلك، لأنّها لم تحبّه. قالت ذلك بأقصر الطرق الممكنة: «لا أشعر أنّي أحبّك». تشارلي الذي أشعل سيجارة، وفتح زجاجة من البيرة، وفتح صدره لترى جسده المشدود بوضوح، فشل بضمّاته المتتالية ويديه اللتين تسرحان على ثوبها ذي الديكولتيه المفتوح، ورعشتها الخائفة، مثل سرطان بحري أحمر قانٍ، خرج من البحر لتوّه. فشل برغم كلّ ملكاته في تعليمها حقيقة أنّ الحبّ والكراهية لا معنى لهما في الرقص، أو في الحياة؛ فقط عليها أن تريح عضلات ذهنها، وأن تترك لجسدها فرصته في التعبير.

لم يعد تشارلي يشبه البحّارة أو المحبّين والفرسان، عاد إلى شكله الإنساني الذي تألفه، خارج النبيذ وحلبة الرقص. عاد كما كانت تشعر به؛ ضفدعًا طينيًّا لرجل لا تحبّه، يريدها أن تكون مثل تلك المرأة التي تركت طفلتها عندها بلا مناسبة، وصعدت بسرعة ورشاقة إلى شقّته، لتخلع ملابسها برشاقة وخفّة. ولم تكن هي

مستعدّة لذلك، فانفلتت من بين يديه اللتين أحاطتا بها، وركضت بسرعة، وسمعته يخبط الباب وراءها وهو يلعنها، ويصف مقعدتها الممتلئة بكلمات موجزة وبسيطة ومعبّرة «بيج فات آس». في غرفتها بكت وحدها، وأحسّت أنّ جسدها صار متعَبًا جدًّا.

صارت تفكّر في امتلاء مؤخّرتها أكثر من التفكير في خطواتها وهي ترقص، ويؤدّي ذلك إلى مزيد من الأخطاء التي تجعلها تبدو في المرقص حمقاء، وغير قابلة للتعلّم. فقط تدور مقلّدة حركة الأخريات من حولها.. «واحد اتنين تلاتة أربعة». صارت الوحيدة التي لم تتقن الخطوة الأولى بعد. يمسك يدها بعناد كأنّه يروّض بغلة حرونًا «واحد للأمام، اتنين مع بعض، تلاتة للخلف»..، تركّز في حذائها المدبّب، وتنقل ساقيها بحذر، فتخطئ برغم كلّ التركيز. يصرخ فيها «لا تنظري إلى حذائك.. هنا»، يشير إلى عينيه «انظري هنا». تعرف الرجال حين يسأمون النساء، يصبحون مثل تشارلي وهو يضع يده حول خصرها، ويلفّ بها حول نفسها في دائرة من الحيرة والارتباك والضيق. لفّ بها عدّة مرّات، فرأت كلّ النساء حولها أنيقات حالمات. كان ذلك قبل أن يتوقّف بغتة، وأمام السيّدات اللاتي يشبهنها، قال: «أنا لن آكلك. ولا أحد ينوي في هذا العالم أكلك.. أستطيع أن أعطيك ضمانة بذلك. هذه مجرّد رقصة يا عزيزتي». انفلتت من بين يديه، وظلّت وحدها تراقب خطواتها العوجاء في المرآة المواجهة لجسدها، قبل أن يعالجها بعبارته الثانية البليغة «عزيزتي.. فقط ينبغي أن تتركي

حساباتك خارج هذه الغرفة، وتتركي لجسدك فقط فرصة التعبير عن نفسه». كان يقول ذلك باتّزان وحكمة كمدرّب رقص. لكنّ وجهها أصبح ملوّنًا بالحرج فجأة، وصوت ضربات قلبها المضطرب جعل الموقف مأساويًّا ومعقّدًا. اضطُرّ أن يركّز في بقيّة الدرس مع النساء متوسّطات العمر مثلها وهنّ يتحرّكن بخفّة. صارت تعتقد أكثر أنّها لا تصلح للرقص، ولا للحبّ، ولا لأيّ شيء حلمت به. بعدها تأمّلته وهو يعبر الشارع وحده، ويمتطي درّاجته بسرعة، ويختفي في الأفنيو السابع، كانت تسير متعبة في الشوارع الضيّقة التي تفضي إلى بيتها.

بعدها حرصت على تجنّب أوقات عبوره أمام شقّتها، ويتجنّب هو صعودها ونزولها، حتى بعد أن انتقلت صديقتها فاطيما إلى شقّته بعد عدّة دروس مشابهة في الرقص، وصارت تسمع صوت مؤخّرتها النموذجيّة صاعدة أو هابطة السلالم، دون أن تتوقّف لتحيّتها، أو تفسّر لها. صار عليها أن تقبل سننًا كثيرة في الحياة؛ كالتفهّم والنسيان والابتسامة المصطنعة. برغم القطيعة المعلنة بينهما، ظلّت رائحة القرنفل من كوب الشاي تصعد إليهما في المساء، ودخان سيجارته التي تشاركه فاطيما الآن أنفاسها، وهما يتهامسان، يهبط عليها من النافذة التي تكشف بيتها.

# ٧ أتلانتك أفنيو

## *Atlantic Avenue*

يصبح الأميركيّون. . يركضون باتّجاه مقهى «دانكن دونتس»، بألوانه المشتقّة من لون البطّيخ الماسخ، الجاذبة لحركة الركض المصاحبة لبداية النهار، في مفرق الأتلانتك مع الأفنيو الرابع، حيث يسكن قدامى المهاجرين. «دانكن دونتس» يجاور المسجد الذي يمتلئ بالمسلمين السود الأميركيّين، ويجاور المطعم اليمني «سبأ»، ويجاور «المركز الإسلامي ببروكلين»، ويجاور عددًا من المحلّات التي تبيع السواك والمسك والمصاحف والمِصلايات. يجاور أيضًا مركزًا لكبار السنّ ومن لا بيت لهم، ومركزًا للتأهيل العقلي والبدني، ومكتب الإعانات الأسريّة المجاور في شارع فولتن، حيث يطمع المعدمون في بطاقات الطعام، وإعانات البطالة

والتشرّد. موقعه الفريد يجعلهم أكثر احتياجًا إلى كثير من العمّال النساء، على الأرجح المغتربات، لأنّهنّ يتقاضين أدنى من الآخرين، العرب والمسلمين، ليتفاهمن مع الزبائن الذين يفضّلون بائعًا يشبههم وله لون جلودهم الخمريّة، ويفهم لكنتهم الغريبة ويجيد الجدل معهم في عدّ السنتات مرّة بعد مرّة.

تتركه نائمًا وهي تشعر بمرارة ألّا تكون مع طفلها، حين يفتح عينيه ويرتدي ملابسه وحده ويربط حذاءه بصعوبة، غير متأكّدة من أنّه سيربط الكوفيّة حول عنقه جيّدًا من البرد القارس، ويمشي وحده دون أن يراقبه أحد، وهو يعبر الشارع. ولم تطمئنّ بعد أنّه وصل بسلام ولم يحدث ما تخشاه وتفكّر فيه، ويرعبها كلّ يوم كلّما عبرت صورة لطفل مفقود ووخزَ الألم صدرها؛ لأنّ عليه أن يكبر ويصبح رجلاً وحده. تخاف عليه من امتلاء وجنتيه ومن عينيه السوداوين الواسعتين، وابتسامته التي لا تميّز بين الغريب والقريب. وبرغم أنّها صارت تحذّره كلّ ليلة من العابرين والجيران والغرباء وزملاء المدرسة الأكبر سنًّا، من الأساتذة وغرف الدرس والحمّامات المدرسيّة، واشتباكات الكرة حين يُسقط عليها أجسادًا كثيرة فوقه. صارت تقول له إنّه رجل صغير. وتحاول أن تشرح له مختصرًا للرجولة هو ألّا يقترب منك رجل آخر، وألّا يلمسك رجل آخر بمحبّة، أو عنف. وتصمت غير قادرة على حسم إن كان يفهمها أم لا، فقط يقول لها: «Fine».

لكنّ ذلك لا يمنع خوفها. مثلما تخاف هي نفسها، وهي تركض في الشارع، وهو شبه مظلم، وتركب حافلة ما زالت خالية بعد، وتمشي وحدها إلى ناصية «دانكن دونتس» التي يتجمّع حولها المارّة وهم يركضون في الصباح الباكر، يفتّحون أعينهم بقهوة ثقيلة. تغيّر ملابسها بسرعة أمام فاطيما التي لا تشبهها... فاطيما أصغر، سمراء، خلاسيّة صوماليّة طويلة وممشوقة، في السابعة والعشرين، جسدها بلا عيوب ولا تهدّلات، ولا أثر للولادة أو الانتهاك، وشعرها الأفريقي محلوق كغلام جميل.. فاطيما تتصدّر الكاشير، فهي كما يحبّون في المرأة بالضبط؛ طويلة وسمراء ونحيلة، وبملامح خلاسيّة. وبعد أن لوّنت شعرها بلون بياض الشيب الكالح، أبيضَ مصفرًّا بغلمة محبّبة، يخلق تنافرًا بين ملامح وجهها الطفولي الدقيقة ولون شعرها، تنافرًا يخلق الرغبة والإثارة، بين ملامح دقيقة وجلد أفريقي لامع. كانت فاطيما باختصار تصلح للبطولة، وهي تقف وتمرّر أصابعها بين النقود والقهوة بابتسامة محبّبة متّزنة، وتقول لك: «هل تريد شيئًا آخر؟»، «هل تحبّها مع الكريم والسكّر.. سكيم ميلك أم بلاك؟». ثم تختم اقتراحاتها بتمنّي يوم سعيد، أحيانًا، يوم جميل، أحيانًا أخرى، أو تكتفي بالابتسامة فقط.. المحيّرة القاتلة التي تؤكّد لطفها، وتُشعِر الزبون أنّه شخص حميم ليأتي عدّة مرّات، ويصبح مدمنًا لطلّة وجهها، في صباح يوم ممطر أو بارد كأيّام الشتاء الكثيرة. بينما كان دورها كالعادة في الخلف، تمسح هند بالفوط بقع القهوة، وترصّ قطع

الدونتس، تمسح الأرض أيضًا بلطف لا يلاحظه أحد، تتحرّك باستمرار، وبلا توقّف. . المراحيض، الطاولات، سواء أكانت ساهمة أم حالمة أم جادّة مكشّرة أنيابها.

تنشغل طوال الصباح بإزالة الأوساخ عن الأرض الملساء، التي لها لون البطّيخ الفاتح. تنحني قليلاً من طاولة إلى أخرى، يبرز جذعها السفلي مكتنزًا، كامرأة شرقيّة جلست طويلاً وامتلأ حوضها وعوارضها بالسمنة التي تجذب البعض لإلقاء علامات الحبور، خصوصًا إذا كنّ من النساء اللاتي يعبّرن بصراحة عن امتنانهنّ لحركتها العنيفة في التنظيف، بينما يعبّر الرجال أكثر لفاطيما، وهي تقف في أيّ وضع، سواء أكانت ساهمة أم حالمة أم مكشّرة عن أنيابها البيضاء الصغيرة النظيفة التي تبرز شفتيها الممتلئتين.

في الصباح يأتي الموظّفون يتبعهم الطلبة، وفي المطر يأتي المشرّدون. يأتون من شوارع بعيدة ويحيّون بعضهم بعضًا كأنّهم على موعد، يأخذون وقتًا طويلاً ليكملوا عدّ العملات المستديرة في جيوبهم المتّسخة، ويقفون في صفّ طويل يطلبون القهوة، ويجلسون طوال النهار يسحبون عرباتهم المليئة بأشياء تفوح منها رائحة العطن؛ ملابس وأحذية، متعلّقات للأكل والشرب والنوم، أشياء مكدّسة في عربات صغيرة. يدخلون بأحذيتهم الملطّخة بطين الشوارع القريبة، وتصبح المرطّبات الجوّيّة غير كافية لتبديد تلك

الرائحة القويّة النفّاذة التي تأتي من جلودهم، ينظرون إليها كأنّهم يتوسّلون أن يجلسوا هكذا بهدوء طويلاً حتى يعبر المطر، وأن ينساهم البائع والشاري، ولا يحدّق بهم أحد. يجلسون في صمت مترفّع وهم يخبّئون ملابسهم المهلهلة داخل المعاطف، تعبر بينهم لتمسح من طاولة إلى أخرى. يختبئون داخل دفء المكان المغلق، لأنّ دانكن دونتس مفتوح ليلاً ونهارًا، ودافئ، وملائم لهم كما يلائم أيضًا الغرباء الباحثين عن آمال كبيرة يصلحون لها.

تلتصق بالزجاج لترى الثلج يغطّي الشوارع، ستعاود التفكير فيه. لماذا يخلقنا الله أمّهات؟ هل يركض في الفناء الآن؟ هل يعرف كيف يحفظ توازنه على الأرض الزلقة؟ هل يعرف كيف يتكلّم ولا يعلّقون على لكنته بسخرية؟ هل وجد من يتحدّث معه؟ أم لا يزال وحيدًا يذرع الفناء المدرسي، ويتسنّد على الحوائط التي يقف عليها الغرباء مثله؟ هل فهم أنّ حركة رفع الإصبع حركة جنسيّة بذيئة، وتعني الإهانة؟ أم لا يزال بعضهم يرفعون في وجهه «الميدل فنجر» على سبيل اختبار ثقافته؟ هل عرف الفرق بين الكلمات النابية «الإف والإن والإل» F, N, L؟

حين تكفّ عن التحديق من خلف زجاج دانكن دونتس، تعاود المسح من جديد، تتحرّك بين الحمّامات وترشّ الروائح التي تبدّد ثقل الشتاء.

تخلع فاطيما قميصها أمامها في الحمّام، عندما تغيّران

ملابسهما. على ظهرها وعنقها الحبيبات المليئة بالمياه. تلبس فاطيما ملابسها على مهل بعد أن تحكّ جلدها مرّات، وهي تغطّيه بطبقات الكريم. تسألها عن تلك الجيوب المتقرّحة، فتقول لها بقرف: «بجز»، حشرة الفراش.. ألم تسمعي عنها.. ألا تعرفين ما هو «البجز؟». تعرف هند الآن كيف تعيش حشرة الفراش في طيّات المراتب، وتخرج بالليل وتصبح ماصّة مثل حشرة دمويّة، تعيش فقط على دم الضحايا الناعسين، وهي حشرة مُعدية وعنيدة، تلد الآلاف ليلاً، ولا تقضي عليها المبيدات ولا كريمات الحماية. تلتصق بالخشب والملابس، ولا دواء لها إلّا الحرق.

تنام فاطيما في مكان ما لا تعرفه هند، تنام مع رجل يسمّى جون، حينًا، ومع غيره أحيانًا أخرى. ولا تحبّ أن يسألها أحد عن الحبوب، ولا عن الرجال، ولا عن صوماليا. وتحلم بأن تصبح «ناعومي كامبل»؛ لأنّ لها جسدًا غلاميًّا طويلاً وجميلاً، وله روائح بلاد تذهب إليها المراكب.

تسير إلى جانبها في الشوارع التي صارتا تحفظان تفاصيلها. تقف عدّة ساعات أحيانًا وحيدة على مقعد خشبي، أمام مغسلة الثياب التي يملكها أحد اليمنيّين المتديّنين، يحيّيها دائمًا قائلاً في خشوع: السلام عليكم، ثم يزيح وجهه بعيدًا عن جسد فاطيما في البنطلون الاسترتش الذي يبرز مواهبها. تجلس بجوارها لتدخّنا السيجارة المؤجّلة منذ السادسة صباحًا. لا تحكي فاطيما عن

نفسها شيئًا كأنّ كلّ ما يخصّها يخصّها وحدها، برغم حبّ الغرباء في الثرثرة والكذب، واختلاق الحكايات لملء فضاء الصمت في حياتهم. تعرف هند أنّها تمشي معها وتلتصق بها، ليس بدافع الصداقة، هي فقط تحتاج أن تنام بعض الليالي في بيتها، وتكره الحياة مع صديقها السابق جون. بيتها غرفة واحدة، إذا نامت فعليها أن تفترش المساحة الوحيدة الخالية أمام المطبخ، حيث يأكلون ويجلسون ويعيشون.

تحبّ فاطيما الأريكة الوحيدة التي تملكها هند، وتكوِّن الأثاث الوحيد في منزلها. تدخل فاطيما المبنى وتصعد السلالم العالية، وتضع جسدها تحت الماء، لعلّه يشفي تلك القروح على ظهرها. تقضي معظم وقتها في التحمّم ووضع الكريمات ومراقبة الحياة من نافذة البيت الوحيدة، تحاول الاقتراب قليلاً من الصبي الملتصق بأمّه، بقولها ناصحة: «هذا الطفل سيظلّ ملتصقًا بك هكذا.. لا بدّ أن تتركيه لي أنا سأتعامل معه». تشاركه اهتمامه الأوحد بعد أن أنهى تشكيل قارّة أفريقيا، وهي لعبة الشطرنج التي اكتشف أنّه موهوب في لعبِها. كانت فاطيما موهوبة في الحقيقة أكثر من ناعومي كامبل، لكن للأسف لم يكتشفها أحد وربّما لذلك كانت تتكوّم في الغطاء ليلاً، وتغطّي وجهها مثل هند ولا تنام. ترى في بيتها امرأة أخرى مثلها وحيدة وبائسة ومثيرة للشفقة؛ فتؤنسها فكرة التماثل. تلتصق مثلها بالنوافذ وتحلم. تجيء فاطيما وتعتقد أنّها تفعل ذلك فقط لتؤنسها، وأنّ نومها في بيتها عمل

خيري تطوّعي، فقد جاءت ليستأنسا بها. لا تقول أبدًا إنّها بحاجة فقط إلى مكان تختبئ فيه، دون أن تشارك في نفقاته. تهزّ هند رأسها وتتأكّد أنّ فاطيما لا تصلح موضوعًا لمفهوم الصداقة، إنّها فقط تجعلها تفتقد أكثر لهذه الكلمة: الصداقة. وهي الرغبة في الفضفضة أمام إنسان يدّعي قدرًا من الاهتمام بما يجري لك. وهذا ما لم تكن فاطيما قادرة عليه. كانت مشغولة بالفقاعات وبجِلدها ومستقبلها الغامض.

هند أيضًا كانت مشغولة بحياتها، وتفكّر كمْ من الأصدقاء عرفت، وتكتشف بعد كلّ هذه السنين أنّ أصدقاءها كانوا دائمًا قليلين، لأنّها ليست اجتماعيّة بما يكفي، وليست فكاهيّة بما يصنع قدرًا من الضحكات. وتعزو ذلك إلى طبيعة برجها الترابي الخائف؛ يتخفّى في صداقات قليلة ويفضّل عالمه المغلق، ولن يستطيع أحد اختراق القشرة الصلبة التي يتخفّى تحتها. في طفولتها، تجلس ثالثة ثلاث في الوسط، إلى يمينها نهى وإلى يسارها حنان. جسد نهى يفور بسرعة وتظهر عليه علامات الأنوثة مبكّرًا، لكنّها تحبّ أن تلعب معها. تلعب نهى معها لعبتها المفضّلة، الحجلة. على الرصيف المحاذي لدكّان أبيها، سينكشف ثوبها وترى علامات الملاعق الملتهبة على فخذيها. تحبّ نهى لعبة الحجلة، تخطّ بالطباشير خطوطًا مربّعة، وتشمّر ثوبها، وتمدّ ساقيها البيضاوين الممتلئتين، وتتابع قطعة الحجر التي تنزلق من مربّع إلى آخر بسرعة مذهلة. يمرّ بعض الصِّبية من

مدرسة «مقاوي» الابتدائيّة، وهم يراقبون الساقين؛ فتكشف ثوبها أكثر، غير عابئة بحسابات المكسب والخسارة؛ رفع الساق لأطول وقت ممكن هي المهارة الأنثويّة الأولى التي تعلّمتها نهى، وصارت موهبة تستوقف العابرين الذين يشاهدون طرقها العجيبة في القفز طبقًا لقوانين اللعبة. تسحبها أمّها من شعرها لتدخل. بيتهم حجرتان خلف واجهة الدكّان الصغير الذي يمتلكه عمّ محمود البقّال، ترى نهى أمّها وهي تخلع ثوبها، وثمّة امرأة ممتلئة اسمها «فاطمة القروميّة» تأتي بمعجون زيت الزيتون واللبخة لتمسّد ظهر أمّ نهى المتعب. تدعك فاطمة القروميّة الممتلئة السمراء ظهر أمّ نهى وهي جالسة على الحصيرة السمار في الغرفة المغلقة، وتنزلق يدها من أعلى عمودها الفقري إلى القاعدة الخرسانيّة لجسدها المدكوك، فيما تتلصّص نهى نصائح «فاطمة القروميّة لأمّها زوجة محمود البقّال، وهي مستلقية لجلسة التدليك: «يعني إيه سبع بنات. ما أنتِ بِكْرِك راجل! عايز إيه منّك بَقَى؟ يعني ناقص كمان ولد تاني. يعني هو محمود البقّال حيلته إيه عشان كثرة الرجّالة؟». تلطم أمّ نهى على وجهها بتأثّر، وتقول: «ح يتجوّز يا خالة». تقبض فاطمة القروميّة على ساقي المرأة الممدودتين بعري كامل، وتقول: «اسمعي كلامي.. ارفعي رجليكِ. تسكب على مفرق ساقيها مزيدًا من الزيوت، بعد أن تنتف عانتها بالحلاوة، وتهزّ رأسها المزيّن بعصفورين من الوشم الغجري، وتقول: «كلّ الرجّالة أولاد قحاب يا هبلة، ومثل

الكلاب، ولا يتشعلقون إلّا من قضيبهم». تقول ذلك بحكمة امرأة عرفت كلّ أشكال الرجال في حياتها الطويلة، وانتهت إلى سنن الحياة.

جلد أمّ نهى متهدّل من الولادات المتعاقبة، وبطنها يبدو ممتلئًا بدهن، وخطوط طوليّة من التجعّد؛ فتضرب فاطمة القروميّة على بطنها، وتكمل «اشفطي ده»، وتشير إلى ساقيها. وارفعي دُول. تسكب عليها بعض الزيوت والماء الساخن المعطّر، فتتشرّب الأرض الترابيّة رائحة المستكة الحلوة، وتلبس أمّ نهى قميصًا من قماش الزهور الخفيف، بلون وردي وبصدر مفتوح زيّنته بشريط من الكلفة الركامة على الصدر، تبتسم وتبدو مستديرة وعطرة ومهيّأة لما تستعدّ له.

تلحظ الأمّ تلصّص ابنتها عليها من خلف ثقوب الباب، فتفاجئها بفتحِه وشدّها من شعرها، وقرصها من فخذيها وهي تفشّ فيها غلّ قلبها، وتقول: «طول النهار تفتح رجليها يا خالة وتلعب «حَجلة». . البنت دي ح تجيب لي مصيبة. . أنا قلت ما تفتحيش رجليكِ يا بنت». تبكي نهى وهي تحكي عمّا سمعته عن فتح الساقين وشفط البطن وسنن الحياة، ولا تكفّ عن لعبة «الحجلة» في الفُسح المدرسيّة لأنّ اللعبة تُبرز كلّ مواهبها، ترسم المربّعات وتنطّ وتفشخ ساقيها غير مبالية بتلصّص الصِّبية، تقفز بمهارة من فاصل إلى فاصل، تضع قطعة الحجر على رأسها وتحدفها مغمضة

عينيها، وتنطّ لتتفادى المصير الذي تواجهه أمّها بعد سكب الزيوت على فخذيها. فكلّ مرّة تخرج منكوشة الشعر وعلى خدّها عدّة لطمات، وسيكون صوت أبيها، عمّ محمود البقّال، ليس كما يألفه زبائنه مسالمًا وطيّبًا وواسع الصدر في الفصال والبيع والشراء، تسمعه يفحّ بشراسة واصفًا زوجته: «أنتِ طوبة يا بنت الكلب؟». تبكي أمّ نهى وتشكو آلامًا تحطّم رأسها إلى نصفين، فتعالجها فاطمة القروميّة بدقّ الوشم، بينما تضع نهى القطعة الحجريّة فوق رأسها، وتفكّر في الطوب وفتح الساقين وشفط البطن أكثر من أيّ وقت، وتحاول أن تنسى وجه أمّها وهي تضمّ بناتها السبع على الحصيرة، وتتكوّم كخرقة قديمة من الألم بالليل، لكنّها لن تكفّ عن انتظار زوجها حين يحبّ، ويأتي إليها في بعض الليالي، ويهزّها من كتفها ويقول لها «تعالي».

تحاول نهى أن تلعب أكثر وتتمرّن أكثر، فتأخذ كلّ أدوار لعبة «الحجلة»، ولا تترك لهند إلّا مشاهدة صديقتها تواصل، ولا تسقط ولا تتعثّر أبدًا. بينما يجلس عمّ محمود البقّال في دكّانه خلف الطاولة الخشبيّة التي وضع عليها رخامة قذرة، تسمّى «البنك» تتّكئ عليها النساء بصدورهنّ، أو يضعن عليها أطفالهنّ الرضّع، وهنّ يفاوضن البقّال في «الخمسة أبيض» أي في عدد القروش المعدودة في جيوبهنّ، وقد يفزن بقطعة حلاوة شَعر، أو تدويقة من الحلاوة الطحينيّة المكشوفة في الڤترينة، وحبّة نعناع فوق البيعة، بينما يلفّ البقّال السجائر البفرة ويحشوها بأشياء أخرى يعرفها

الجميع باسم «سطلانة»، أي ما يغيّب ويسطّل العقل، ويبيع البقّال السجائر فرطًا، ويسأل كلَّ شارٍ: «محشيّة ولاّ سادة؟». يكتسب دكّانه بذلك أهمّيّة أخرى إلى جوار زجاجات «الإسباتس» والبيرة «ستيلّا»، وبراميل الزيت والسمن وأجولة السكّر. يصبح ورق البفرة والسجائر المحشوّة بالمخدّرات تجارته التي يتربّح منها، خصوصًا بعد أن اغتنى بعض الناس من الحقائب، والرسائل القادمة من العراق واليمن والسعوديّة. وكان من نتائج ذلك أن بنى غرفًا إضافيّة بالحجر خلف دكّانه، وجعل لمدخل بيته الجديد بابًا من الحديد يحجز بناته السبع؛ كي لا ينفرطن في الشوارع.

تقف هند خلف الباب، وتبحث بعينيها عن صديقتها، فلا تجدها. تجلس فقط أمّ نهى خلف الباب الحديد، وتشدّ من دخان الجوزة وينطلق الدخان من أنفها. دقّت على صدغها سمكة وعلّقت سمكات بلاستيكيّة أخرى في صدرها، مع بعض قرون الفلفل، خوفًا من الحسد، بعد أن انتقلت لتسكن في بيت من الحجر الأحمر. ورغم أنّ الله قد فتح عليهم في المال، ابتلاه بآلام الرأس ووجع الشقيقة. بعد ذلك بنى محمود البقّال الدور الثاني؛ غرفتيْن علويّتيْن بسلّم من الحجر، وكان أوّل من علّى بيته وصار طابقين، ولوّن غرف الطابق الثاني بطلاء من الجير الوردي، وأصبح يقول لكلّ النساء اللاتي يتّكئن على «البنك»: «طالب حلال والله.. والنبي جا لي في المنام وقال لي: يا محمود إنتَ ربّنا رزقك بولد، وأنا لم أرزق بغير الإناث. قلت شفيعك أنا عايز

نواية تسند الزير يا محمّد. قال: عليك بالحلال يا محمود».

تزوّج محمود البقّال سيّدة صغيرة ونحيفة، آملاً أن تصبح رحمها أوسع، وظهرها أنشف، وتستطيع حمل الولد كما نصحته العارفة بأمور النسوان، فاطمة القروميّة، وهي تشدّ من السيجارة المحشوّة التي أعطاها إيّاها، فتقول له بحبور: «يا خويا ربّنا قال مثنى وثلاث. . وأنا عارفة البير وغطاه. أُمّ عيالك خلاص لا طراوة ولا حلاوة». وانشغلت أمّ نهى أكثر بآلامها الطارئة وأوجاع الرأس، أو كما يسمّونها أوجاع الشقيقة، بينما بدأت نهى تحدّثها عن إخوتها الأشقّاء وغير الأشقّاء، وجمع قطع الفخّار المكسور لتصنع منها لعبة جديدة، بعد أن قال لها أبوها عمّ محمود البقّال: «سأذبحك لو لعبت الحجلة تاني. إنتِ عايزة تفضحينا؟».

صارت الحجلة لعبة بذيئة ومرتبطة بفتح الساقين، وشدّ الثوب لأعلى. ومن ثم جلب الفضائح المرتبطة بهذه الأوضاع الخطرة، فاستبدلتها نهى بلعب «القال». تأخذ هند من يدها وتركض باتّجاه الفاخورة الكائنة خلف عزبة التلّ. في الفاخورة طين وفخّار وقلل حمراء أو بيضاء مدوّرة وملساء، يثقب استدارتها عنق طويل. وهي تتلوّى على خازوق من الحديد ليخرم فيها خروم القلب؛ خرومًا ضيّقة تسكب الماء في الفم ولا تُريقه، خرومًا تُفتح بعناية وحرص بخازوق من الحديد. الأباريق وحدها لها قضيب ضخم ناتئ صلد تحمله النساء إلى الخلاء ليدسسنه بين الأفخاذ، والإبريق يهرق

الماء بلا حياء. . ، في الفاخورة أشياء أخرى للبيع؛ عرصات للأفران، زير للماء ضخم وواقف بانتصاب وذكورة، جِرار فخّاريّة منتفخة كبطون توشك على الولادة، بنّيّات للحمّام تنام فيها الزغاليل الوليدة. سنّة الحياة. . أشكال يخلقها صاحب الفاخورة على هواه، ويحرقها في الأفران الملتهبة، ثم يُلقي بها على القشّ المواجه للفاخورة، فتعبر النساء ويقلّبن بأيديهنّ ليشترين بعض الحوائج الفخّاريّة.

تهرب هند ونهى وتصعدان تلال فرعون، ثم تعبران أرض سوق الجمعة وخيام الغجر لتصلا إلى الفاخورة. تلتقطان قِطع الفخّار المكسور، وتعودان بالغنيمة من قطع الفخّار، ثم تجلسان على مسطبة دكّان عمّ محمود، وتنشغلان بتدوير قطع الفخّار لتصير «قالاً»؛ حبّات ناعمة. . تلتقطانها بأصابع طويلة وخبيرة، وترقص في أياديهما ذات الغوايش البلاستيكيّة بفرح. بعد أن تصلا إلى المصطبة بالغنيمة، ستلتقط أمّ نهى بنتها من شعرها بغضب وتقرصها من فخذها لأنّها تخرج ولا تعرف لها طريق جرّة، ولن تراها هند بعد ذلك أبدًا. .

تتلصّص على دكّان عمّ محمود، على أمل أن تراها تقرطس في قراطيس السُّكّر، أو تلمّع في أرض الدكّان الزلقة، كما اعتادت أن تراها، لكنّها لم تظهر بعد ذلك إلّا خلف الباب الحديدي، وهي ترصّ قِطع «القال»، وتلعب وحدها بحركات أكروباتيّة:

الأولى.. الثانية الجبو.. الشقطة.. كلّ حركة لها مهارة تعرفها نهى وحدها، وتجيدها بخبرة من لعب وحده طوال الوقت.

تقول أمّ نهى لهند، حين تسأل عن صديقتها: «خلاص بطّلنا مدارس». لكنّ ذلك لن يمنع هند من الوقوف على الباب الحديدي الذي لا يفتحه أحد لها لتدخل. تحدّثها صديقتها القديمة من خلف الباب، برزانة وتمهّل امرأة صغيرة، تضحك بنشوة وتستجيب لخازوق الفاخورجي، وتسير على مهل منضّج، بعد أن يزورها خرّاط البنات قبل الجميع؛ فيصبح وجهها أكثر احمرارًا وجسدها أكثر انسيابًا.. تراقبها من خلف الباب وهي تلعب بالقال وحدها، وسط رائحة الكيروسين في البراميل الصاج، والزيت في الحاويات البلاستيكيّة، والسكّر في أكياس من الخيش، ولا تخرج أبدًا. تختفي من خلف الباب بعد بضعة أشهر، وتدخل فاطمة القروميّة من الباب الحديد، حاملة معها اللبخة والزيوت وأدوية القيء والحَبَل. وحين تسألها هند عن صديقتها التي اختفت فجأة حتى من خلف الباب الحديد، تضحك فاطمة القروميّة ضحكتها التي يعرفها الرجال، ويخاف منها الصغار؛ لأنّها ضحكة ممطوطة وفيها بحّة، وتشخر في آخرها؛ فتثير شهوة الرجال العابرين، ثم تقول لها: «خطفها خرّاط الصبايا».

صديقتها الثانية كان اسمها حنان، ممتلئة ورَبعة وخمريّة، نسخة صغيرة من أمّها «الستّ أمّ حنان» الخيّاطة. تجلس حنان

بجانبها في المقعد، بعد أن ذهبت صديقتها الأولى نهى إلى خرّاط الصبايا. تحمل في جيبها الكثير من قصاصات القماش الملوّنة، وتصنع للّوح الأسود أصنافًا من البَشَوْرات، أو الأكياس القطنيّة التي تمسح بها الطباشير. تمسح دائمًا اللوح، فيرى الفصل مؤخّرتها المستديرة الممتلئة. لا تعرف حنان لعبة الحجلة ولا تجيد «القال». وكلّ مواهبها تندرج في صنع الدّمى القطنيّة والبشَورات التي تمسح بها الطباشير من على الخشب الأسود.

تُخرج من حقيبتها ثيابًا للعرائس، وتطرّزها بالترتر والخرز الملوّن، وتبيع الأثواب للبنات في الصفوف الأخرى بخمسة تعريفة للفستان. ترسم بالأقلام الملوّنة حواجب وأفواهًا للعرائس القطنيّة، وتضع خرزة خضراء في مكان العينين. وفي حصص الأشغال تجلس مثل سيّدة محترفة تطرّز المفارش بغرزة البطّة، تحوك من الكروشيه بونيهات تبيعها أيضًا، كما تبيع أربطة الرأس والمناديل المطرّزة، ولها قدرة كبيرة على الصمت المطلق والانهماك في التطريز بولع ومثابرة. صارت خبيرة في صنع المفارش التي تسمّيها «عبّاد الشمس»، لأنّ لها ألوانًا تشبه تفتُّح تلك الزهرة، وتنجح في مزج درجات اللون من البنّي الغامق إلى الصفرة الشمسيّة البهيّة. وصارت أيضًا بارعة في قصّ فساتين العرائس خصوصًا ذات الكرانيش المتعدّدة، وكلّها من فضلات القصّ التي تجلبها من تحت ماكينة أمّها الستّ أمّ حنان. اللعبة الوحيدة التي تجيدها حنان هي لعبة «بيت بيوتة»، تجيء إلى بيت

هند وتجمع من النفايات علب الكبريت، وبقايا الزجاجات والعلب الفارغة، ثم تخطّان معًا بالرمل حدود بيوتهما الوهميّة، بالحصى والنفايات وبعض الأغصان، وورق الشجر. ستصبح الحياة جاهزة لتمثيل دور الأمّ والابنة. تصبح حنان طفلتها وتقول لها «يا ماما»، أو الخادمة وتقول لها «يا ستّي».. تصبح كما تشاء لأنّ حنان تقوم بكلّ الأدوار بطاعة تدرّبت عليها، حنان مهذّبة ورزينة مثل الطوبة، على خلاف هند التي تركض كالمجنونة في الحوش المليء بالأشياء التي تصلح لتكون على هيئة بوتجاز أو ثلّاجة، في البيت الترابي.

تذهب هند إلى بيت حنان، لأنّ أمّ حنان خيّاطة وتُصلِح الثياب التي ترسلها بها أمّها في مهامّها لتوسيع بعضها، أو تضييقة، وتقصير البعض الآخر.. وهكذا تصبح، بقدرة أمّ حنان، صالحة من طفل إلى آخر. تسير هند بفرح في الشوارع الضيّقة المسقوفة بالقشّ، التي تجلس النسوة فيها على أعتاب بيوتهنّ، وهنّ يسكبن الماء ويغسلن المواعين، ويشربن الشاي أو يتبادلن الشتائم. تحبّ هند بيت أمّ حنان؛ فهو مليء دائمًا بالنساء، وبابه مفتوح، وصوت الراديو الترانزستور يصدح منه، وضجّة الماكينة تجعل الحياة فيه مختلفة عنها في بيتهم.

أمّ حنان ممتلئة وسمراء وربعة، وصوتها رخيم وتحبّ الغناء، ولها حاجبان رفيعان، دائمًا مرسومان بالكحل، ولهذا يلقّبونها

بـ «فتحيّة أحمد»؛ فعيناها سوداوان كحيلتان، وشعرها مضموم في بوكلة جانبيّة، تغيّر البونيه ليتناسق مع لون ثيابها. وصوتها يوجع القلب خصوصًا إذا اتّكأت على الماكينة وغنّت: «يا ريت زمانك وزماني يسمح لي تاني». وتغنّي أيضًا بعض الأغاني التي تضحك البنات لها، ويعلو حاجب الستّ أمّ حنان وينخفض في حركة مليئة بالمعاني، وهي تشدو «ارخي الستارة اللّي في ريحنا لَحْسَن جيرانك تجرحنا». فتحة صدر أمّ حنان واسعة، وهي تضع فيها المقصّ وإبرة الخيط، وعدّة من الآلات الأخرى كالملقط وقلم الحواجب وكيس النقود. صدرها مليء أيضًا تحت كشكشة الدكولتيه، يشبه كلّ الفواكه الصالحة للتشبيه، لأنّها لم ترضع بناتها الثلاث.. تقول «مخاوياهم مع أختي»، أي تتولّى أختها إرضاع أطفالها بدلاً منها.

تجلس دائمًا على ماكينة الخياطة منحنية قليلاً، فيطلّ ثدياها من الديكولتيه المكشكش. بيتها مليء بنساء صغيرات جئن ليتعلّمن الحرفة. يقلن لها «يا أبلة»، ولا تراهنّ هند يجلسن مكانها أبدًا، فقط يكنسن لها البيت ويطبخن ويرششن الماء أمام ساحة الدار، لكنّها عندما تبدأ قصّ أيّة قطعة قماش، سيلتففن على الحصيرة السَّمار حولها، ويحاولن حفظ طريقة القصّ في ذاكرتهنّ. تسكن معها أمّها، وهي سيّدة عجوز كثيفة التجاعيد شديدة النحول، تجلس في الشمس لأنّ عينيها حمراوان ومغلقتان بالرمد الذي يترك على حوافّهما بقاياه. تقشّر فصوص الثوم، أو تفرط حبّات البسلة

صامتة، وتقطع صمتها بالوضوء والصلاة على النبي، وحكاية بعض الحواديت. يحتاجون إلى تكرار الكلمات أمام سمعها الثقيل، تعرف هند عنها أنّها سبقت الجدّة زينب في مهامّ الخبز والعجن، قبل أن تتقاعد وتشكو وجع عينيها. كانت تخبز قبل ذلك في البيوت، وذهبت النار في الأفران ببعض بصرها وسمعها أيضًا، وأكل الدخان صحّتها. حين تقول لها هند ذات يوم: «ماما بتقول لو ممكن تعملي ليها شويّة رقاق لرمضان يا جدّة»، ستنتفض أمّ حنان من على ماكينتها، وتؤكّد لها بحاجبيها: «قولي لماما إحنا بطّلنا خدمة العرب.. وأمّي لا بتعمل رقاق ولا فطير يا بنتي». تشعر هند بالإحراج، ولا تفهم أساسًا من هم «العرب» وكيف تنتمي عائلتها إليهم.

تدير أمّ حنان مؤشّر الراديو كلّ عدّة ساعات، لتضبطه على أغانيها المفضّلة. تجيء إلى أمّ حنان كلّما أرسلتها أمّها ببعض الملابس القديمة لإصلاحها، قائلة: «ماما بتقول لو ممكن توسّعي الكمّ شويّة..». أمّ حنان التي ترفع حاجبها اليمين كلّما تكلّمت أو تنهّدت، تقول لها بصراحة: «قولي لماما أنا ما عدتش باصلّح.. أنا مقصّي دلوقت لا يتحطّش إلّا في التوب اللي لسّه بوَبلُه»، أي الجديد الذي لم يلمسه أحد قبلها. تنظر هند إلى الأرض، لأنّها تشعر بالحرج وهي واقفة والثوب في يدها، تسحبه منها برقّة وتقول لها: «طيّب معلش المرّة دي عشان خاطر ماما.. بسّ قولي لها أنا مقصّي يحلفوا بيه.. وعليا حَرْدَة كينار على كيفك وكيف ماما».

تهزّ هند رأسها متفهّمة، وتجلس بجوار الجدّة العجوز التي تحكي لها قصّة «هند بنت الملك النعمان»، تراقب البنات حولها يفركن في الأواني، ويراقبن أمّ حنان التي تترك لهنّ أعمال التصليح. تتثاءب ثم تقول: «ظهري انكسر يا بنات، واحدة منكم تصلّح ده». تترك لهنّ ماكينة الخياطة وتنام على بطنها، على الحصير السمار، فتدعك لها بنت أخرى ظهرها بيديها، أو تعدّل الثانية حاجبها، أو تنتف لها ثالثة ساقيها الممتلئتين دون أن تطلب، كأنّهنّ تدرّبن على تلك المهمّات. تصبح كما تحبّ؛ لامعة وناعمة، وتشبه تمامًا فتحيّة أحمد، إذا سال الكحل أسفل عينيها. يأتي رجال تعرفهم أمّ حنان، يدخلون كأنّ البيت بيتهم يعرفون غرفة الجلوس التي وُضعت بها ثلاث كنبات بفرش نظيف وملوّن، تردّ الباب ولا تغلقه، لكنّ مَن في الداخل يستطيع أن يُسمع مَن في الخارج ضحكتها، وصوت غنائها الرخيم الذي يوجع القلب.

تجذبها صديقتها لتصعدا معًا إلى السطح، تتسلّقان السلّم الخشبي وتنامان على القشّ، تبكي لها حنان بصوت مثل أمّها، وتقول: «أمّي عايزة تتجوّز. كلّ يوم تقول لي: أبوكِ ما عرفش له بلاد.. من يوم ما راح الأردن لا بَعَتْ زاد ولا زوّاد.. وقال عِدّوا لي، ولم يأتِ.. أنا مش ح أفضل كده عَزْبا طول عمري، وعايشة من غير راجل وإنتِ كبرتِ ولازم تفهمي».

لم تتزوّج أمّ حنان قطّ رغم كثرة الخُطّاب. تكبر حنان،

يصبح لها قبل الأخريات ثدي ممتلئ مع الردفين المستديرين، ممّا يثير أستاذ اللغة العربيّة الذي يرى في مسحها للّوح متعة في تأمّل معالم جسدها، وهو يتحدّث عن ولع العرب القدامَى بمقعدة الأنثى. تتغيّب حنان عن الفصل فجأة أيضًا، وحين تذهب هند بكيس من الورق به عدد من البرتقالات كعادتها في عيادة صديقتها التي مرضت بوجع البطن، ستقول لها أمّها باختصار وهي تضحك بغُنْج «خلاص.. صاحبتِك بلغِت»! تجلس بجانب صديقتها، فتحدّثها حنان عن بودرة التلك وتسلّخ ساقيها ووجع بطنها. تفكّر هند طويلاً في خرّاط الصبايا الذي لم يزرها وحدها من دون سائر الصبايا، لماذا يأخذ واحدة بعد أخرى ولا يأتي إليها؟ انتظرت أيضًا بشغف بالغ أن يأتي هذا الخرّاط، ويحملها إلى بلاد الله البعيدة.

بيت أمّ حنان صار يستقبل مزيدًا من الضيوف. بعضهم يرتدون هذا العقال والغترة البيضاء، يشبهون أعمام هند الكاعين بتلك الملابس البدويّة، يحمل أحدهم بعد بضعة أشهر صديقتها إلى بلاده البعيدة، البلاد التي هي أبعد من الأردن ومن العزبة الحمراء، وأبعد من كلّ ما يعرفنه من بلاد. ستعتزل أمّ حنان شغل الماكينة والخياطة، وتبني غرفتين من الطوب الأحمر، وتُحكِم إغلاق بابها الذي صار من الخشب المُزيّن بالتعاشيق.. النساء في البلدة يطرقن بابها ليعاينّ بضاعة جديدة.. العبايات السعوديّة والإيشاربات الخليجيّة والإسدال الأسود، والجوارب الثقيلة

للمحجّبات. استبدلت لقبها من «الستّ» إلى الحاجّة أمّ حنان، التي أصبحت تذهب إلى العمرة وزيارة النبي كلّ عدّة أشهر، وتعود حاملة معها حقائب مليئة ببضائع المحجّبات. تبيع وتفاصل وتُقسم بقبر النبي الشريف الذي «حبّته» ـ أي قبّلته ـ بهاتين الشفتين، أنّها لا تكسب شيئًا، وأنّ ما تفعله لوجه الله. صارت أيضًا تسعى في عفاف بنات الناس، وتدعو إلى تزويجهنّ في البلاد البعيدة الطاهرة، كعمل تطوّعي لا تتقاضى عنه إلّا رضا الخلق والخالق وتزويج البنات، خصوصًا الصغيرات منهنّ. وصار الجيران يعقدون عليها آمالاً أكبر في تلك الصفقات، أي في تسفير عدد من العوانس ليعملن خادمات، وتزويج الصغيرات. وأصبحوا يقولون إنّ طلّتها بَركة، خصوصًا إذا سارت بعباءتها المخمليّة المطرّزة، وقالت بعض المصطلحات الجديدة، مثل «جزاكم الله خيرًا»، و«الله يجعل لي في كلّ خطوة حسنة»، و«في رعاية الله»، تلك الكلمات التي تكسبها رصانة وقوّة.

تجلس هند في «مدرسة مقاوي» بلا أصدقاء. وتبقى هي البنت الوحيدة في الفصل الذي اختفت كلّ طالباته بسرعة محزنة. تجلس في الصفّ مهذّبة، بعد أنّ صدّقت أنّ «الحجلة» عيب، فهي تجعل البنات يفتحن أرجلهنّ، و«القال» حرام ويقلق البيوت، أي يتسبّب في خرابها. وصارت تكره «بيت بيوتة» لأنّ البيوت مقفولة على بلاويها.

بعد ذلك لم تعد تحبّ أن يكون لها أصدقاء، أو ربّما كانت لا تعرف كيف تخلقهم، كانت تقول «زملاء» فقط؛ لأنّ فقد الأصحاب، أو الاختفاء المفاجئ لمن كانوا يشاركونها الأشياء التي تحبّها، صار يؤلمها مرّة بعد مرّة. لم يعد يشاركها الآن أحد غرفتها، وتنتظر أن يرنّ الهاتف أو تبتسم لها امرأة لا تعرفها في طريقها اليومي، ولم تعد ترى فاطيما أيضًا. تقول لتواسي نفسها «إنّ كلّ الناس يركضون في تلك المدينة ومشغولون. عادة تسير وحدها باتّجاه الأتلانتك أفنيو. يسقط مطر الشتاء؛ فيختبئ المشرّدون في أنفاق المترو، وتركض العجائز باتّجاه دانكن دونتس. يجلسن وحدهنّ متلفّتات إلى أشخاص قد يبادلونهنّ الابتسام أو الثرثرة. يسقط المطر على زجاج المقهى؛ فتراقب قطراته المُفْرَدة، وتفكّر كم هي متّسقة مع البؤس من حولها. إذا واصلت السير في الأفنيو الطويل يمكن أن ترى بعض الدكاكين العربيّة، خصوصًا بجوار المركز الإسلامي ويمكن أن تعثر على كثير من باعة الكتب الدينيّة والفقهيّة التي تتحدّث عن عذاب النار وتكفين المسلم، وغيرها من المعلومات التي يحتاجها المسلمون، والمسك والسواك وملابس الحجّ والإحرام والمصلّيات المكّيّة القطيفة، والجلابيب البيضاء الباكستانيّة القصيرة والنعال والعباءات الساترة، وأنواع أغطية الرأس كافّة وبعض مطاعم الذبح الحلال.

تركب الباص أحيانًا من الأتلانتك أفنيو في الشمال حتى كوني أيلاند أو برايتون بيتش، تجلس بجوار الزجاج، وتتذكّر

التصاقها بزجاج العربة الكاديلاك القديمة. تظلّ في الباص، ولا تصل إلى أيّ مكان. مثلما صعدت تهبط في المحطّة نفسها، وتسير باتّجاه المقعد الخشبي الذي تعرفه أمام المدرسة وبجوار كوكو بار، لكنّ الصبي الذي تنتظره أمام باب المدرسة صار أطول قليلاً. يسير على بعد خطوات منها، ولا يتكلّم. يُجيب عن أسئلتها بكلمة مختصرة «فاين» Fine، ويحدّثها أحيانًا قائلاً: «الحياة هنا صعبة جدًّا.. لكنّها لا بدّ أن تستمرّ في الحلم. فالأحلام أحيانًا تتحقّق». لا تعرف من قال له ذلك، لكنّها تُبدي إعجابها بلكنته الجديدة، وهو يكرّر عبارته.. «Dreams come true Mum».

# ٨ فولتون ستريت

## *Fulton Street*

يقع فولتون ستريت في قلب بروكلين، وفي أحد أزقّته المطلّة على الكنيسة، يقوم مبنى صغير أرضي، بحديقة خلفيّة ذات شرفة قريبة. يسمّونه مبنى «وكالة غوث اللاجئين». تجلس هناك كلّ أسبوع إلى جانب سيّدات صغيرات، أو كبيرات مثلها، يأتين بحثًا عن فرص للعمل وكوبونات للطعام، ومعاش أسبوعي شحيح. سيّدات من بورما أو البوسنة، أو عراقيّات في ملابس سوداء قاتمة وحزينة، كُرديّات بيضاوات. . كثيرات منهنّ أفغانيّات بوجوه حمراء متّقدة.

تجلس دائمًا بجوار «نزاهات» التي هربت منذ سنوات من البوسنة. تُخرج من جيبها بطاقة تثبت أنّها كانت تعمل طبيبة في

«بوسنيا»، تضع نظّارة طبّيّة لتبدو أكثر وقارًا، وتتحدّث بجدّيّة طبيبة سابقة، في مدينة لم يسمع بها أحد، بكلمات إنجليزيّة قليلة ولكنة روسيّة ووجه أحمر صغير، لا تعرف هند كيف تتعاطف معه. نزاهات مطلوبة دائمًا لقدراتها المتعدّدة. يعرف مهارتها من لا يملكون غطاء صحّيًا، وهم كثيرون خصوصًا في «وكالة غوث اللاجئين»، وفي أطراف بروكلين ومنطقة كنارسي، وهي من المناطق المليئة بالمهاجرين الشرعيّين وغير الشرعيّين، خصوصًا من الأسر اليمنيّة المسلمة المحافظة، الذين يتقاسمون بيوتًا كبيرة يتشاركون فيها. مهارة نزاهات هي التي قادتها إلى عوالمهم؛ فهي خبيرة بالأوجاع والوصفات الطبّيّة. كما أنّها طبيبة تراقب الضغط والنبض والحرارة، وتتفحّص النساء الحوامل والمرضعات، ويطلبونها في الحالات الحرجة. ويسمّونها «الدكتورة»، ويثقون بها، ويرون أنّها، على أيّة حال، مسلمة، ويصحّ لها أن تطّلع على عورات المسلمين. كانت أيضًا تحمل معها ماكينة خياطة صغيرة، وتنتقل من بيت إلى آخر وهي تعدّل العباءات السوداء والمزركشة بالتطاريز، تلك الملابس التي يجلبها الحجّاج والتجّار بلا مقاس سابق، وتحتاج إلى تضييق وتحبيك؛ ليكون لها خصر وفتحة مقوّرة للصدر والأرداف. يد نزاهات مدرّبة على أشياء كثيرة، ومليئة بالعروق الدقيقة، لكنّها سريعة وصغيرة، يد طبيبة تصنع بها المعجزات. لا تفهم نزاهات من كلماتهم العربيّة، غير «إن شاء الله. الحمد لله. وسّع.

ضيّق»، وبعض المصطلحات التي تحتاجها للتواصل، خصوصًا مع الجدّة الكبيرة التي تدير كلّ هذه البيوت من على سجّادة الصلاة، وهي تسبّح وتحوقل. الصغيرات لا يشبهن الأمّهات فهنّ يلبسن الماركات الشهيرة كافّة، ويتحدّثن بلكنة أميركيّة أيضًا. على الرّغم من أنّهنّ عادة لا يذهبن أبعد من المدرسة المتوسّطة، حيث تدبّر الجدّة زيجات البنات من على فرشتها، وتكثر الحاجة إلى نزاهات في مواسم الأعراس، فهي التي تقصّ وتَحْرِد وتضيّق وتوسّع، وتجهّز ماسكات الوجه، وتتابع حالات الالتهابات التناسليّة، وتصف المراهم، وتقوم بدور البلاّنة، ومداوية الأوجاع في الوقت نفسه. تحبّها الجدّة التي تفترش الأرض، وتمضغ القات المنزرع في الحديقة الصغيرة خلف المنزل، وتشرب الماء، وتدهن يديها بمسك العود والزعفران، وتقول عنها «موحّدة بالله».

تقوم نزاهات بالتسوّق للعرب من أصول يمنيّة، لأنّهم لا يرسلون نساءهم إلى السوبر ماركت، وتقريبًا لا يخرجن إلّا مع أزواجهنّ، وينشغلن بعمل الوجبات المنزليّة. وتعرف أنّ كثيرًا من العائلات اليمنيّة التي حقّقت ثراء كبيرًا، يملكون كثيرًا من محلّات «الدّلي» المنتشرة لبيع البقالة في كلّ مكان، وأنّهم يملكون أيضًا نصف مغاسل «بروكلين لاندري كلين»، أو التنظيف الجافّ، وينافسون المكسيكيّين في أعمال البناء، فهم يقومون بأعمال الهدم والبناء كمقاولين صغار، كبروا وأصبحوا أسرًا ممتدّة، يعرفون

بعضهم بعضًا، ويتزاوجون فيما بينهم، ويكوّنون «جيتو» يمتدّ من كنارسي حتى الأفنيو الخامس.

تجلس نزاهات على مقعد وكالة غوث اللاجئين إلى جوار البوسنيّات الصغيرات اللاتي يتعثّرن في ثيابهنّ الإسلاميّة الطويلة. تحدّث هند عن «عمر عزّام». تقول إنّه غني جدًّا ويُرسل إليهم وإلى عائلات مسلمة أخرى معونات شهريّة كبيرة. تحثّها على مقابلة زوجته إريكا؛ فهي فتاة أميركيّة مهتدية إلى الإسلام على يديه. تقول لها إنّ إريكا تتعاطف مع اللاجئين المسلمين. تقول لها إنّه غني، أغنى ممّا يتصوّر أحد، أغنى من اليمنيّين، بل هو يشارك بعض اليمنيّين محالّهم وشركات الهدم والبناء. تدير هند وجهها إلى النافذة، كما اعتادت كلّما أرادت الهروب من حديث لا يعجبها. وقالت لنزاهات: «أنا لا تجوز عليَّ الصدّقة. أنا لا أعرف شيئًا عن هذا الربّ الذي تتحدّثون عنه. أحاول نسيانه على الأقلّ الآن». فتدير نزاهات ظهرها إليها، ولا تنطق.

النساء اللاتي اتّخذن جانبًا، بعيدًا عن حلقة الرجال، واتّضح لها كم يشبهنها الآن، خصوصًا إذا كانت أوراقهنّ مزيّنة بتلك العبارة «انتهاك بدني ونفسي. . لجوء إنساني» ممتلئات مثلها، خلفيّاتهنّ ثقيلة ويستخدمن كثيرًا من إيماءات الجسد للردّ على أسئلة عاديّة، مثل «كيف الحال؟»، أو ما شابه. يلبسن ملابس كثيرة وغريبة مثلها، كانت الثياب التي تدثّرهنّ تخفي ملامحهنّ

ووجودهنّ، ملابس غريبة مختلطة بالألوان التشكيليّة العرقيّة كأشكال المثلّثات والمربّعات، بألوان مبهجة حمراء وخضراء كأعلام دول انقرضت، وغرقت في محيط ما، وأنّهنّ مبتسمات بلا سبب لإبداء امتنانهنّ، ويسحبن في أيديهنّ أطفالاً كبروا وصاروا يتحدّثون اللكنة الأميركيّة، ولا يبحثون عن آبائهم الذين يعيشون أو يموتون في مكان ما. يجلسن وهنّ يغطّين رؤوسهنّ في الغالب بتلك الإيشاربات الأوزبكيّة الخفيفة التي أتين بها معهنّ.

يجلس على كراسي الوكالة عدد كبير من الشباب صغيري السنّ نسبيًا، معظمهم من بورما وأفغانستان، يتبادلون الثرثرة، حتى يأتي دورهم في تسلّم المعونة. لا يتحدّثون مجملاً لأنّ كلًّا منهم مشغول بحاله، ولا يتشاركون قصصهم القديمة؛ لأنّهم يودّون نسيانها أو محوها والتصديق بأنّهم رعايا، وبعد سنوات سيصيرون مواطنين أميركيّين، يشبهون كلّ الذين يجولون في الشوارع، ولا يسألهم أحد: من أين جئتم؟

يقترب منها عبدول باسمًا، تبتسم أيضًا غير راغبة في الحديث؛ لأنّ عبدول يصغرها بعشرين عامًا، وهو أحمق وثرثار، يلهث بحثًا عن وظيفة، وامرأة تؤنسه. يسألها السؤال نفسه الذي رأته يسأله لغيرها، على سبيل جرّ الكلمات من الأفواه المغلقة:

ـ هل أنت من الوكالة أيضًا؟

تبتسم وهي تهزّ رأسها. فيكمل:

ـ عربيّة؟

تهزّ رأسها موافقة.

ـ عراقيّة؟

تهزّ رأسها نافية.

ـ آه. فلسطينيّة، أليس كذلك؟

تهزّ رأسها نافية.

تجيبه بحذر من يريد أن ينهي حوارًا قبل أن يبدأ:

ـ أنا مصريّة.

ـ مسيحيّة، أليس كذلك؟

تصمت. تدخل في روحها أكثر، نافية هويّتها، بينما يستمرّ عبدول في طرح الأسئلة:

ـ تحضرين درس الإنجليزي؟

تهزّ رأسها موافقة.

ـ والتأهيل المهني؟

تهزّ رأسها نافية. تهزّ رأسها الذي أتعبته حركة الجزم والنفي، لكنّه لا يغلق فمه. يظلّ يستعرض خبراته في الحياة الجديدة، باعتباره خبيرًا في شؤون اللاجئين.

يقول عبدول إنّه من أفغانستان. هي تعرف ذلك دون أن يقول، من عينيه الضيّقتين البُنِّيَّتين مثل الثعالب الجبليّة. يتطوّع عبدول بشرح حكايته التي تعرف أنّها ملفّقة؛ لأنّ كلّ الذين يفتحون أفواههم هنا يكذبون، يدارون بالكذب أشياء لا يريدون أن يعرفها أحد، ويدفنون الحقيقة بعيدًا، أبعد من أن يراها مخلوق.

يقول لها إنّه كان يعمل مع الجيش الأميركي. يقول ذلك بفخر.

يخرج عبدول إلى الشرفة ليدخّن سيجارته، تخرج خلفه لأنّها تودّ أن تقترض منه سيجارة، وأن تنفث دخان القلق بعيدًا عن الجميع. المكتب جزء من المكتبة. مجرّد حجرة صغيرة مطلّة على بارك أفنيو الواسع النظيف. الشرفة مزدحمة بالمقاعد الخشبيّة أيضًا. يجلس على أحدها ويضع ساقه على الأخرى عالية، تكشف الشمس لون شعره الفاحم، وجسده الحربي، ولياقته الفاتنة. يعطيها السيجارة وهو يتّكئ بظهره. تجلس على الطرف البعيد من المقعد وتدخّن.

يبتسم عبدول، لأنّه وجد من سيكمل معه رغبته في الحديث العابر.

ـ هل تصلّين؟

تهزّ رأسها نافية، مؤكّدة بذلك عدم رغبتها في استعمال

الحروف؛ لأنّ الحروف لا معنى لها. فقط هزّة الرأس الصمّاء تعني وجودًا حرًّا من الأكاذيب.

يعود، فيسألها بشبق، برغبة في الرثاء أو السخرية، من وحدتها:

ـ أتحبّين الفودكا؟

يقول ذلك كأنّه عرض سخي، بخبث الثعالب المهتاجة، الباحثة عن عواء ليلي مشترك. تضحك؛ لأنّها لم تتوقّع أن يحاول إغواءها.

تقول بغنج: «أحبّ الفودكا، لكنّني لا أحبّ الأطفال».

وتنظر إليه. ثم تكمل أنّها تفضّل أن تشرب وحدها، لأنّها تسكر بسهولة وتفقد وعيها بسهولة، وتبكي بحرقة في النهاية. وأنّ تلك الدراما لا يحبّها الرجال عادة؛ لأنّها تخيّب كلّ توقّعاتهم عن احتساء الكحول.

يهزّ رأسه هذه المرّة بتسليم عارف، وبحكمة من عاد لرشده.

يعود إلى رغبته الاستكشافيّة في سؤالها:

ـ هل هناك جيش أميركي في مصر، كنت تعملين معه؟

لا تحبّ الحديث عن حياتها التي لم تعد تعرف عنها الكثير.

يكمل هو، حين تصمت بلا ردّ:

ـ أنا كنت أترجم للأميركان.

يضحك وهو يفرك بقايا سيجارته تحت حذائه «أترجم، وأجلب لهم حشيشًا، وأخبارًا وأشياء أخرى من هنا وهناك.. أشاركهم شرب الفودكا الروسي والحشيش الأفغاني».

يجذبها من شعرها، وهو يسأل:

هل تحبّين الحشيش الأفغاني؟

تضحك لأنّه طفل أكثر ممّا تصوّرت؛ لأنّه يريد أن يبكي، ويوشك أن يقول لها إنّه يريد أن يرجع إلى وطنه، وإنّه في الحقيقة لم يجد تلك الجنّة التي يبحث عنها. لا تقول له إنّها جرّبت الحشيش، حين كانت تبحث عن علاقة الحشيش بالكتابة.

كانت تريد أن تكتب كأنّها ستموت لو ظلّت الأشياء بداخلها كما هي مريرة ومتراكمة، وأنّها تريد أن تنهي نصّها الأوّل والوحيد «لا أشبه أحدًا»، لكنّ الكتابة عصيّة مثل أنثى مجروحة، وأنّها في الحقيقة لا تستطيع أن تتحرّر من تلك الجروح، وأنّها تبكي كثيرًا، وتبحث حولها كالمجنونة عن تلك البنت الصغيرة التي كانت تسكنها. صارت فقط راغبة في التشرنق داخل هواجسها. وقد تناولت الحشيش مرّة واحدة فقط، ثم أمسكت الورقة والقلم ولم تكتب. كانت الرائحة نفّاذة لكنّها انخرطت في البكاء والقيء، ثم نامت طويلاً. وعندما استيقظت كان طفلها الذي يحبو يضع جسده

الصغير كلّه فوق وجهها ويبكي «مممامما . .» وكان مبلّلاً، ورائحة برازه تملأ أنفها، وجائعًا، ومنفطرًا من البكاء.

لم تقل ذلك لعبدول، لأنّه لن يفهمها. كان يركّز كلّ قدراته في اكتشاف مدى تأثير رجولته على احتياجها الجسدي. يضحك مثل طفل، ويقول «ربّما تناولتِ شيئًا آخر. . ربّما حنّة أو خلطة أعشاب. الحشيش الأفغاني لدن مرن». يحرّك أصابعه باستدارة جنسيّة تعرفها كمثال يحاول به تشكيل عَجُز امرأة تثيره. يقول ذلك بشبق، فتردّ بصلابة.

تعبر رائحة الحشيش الأفغاني من سيجارة عبدول الذي ما زال يجلس على إفريز البالكون وينظر إليها. تذكّرها رائحة الحشيش بكلّ مدرّسي اللغة العربيّة. كانت دائمًا تقدّس مدرّسي اللغة العربيّة لأسباب مجهولة، وربّما مرتبطة برائحة الحشيش أيضًا، تحبّ كلاسيكيّتهم الواثقة، ويبدون لها رجالاً مفعمين بالسحر.

كان مدرّس العربيّة يركّز بصره على صدر صديقتها حنان، بالضبط على صدرها، الذي نتأ بفصوص صغيرة محبّبة ستكبر يومًا بعد يوم. كان حازمًا ومليئًا بالغموض، ويقول أشياء دائمًا صعبة ومبهرة، مثل «وقبر حرب في مكان قفر. . وليس قرب قبر حرب قبر»! ويسألها أن تردّدها بسرعة؛ فتخطئ حنان وتضحك؛ فينشرح قلبه. . ويهتزّ صدرها الصغير. مدرّس العربيّة كان وجيهًا، رغم أنّ

الجميع يعرف أنّه الابن الوحيد للجدّة زينب التي ما زالت متخصّصة في أعمال البيوت، ولكنّها تؤكّد أيضًا أنّها ليست خادمة. هي فقط «إيدها فيها البركة إذا عجنت، وإذا طبخت، وإذا فركت الفريكة، أو حلبت البهائم». ويد الجدّة زينب هي التي ربّت مدرّس العربيّة، الذي يحتفظ بقمصانه نظيفة وأنيقة، ويهتمّ بشكل خاصّ بتسريحة شعره الذي يبدو أسود فاحمًا مصقولاً، لامعًا، بروائح الصابون. وقد كان، كما تعرف جميع الصفوف، جادًّا ومحترمًا، ومدمنًا لشرب السجائر التي يبيعها محمود البقّال، ويكنّ إعزازًا عميقًا لصديقتها حنان ولأمّها الخيّاطة الستّ فتحيّة أحمد، إذ كثيرًا ما يشاهده الناس «خارج داخل» على بيت الستّ، وقد رأوها أيضًا تغنّي له «أسمر.. أسمر طيّب ما له.. حتى سمارُه سرّ جَمَالُه». يستند على طاولة تجلس إليها هي وحنان، ويبتسم لحضورها الأنثوي، ويحمرّ خدّاها الممتلئان، ويدرك أنّها نسخة من أمّها، فقط بعد أن صار الفصل خاليًا فجأة من البنات، وظلّت الرائحة المخدّرة تنساب، رغم أنّ إميل الناظر دخل أكثر من مرّة إلى الفصل، وقال له: «يا أخي إنتَ عايز تودّينا فْ داهية؟». لكنّه كان منشغلاً بنموّ حنان غير الافتراضي، وبتحوّلها من طفلة إلى أنثى. وكان مهتمًّا بفصاحة هند التي صارت تقرأ وتصحّح كرّاسات الفصل، وتكتب الأسماء على الطاولة، وتقوم بواجبات الدرس، بينما يكون هو متّكئًا على مقعده، يتبادل بعض الألعاب البريئة مع حنان.

عندما بدأت أمّ حنان تستعير بودرة التلك من الجيران، إمعانًا في كشف بلوغ ابنتها المبكر، جلست حنان في البيت غير عابئة بخطابات مدرّس العربيّة، الذي صار يرسل لها إنذارات بالفصل من المدرسة لعلّ وعسى تجد تلك الخطابات من يقرأها، لكنّ حنان لم تعد تأتي، وظلّ مدرّس العربيّة قلقًا، وشاردًا ومضطرًّا للتركيز على هند التي صارت تجلس وحدها، فقد أدركت هند أنّها صارت وجهًا لوجه مع مدرّس اللغة العربيّة، عليها أن تجلس في مواجهة الرائحة النفّاذة التي تعطّر الفصل. عليها أيضًا أن تشرح القواعد والقراءة والتعبير، بينما يكون هو منشغلاً بتفريغ سجائره من الدخان، بأنبوبة القلم الجافّ، ليحفر نفقًا في السجائر ويحشوها. وصار يحمل عصا رفيعة في يده ويغضب بلا سبب، ويقول للأولاد في الصفّ «يا بهائم»، لأنّهم في رأيه يأتون إلى المدرسة دون أن ينظّفوا أحذيتهم البلاستيكيّة من الروث، ولا يغسلون أياديهم الخشنة الملوّنة بالخضرة من حشّ البرسيم في الغيطان والحقول، وهم عادة ما يعتبرون الحصص المدرسيّة فواصل للراحة، أو النوم، من أعمال الحقل الشاقّة، ويجلسون في الفصل ببلادة ويتعاركون بحنق، فيؤكّد ذلك أنّ البلادة صفة نموذجيّة تلازم البهائم والتلاميذ في الفصل. وصار يضرب بالعصا كثيرًا، يضعهم بالمقلوب على الكرسي الذي خُصّص له، ويضرب على الساقين، فتنفجر في الفصل روائح نتنة من الأحذية البلاستيكيّة والروث والبكاء. وينزل الأولاد من على كرسي المَدّ

كاظمين أفواههم، يحاولون كظم دموعهم، ويتعب من الضرب فيخرج أوراق البفرة ويرصّ السجائر، بعد أن يؤكّد أنّ البهائم لا يكلّون من الضرب.

سيكون دورها قد تحدّد في القراءة المتواصلة، وبصوت عالٍ. وفي المرّة التي قالت له: «أنا تعبت من كتر القراءة.. هوه مافيش حدّ غيري»، جذبها من مريلتها البنّيّة، وقال لها بصوته العالي الذي يخيفها: «إنتِ فاكرة نفسك بنت الزير السالم.. يلّا على بيت أبوكِ يلّا.. عاملة روحها الجازيّة الشريفة، ما خلاص. بلا عرب بلا..». خرجت هند تفكّر من هو هذا «الزير سالم» وما علاقته بأبيها، وكان الأستاذ إميل الناظر يركض وراءها، لكنّها لم تقف. تركت مدرسة «مقاوي» الابتدائيّة خلفها، بعد أن عبَرت مَكنة الطحين والمجموعة، وبضعة مطارح تمرّ عليها كلّ يوم، وصار بطنها يوجعها كلّما رأت مدرّس العربيّة، وصارت حصّة العربيّة طويلة بعد أن أصبحت لا تقعد ولا تجلس ولا تقرأ، ولا تشارك في شيء. فقط تجلس وتنظر في الحائط المجاور، وتنتظر بصبر خانق أن ينتهي الدرس. صار مدرّس العربيّة يلبس طاقيّة بيضاء على رأسه، ويصلّي كثيرًا، ويقود الصبيان إلى المسجد المدرسي لأداء صلاة الجماعة. ثم ركب بعد عدّة أشهر الباخرة وذهب إلى بلاد بعيدة اسمها اليمن كان كثير من المدرّسين قد حملوا حقائبهم وسبقوه إليها.

بكت الجدّة زينب كثيرًا، وقالت: «ابن حرام يا ابن بطني. ابن حرام مثل أبوك، ده حتى لم يقل يا امّه أنا ماشي، ولا سلّم على امّه اللي شقيِت عليه العمر. معلش، الله يسهّل له، ويجعل الريح في صفّه، والبحر تحته ومراكبه عمرانة». دعوة الجدّة زينب مستجابة، كما أنّ يدها فيها البركة؛ فقد عاد الأستاذ القادم من بلاد اليمن، وفي جبينه علامة الصلاة، وفي جيبه مسك مكّي، وجلبابه أبيض. وصار يعمّر في «مسجد النور» أو «المسجد الكويتي» لصاحبه الذي لم يره أحد، وصار يخطب ويؤذّن ويؤمّ. ويسمع المصلّون صوته الجهوري ويقول «يا رسول الله أُمّتك يتكالب عليها الذئاب..»، ويبكي الناس تأثّرًا.

أصبح مدرّس العربيّة مشهورًا ببلاغته الحماسيّة، وكان أوّل من فتح محلًّا لبيع البلاستيك ومنتجاته، وسمّاه «البركة» ثم ثنّاه بآخر للسراميك والبلاط؛ ليلبّي احتياج البيوت الحجريّة الجديدة، وسمّاه «القدس»، ثم فتح عدّة توكيلات أخرى لبيع السلع الكهربائيّة وسمّاه «الفرقان».. ثم تغيّرت تلال فرعون وصارت هند لا تعرف كيف تسير في أزقّتها حين تتسنّد على أبيها بين العلواية والمضيفة.

يجذبها عبدول من شعرها ثانية، لتعود من ذكرياتها البعيدة، فتشعر بالإهانة وتقول له بحدّة إنّها «لا تحبّ الحشيش ولا مدرّسي العربيّة، ولا الأطفال، ولا الترجمة، ولا التجسّس، ولا أيّ شيء

عرفه هو في حياته». . وإنّها «لم تعد تؤمن بشيء»، وإنّه «مجرّد طفل غبي».

يضحك عبدول للإهانة، وهو يسألها بمكر ثعلب:

«أنت إذن سفيرة النوايا الحسنة، أعطوك الإقامة وكوبونات الطعام، والتعاطف مجّانًا، أو يمكن انتِ روح الأمّ تريزا جاءت من أعالي البحار لتعظني. . ».

يجرحها عبدول، فهو لم يفهم لماذا هي هنا، وهي أيضًا لا تعرف!

يجرحها، لأنّها تظنّ أنّها أشرف من ذلك وأرقى. إنّه فقط لا يفهم.

تعطيه ظهرها، فيكمل موضّحًا:

«ثم إنّك ممتلئة جدًّا من الخلف، وأنا لا أحبّ النساء اللواتي يملكن مؤخّرة بحجم جبل أُحد».

يضحك عبدول الذي يُظهِر معرفته بالثقافة الأميركيّة و«البيج فات آس»، وقدرته على إهانة الآخرين ببرودة، وابتسامة، وبلا غضب. تكتشف أنّه ثعلب جبلي صغير تربّى في أحضان فرقة كوماندوز أميركي، وأنّه ليس خبيرًا بالفودكا والحشيش فقط، بل قادر على الاستشهاد بأماكن مقدّسة، وحشرها في ألفاظ جنسيّة متلائمة؛ ليسخر من امرأة وحيدة، بائسة مثلها.

# ٩ بلوتو في برج الجدي

بطيء ومثابر، شتائيّ يحبّ الروتين. يمشي بخطوات متمهّلة حذرة. مثاليّ وطموح، محافظ، يتسلّق الصخور الخطرة ليصل إلى أهدافه، طيّب، وأخلاقيّ ونبيل. يسعى بدأب وحذر ليصل إلى القمّة. مثل كلّ الرجال من برج الجدي، الذين يعرفون كيف يخطّطون بهدوء، ويمشون إلى أهدافهم بثقة وتأنٍّ. ولكنّهم، حين يمرّون بأوقات عصيبة من الفشل أو الألم، يخفون آلامهم ولا يحبّون أن يشاركهم فيها أحد. يأخذون شوطًا طويلاً كي يتعافوا من جراحهم وحدهم، ثم يعودوا إلى السعي من جديد. كان ذلك الوصف ينطبق حرفيًا عليه، صديقها الذي مات.

يسقط مطرُ نهايةِ العام، ينقر زجاج محلّات وسط البلد.

حيث تجلس هند بجوار صديقها في مقهى «التكعيبة». المقاهي التي يذهبان إليها في وسط البلد دائمًا واحدة. يعرف العمّال الصديق لأنّه عادة ما يتبادل معهم التحيّة، ويسألهم عن أحوالهم وأسمائهم، والقرى الصغيرة التي جاؤوا منها. يجلسان بجوار النافذة، والزجاج يكشف برك الماء المتكوّمة على الأرصفة. يعكس الزجاج وجهه المتوتّر، وهو يسألها الأسئلة التي سئمت منها:

ـ ما أخبار الحياة؟

ـ ما خلاص خِلْصت.

ـ لسّه بدري.. أنت لن تموتي..

يذكّرها بطفلها. حين يقول ذلك، تردّ عليه بالنبرة نفسها المستسلمة الحزينة:

ـ وأين سأذهب في النهاية..؟

يردّ عليها بجدِّيّة أكثر:

ـ لا أعرف؟ يا ريت كنّا نعرف أين سنذهب في النهاية، كنّا ارتحنا.

يصمتان؛ لأنّ سيرة الموت ثقيلة ومعذِّبة. يجذبان من أنفاس النارجيلة ببطء، وإرهاق. فيعود ليسألها عن تفاصيل لا تودّ الحديث فيها.

ـ وأخباره؟

لا تردّ على السؤال ولا تعرف عن زوجها في الحقيقة شيئًا. ولا يعرف أحد كيف اختفى الزوج، أو لماذا؟ وسئمت من سؤال أصدقائها عنه، ثمّة زوج اختفى لأسباب غامضة ربّما تخصّه وحده.

يتلفّتان حولهما.. يحاول صديقها الجدي تغيير الحوار الذي لم يتغيّر منذ زمن طويل. تحبّ أن تسير بجانبه لأنّه خفيف ولا يقتحم صمتها، يسير بجانبها فتشعر بحقيقة أنّها تعيش وحيدة بلا معنى، وأنّها تبحث عمّن يؤنس تلك الوحدة. تكتشف كلّ يوم أيضًا قدرة صديقها المولود في برج الجدي على الحكي بلا توقّف. يحكي بلا سأم عن الميادين والأزقّة، والأشياء التي يمرّان بها. يحكي أحيانًا ليملأ الفراغ بالحديث عن أشياء لن تجرحها. يسير بجانبها ولا يسألها مثل كلّ الوجوه التي تصادفها والتي تتطفّل على ما تبقّى في حياتها، يتطوّع دائمًا بالحكي «ده ميدان باب اللوق عارفه ليه سمّوه باب اللوق.. كان يلتقي فيه الناس من مشارق الأرض ومغاربها، ويُقال باب اللقاء ثم أصبح باب اللوق».. تهزّ رأسها دائمًا لأنّها لا تعرف ماذا تضيف إلى ما يقول. يسير بجانبها عابرًا المقاهي الصغيرة التي لا تعرف لها تاريخًا، ثم يتطوّع ليشرح لها «وهذا مقهى سفنكس، كنّا نطلع من سينما راديو ونجلس عليه. سينما راديو كانت شيئًا آخر». يقف بعد

عدّة شوارع ويكمل: «وهنا في الممرّ، المركز الثقافي الهندي ودار الشاي الهندي، وكان من المقاهي الجميلة التي يرتادها المثقّفون، لكنّ معظم الفنّانين كانوا يفضّلون مقهى ركس.. كان على ناصية عماد الدين».

لم تكن تعرف أين يقع «عماد الدين»، وتتوه في الشوارع كلّها. لكنّها كانت تهزّ رأسها ليكمل حكايته.. يقول لها «كان يجلس عليه نجيب الريحاني وستيفان روستي وأنور وجدي. وكانت تُوقّع عقود الأفلام الكبيرة.. هنا على تلك الطاولات». يحلف لها أنّه رأى الممثّل «أحمد مظهر» مرّة جالسًا عليه. يقول ذلك بسعادة بالغة. ثم يكمل: «يحيى صديقي، كان يجلس دائمًا هناك، كان يهوى الفنّ وحلمه يكمّل سيناريو فيلم لنادية لطفي، عارفة كان أصل المقهى إيه؟».

ـ إيه؟

ـ صالون حلاقة.

يضحك ويحكي الأشياء نفسها كلّ مرّة، لكنّها ما زالت تحبّ أن تسير بجانبه، فما زال وحده يراها كما تتخيّل نفسها. ولن يرى أبدًا أنّها صارت أكبر، أو عبرت عددًا من السنوات بتعاسة، ولن يلاحظ كيف صارت منحنية قليلاً بعد الخياطات الكثيفة أسفل بطنها، تلك الخياطات التي فقدت فيها جنينًا، ونزّت بعدها لعدّة أشهر لبنًا متخثّرًا من صدرها؛ ما زالت الخياطات تؤلمها. لن

يراها سمراء وممتلئة ومثيرة للأسى، سيظلّ يؤكّد لها أنّها تكوينة ربّانيّة من ثلاث ممثّلات: «زبيدة ثروت»، و«سعاد حسني» و«نانسي عجرم». كان وجوده مبهجًا، ويجعلها ترى نفسها بصورة أجمل، رغم أنّها الآن لا تنطبق عليها تصوّراته عن الجمال المحض، ترتدي «جاكت» أسود أقرب إلى الرجّالي، لكنّها تقول دائمًا «كاجوال»، وتدّعي أنّها تحبّ الكاجوال، لكنّها تخفي بذلك قليلاً من أشياء كثيرة تودّ أن تنساها؛ تخفي مؤخّرتها التي صارت أضخم، تخفي ببساطتها الكاجوال؛ خوفها من علامات أخرى للعمر، لا يمكن محوها، نسيانها التامّ للأشياء الصغيرة في حياتها، وهي لم تكن من هذا النوع الذي ينسى، أرقها وهوسها ورغبتها العارمة في المشي بلا اتّجاه محدّد، صدرها الذي يضيق بكلّ شيء. تتلعثم بكلمات لا تفهمها، وتكتشف أنّها صارت تُفاوض باستمرار؛ لأنّ كلّ الأشياء تبدو مكلفة وباهظة. تدخّن بحذر خوفًا على السجائر التي تنتهي بسرعة، تجذب حتى آخر نفس، وتتمدّد في الفراش متعَبة من أثر الطباشير على يديها وتحت أظافرها، تصلّي العشاء أحيانًا لأنّها تخاف من الوحدة، وتحدّثه عن الأبراج الفلكيّة التي أصبحت مؤمنة بها فجأة، وتحدّثه عنها بعد أن تكون قد تعبت من قصّة أسديْ «قصر النيل»، وقصر الأميرة «نازلي» وشارع عماد الدين و«قهوة الخُرس». . . . تقول له:

ـ صوّرت لك بُرجك. . كلّ سنة وانتَ طيّب.

ـ بيقول إيه بُرجي؟ بحبّ أسمعه وانتِ بتقْرِيه.

ـ يقول إنّ جوبتر في برج الجدي هذا العام، جوبتر كوكب الحظّ المطلق. سنة استثنائيّة يا عزيزي الجدي، تمسك فيها التراب فيتحوّل إلى ذهب، تدعمك الكواكب مجتمعة. ولا تجد شهراً إلّا ويحمل لك الخيرات، وتنفتح أمامك آفاق جديدة ووعود كثيرة. سنة استثنائيّة تحصد فيها الشهرة والتعاطف وتقوّي جاذبيّتك التي تسيطر بها على القلوب.

يضحك مبتهجًا. يضحك حتى لا ترى ملامح وجهه.

ـ هل تصدّقين حقيقة؟

ـ أحيانًا أحتاج أن أصدّق.

ـ وأنت ماذا يقول برجك؟

ـ عزيزي السرطان أنتَ على سفر.

ـ أنتِ دائمًا على سفر!.. دائمًا ما تحملين حقيبتك على قلبك، حتى وأنت جالسة، كأنّك على موعد. أنتِ كلّك قلق، ولا تجلسين في مكان واحد أكثر من عدّة دقائق.. تعرفين أنّ «يحيى» لم يسافر أبدًا. والمرّة الوحيدة التي سافر فيها إلى الإسكندريّة حصلت الحادثة ومات.

ـ يمكن.. مَن يحيى؟

ـ يحيى صاحبي.. لو كان رآكِ كان أحبّكِ.

ـ يمكن..

ـ ويمكن ساعتها كنتِ بقيتِ هنا للأبد، ولم تفكّري في السفر.

ـ يمكن.

يسحبان من أنفاس النارجيلة كلّما انقطع الكلام بينهما، وأصبح ضباب الدخان يخفي بارتياح تلك التعاسة المشتركة. تحمل حقيبتها المليئة بالأوراق والطباشير والتعاسة، وتمضي. تتذكّر هند كيف أنّها لم تكن لديها حقيبة طوال عمرها، ولم يعرف بيتهم معنى الحقائب. عرف الصناديق الخشبيّة الضخمة التي يستخدمونها في تخزين الحبوب، وهي ما تبقّى من قوافل سمعت بها. كانت أمّها تقول بفخر «في صندوق الصابون النابلسي» أو «فوق صندوق العنبيّة». الصناديق هرمت، صارت تسرح من تحتها الفئران بمرح، واكتسبت من سوء المعاملة قدرًا من الدهون والروائح المتغيّرة.

لم يكن لأمّها أيضًا حقيبة. لم تعرف كيف جاءت من بيت أبيها إلى بيت زوجها، بلا حقائب. كانت تبدو كأنّها لم تكن في مكان قبل ذلك قطّ، حتى في اللحظات التي غضبت فيها الأمّ ولبست ثوبها الأسود استعدادًا للخروج، لم تكن تفكّر أن تأخذ

معها شيئًا قطّ، تجفّف دموعها في المنديل الذي تحمله في يدها، بينما يلتصق أكبر عدد من الأطفال في طرف ثوبها «ماما خذيني معاكِ». لا تأخذ أمّها أحدًا، لأنّها بعد نوبة البكاء لا تغادر بيتها أبدًا. تغلق عليها باب الغرفة، وتسمع هند صوت نحيب أمّها، فتدرك أنّ أحلامها في الذهاب مع الأمّ الغاضبة قد تحطّمت تمامًا.

أبوها كانت لديه حقيبة يد واحدة، صغيرة. يحملها في يده ليسير بها دون أن تشي بأيّة رغبة في التنقّل. لم يفكّر قطّ في مغادرة تلك القرى الصغيرة التي يعرفها وتعرفه. حقيبته مليئة بالأوراق التي يقول إنّها قضايا وعقود، ومشكلات ناس في رقبته، وإنّه لذلك لا يغفل عنها. يظلّ يراجعها ليثبت أهمِّيَّته، وأنّه ما زال يحمل شهادة عليا في القانون، على الرّغم من أنّه لا يحبّ القضايا والمحاكم، وكلّ شيء يمكن أن يُحلّ بالتراضي. لم يكن يحبّ أن يترك بيته. والمرّات التي سافرت فيها معه كانت قليلة، تعبر السيّارة الكاديلاك البيضاء أرضًا طينيّة، كانت تُسمّى آبار فرعون، ثم تعبر بعد ذلك تلال الرعيان حيث تنتصب خيام من الخيش على حافّة مستنقع ماء آسن، وتجمّعات للغجر والبدو الرُحّل. ثم يمرّون على إقطاع البدوان، حيث يمتدّ سهل رملي بلا نهاية يفضي إلى عزب وقرى صغيرة ضائعة، يعبرون «عزبة الستّ» و«عزبة الفريديّة» و«عزبة التلّ»، ثم «عزبة المدرسة».. ويظلّ الشريط الأخضر يفضي إلى أرض لا يعرفون أصحابها، حتى يصل بهم الطريق إلى

أبواب المدينة البعيدة التي يسمّونها «مصر» اختصارًا لكلّ شيء.
يدخلون المدينة من جهة الشرق حيث يقع حيّ «مصر الجديدة»، وحيث تقع معظم بيوت أعمام أو أخوال زارتهم في مناسبات بعيدة ولم تعد تتذكّرهم. العربة تعرف طريقها إلى عدّة محطّات قليلة «جاتينيو»، «عمر أفندي»، «عمارة الأطبّاء» حيث يتمّ التردّد على بعض المعامل الطبّيّة وبعض الأطبّاء الذين يتمّ التفاخر بأسمائهم. انتظار نتائج التحاليل أو موعد زيارة الطبيب، يكون دائمًا في «جروبي» ميدان طلعت حرب؛ حيث يحتسي أبوها قهوته وتنتهي أمّها من التطلّع إلى الفترينات الزجاجيّة بشارع «قصر النيل». يسير الأب شارحًا ومعلّقًا على بعض أسماء الشوارع التي ما زال يتوه فيها. لكنّه يبدو مشغولاً طوال الوقت بفحص أسمائها، خصوصًا ما سُمّي منها على اسم أحد الزعماء الوطنيّين. يقف أمام «شارع محمّد محمود باشا» رئيس حزب الأحرار الدستوريّين ويقول: «كان رجلاً عظيمًا». تهزّ الأمّ رأسها وهي تحاول حفظ توازنها في الحذاء ذي الكعب المدبّب وتسير خلفه فيكمل: «وهذا يا ستّي «شارع شريف باشا» أوّل من وضع الدستور في مصر، وألغى تجارة الرقيق..». تتنهّد أمّها لأنّها مشغولة بأشياء أهمّ من تاريخ الليبراليّة المصريّة، كمواعيد الأطبّاء والتحاليل وفترينات الشراء. تضمّ الأمّ يدها بقوّة حول معصم هند كي لا تضيع منها في الميادين التي صارت مزدحمة وخطرة، ومليئة بالباعة الجائلين. يتعثّرون، هم الثلاثة، في الشوارع التي يفضي بعضها إلى بعض

ويضيقون بأكداس البشر. تقسم الأمّ أنّ «مصر» ليس بها صنف الحلاوة، وأنّ العيش فيها شقاء محض رحمهم الله منه.

يعودون على عجل كما جاؤوا، لأنّ الليل يحطّ بسرعة، واليوم يضيع في غمضة عين. تحملها أمّها على ساقيها الممتلئتين في الشرّاب الأسود المخمليّ، والبالطو الأزرق المبطّن بالستان، والفستان المحلّى بوردات كبيرة. دائمًا ما يعودون في الليلة نفسها، لأنّ أباها لا يرتاح إلّا في بيته، ولأنّ أمّها قد تركت نصف دزّينة من الأولاد الصغار خلفها، ولأنّ سِياقة السيّارات في الليل أفضل من النهار. في الليل تتفقّد السماء ويصبح طموحها في الهروب أكثر وضوحًا «بابا أنا أريد أن أصبح مضيفة طيران».

يردّ ضاحكًا: «فشَر.. أنا بنتي تخدّم على الناس!». لا تعرف ماذا يعني بقوله «تخدّم على الناس». تعرف أنّ الطائرة تطير، وأنّها ستصبح فقط مضيفة أنيقة وتتنقّل حرّة؛ بحقيبة تجرّها، وأحلام كثيرة خلفها.

تصمت قليلاً، ثم تقطع الصمت: «بابا أنا نفسي أطلع عالمة فضاء». تردّ عليها أمّها تلك المرّة.. «أنت كدا دايمًا.. عايزة تطيري». يدخل الهواء البارد من النافذة، تنعس في الطريق فلا تستطيع أن ترى العِزب الصغيرة التي يلفّها الليل بالصمت. تتذكّر هند أنّ المرّة الوحيدة التي سافر فيها الأب كانت إلى الحجّ. عاد أسرع من الحجّاج الذين أحبّوا البلاد الشريفة، وبرّر ذلك قائلاً:

«بلاد لا يتعاش فيها، ولا تتسكن. هو النبي هاجر من شويه؟».
وعلى الرّغم من أنّ الأمّ ظلّت ترى ذلك تعبيرًا عن تقاعسه الأبدي في البحث عن رزق في بلاد صار الناس يتسابقون على حسناتها، وأنّها وضعت أصابعها في الشقّ من تصرّفاته الغريبة، ولزقته في جلسة المضايف، وحلّ المشاكل التي لا دخل له بها، وأنّه لن يصلح الكون، فقط يبدّد نقوده، ويبدّد رزقها ورزق أولادها. لم يكن يسمع كلّ ذلك؛ لأنّها تخاف من أن تقول له ما في قلبها. كانت تتنهّد وتسحّ دموعها وهي تراه جالسًا أعلى الربوة على المصطبة الطينيّة، يوقد النار أمام المضيفة كلّ مساء، ويعزم على العابر والسائر في الطريق «اتفضّل.. اتفضل والله.. اشرب شاي».

حتى بعد أن حمل كلّ أصحابه حقائبهم، ومضوا يبحثون في حقول النفط عن وظيفة، كانت أمّها تحلم بأن تجد من يقنعه بذلك، بينما كانت تسمعه يجلس في المضيفة مع صديقه الدكتور شامل الصيدلي الذي قرّر أن يهاجر إلى ليبيا، وهو يقول له: «لا يا شامل هو أنا جعان ولا مش لاقي آكل.. عقد إيه وبتاع إيه.. هو أنا مش لاقي بيت، وأرض أبويا من السبخ لأرض الهيش،.. إنتَ روح على بركة الله، الله يسهّل لك.. لكن أنا لا..».

سافر الكثيرون حوله، وبقي الأب يقلّب النار في المضيفة، وهي تجلس بجانبه تقول له: «بابا أنا نفسي أسافر»، يقول لها إنّ

الحياة سفر كبير، وإنّك ستسافرين كثيرًا وستتعبين من السفر، وسيكون بابا قد صار كهلاً ووحيدًا ولا أحد يريد أن يجلس معه، وإنّها حينما تقترب منه لن يراها لأنّه لم يعد يبصر، بل سيشمّ رائحة ابنته، حبيبته من بعيد، وإنّ ذلك سيعيد له بصره، كما عاد البصر لسيّدنا يعقوب.. وساعتها ستصبح هي عصاته التي يتوكّأ عليها في الكبر، وسيأخذها من يدها ويسيران معًا من العلواية حتى أرض الغجر. تضحك، فيحكي لها قصّة سيّدنا يوسف.

تراقب هند بيتهم فتراه قديمًا لأنّ البيوت حوله صارت من الحجر الأحمر الجديد المحروق في القمائن، ومنخفضًا لأنّ البنايات متعدّدة الطوابق ملأت فضاء الأرض السبخة، ومهملاً لأنّ سقفه الخشبي القديم لم يعد يقاوم نقع الماء الذي يتساقط في أيّام البرد القارس والمطر، تجري أمّها لتضع صينيّة القلل أسفل خُرم السقف في غرفة الجلوس، وتضع بعض الأواني النحاسيّة تحت عدّة ثقوب أخرى. كانت تستطيع أن تسمع قطرات الماء في حركتها الليليّة، في سقوطها المتواتر، محدثة إيقاعًا من البرد المنتظم الذي لا تدفّئه راكيّة النار في غرفة واحدة مكتظّة بالأطفال الناعسين. يدخل أبوها ليلاً، فتسمع حركته البطيئة باتّجاه الخروج من الباب، يمرّ أحيانًا ليتفقّد نعاس أطفاله في أغطية صارت شاحبة وبالية، ويتنهّد وهو يفرك أصابعه من القلق. في الصباح يجلس وسط بيته الذي امتلأ بالصبيان والبنات، يتقافزون حوله وهو يؤكّد لنفسه صحّة قراراته «حدّ يترك هذه النعمة من أجل حبّة فلوس؟».

النعمة التي يتحدّث عنها صارت كائنات تكبر، وتصبح أكثر تطلّبًا واحتياجًا. صمّم الأب عدّة لافتات من القماش ووزّعها وسط قرى أكثر تطرّفًا تؤكّد قدراته أمام محكم النقض والاستئناف العالي، وأطلق على المضيفة اسم المكتب، لكنّه لم يسافر، حتى بعد أن صارت البلدة كلّها على سفر، وتناثر الناس الذين يعرفهم، بعضهم في العراق وبعضهم في الخليج، وتطوّحت على حبال الغسيل فوق البيوت ألوان البطّانيّات المورقة التي تأتي من الخارج.. ناعمة وممتلئة بالدفء والرخاء. نشر البطّانيّة عادة ما يترافق مع ستريو من ليبيا وتليفزيون من بورسعيد. لكنّه كان يبتسم لمشاهد التغيّر في حركة الحقائب التي تروح وتجيء من أماكن بعيدة. يدخل إلى حجرته بعد أن يقول: «اللّي تأتي به ريح الشام تأخذه ريح اليمن».

ربّما كان يوجّه تلك الجملة إلى الأمّ التي صارت تراقب بقلق أوضاع السقف والأغطية البالية، والملابس التي تُعيد إصلاحها مرّة بعد مرّة، لتناسب الأولاد الذين يكبرون فجأة. كانت بدورها تهزّ رأسها، ولا تعلّق. ويضع الأسطوانة الموسيقيّة لمطربة اسمها «ماريّا كالاس» في الصندوق الذي لا يفهمه أحد، ويخرج كتابه الضخم ويقرأ «الليبراليّة والحداثة المصريّة»، يدخّن سجائره حريصًا على أن يظلّ كلّ شيء كما تخيّله، مستقرًّا وراقيًا وهادئًا، لأحلامه التي تكبر في هيئة أطفال يكبرون أمام عينه، ولم يبدُ نادمًا حتى بعد أن صارت كلّ البيوت التي تمرّ عليها حقائب ضخمة

مكتّفة بالحبال، ومكتوب على إحداها بالخطوط الطوليّة «ملك السيّد أبو إبراهيم الساكن في الحوض الغربي بالمنشاة»، وعلى أخرى «من أولاد عنتر إلى الوالدة الساكنة في العزبة البيضاء»..

ومع حركة تنقّلات الحقائب تغيّرت حركة الحياة، فلم تعد فاطمة القروميّة تحمل في يدها تلك البقجة القماش التي تجمع فيها قطع الملابس النسائيّة الصغيرة التي تضعها بعناية، وتبيعها بسرّيّة تامّة. صارت تسير في الشارع حاملة حقيبة من الجلد فوق رأسها، وتفتحها على ناصية الشارع وهي تنادي: ستان بور سعيد، نايلون وحرير مستورد،.. يا لباس الصبايا يا أحمر، عبايات من الحجاز، ومسك الرسول. وبينما صار الشارع المواجه لبيتهم مشغولاً بحركة البيع والشراء، كانت أمّها في الداخل أكثر انشغالاً بتوسيع وتضييق وتوفيق قطع الملابس لتصلح للاستعمال من أخ لآخر. وبالطبع لم تستطع هند أن تعبّر عن رغبتها الدفينة في امتلاك حقيبة سفر حمراء صغيرة وأنيقة، لتسافر بها حين يكون السفر ممكنًا. ولذلك فقط سطت على حقيبة يد نسائيّة بيضاء كانت في دولاب أمّها، أعطتها لها والدتها لأنّها لن تخرج، ولن تحتاجها، ولم تعد تستطيع الانتفاع بها.

كانت الحقيبة بيضاء وحادّة الزوايا، مثل تلك الحقائب التي تحملها البطلات في الأفلام. وضعت هند فيها مشطًا ومرآة، وقصاصات صغيرة كتبت فيها خطابات ممهورة بتوقيعاتها لنفسها

في الغالب، لتواكب حركة البلدة التي كان كلّ أهلها مشغولين بالخطابات في تلك الأيّام. ومع ازدهار حركة السفر وانشغال الناس بالعناوين والرسائل ظلّت خطاباتها في حقيبتها باردة، ولا معنى لها.

تحبّ هند أن تحكي عن أبيها لصديقها المولود في برج الجدي، لأنّه صار أقرب أصدقائها، ولأنّه صار يذكّرها بأبيها، إذا خرجت أنفاس الدخان من فمه بقلق. يذكّرها بالحصيرة السَّمار وقصّة سيّدنا يوسف، ودفء أن تجد أحدًا يسمعك ويصدّقك.. ربّما لأنّه يحبّ الحكي مثله، تحبّ أن تسير بجانبه كما كانت تسير بجانب أبيها. ربّما لأنّها تعوّدت أن تسمعه ولا تملّ من تكرار الحكاية، مرّة بعد مرّة، بالرتابة نفسها والحماسة نفسها، ولأنّها تقابله بلا موعد ولا مناسبة، ولا تتحسّس الكلمات قبل أن تقولها له، ولا تخجل من علامات الإرهاق على وجهها، ولا على إحساسها المجهد بأنّ الحياة صارت كئيبة، وأنّه يجعلها تشعر أنّه خُلق ليجعلها تشعر ببعض السعادة، وكرّس حياته كي يسير بجوارها وخلفها في أروقة القاهرة مثلما كان يفعل الأب. تسير بجانبه وهو يشير إلى الشوارع والأزقّة شارحًا أو معلّقًا: «هذا «كلوب محمّد علي» وهذا مبنى «الأوبرا» القديمة، ده يا ستّي «شارع الجبلاية». لكن يبدو أنّه بلا حبِّيَبَة. لم يعد هناك حبِّيبة في مصر». يقول لها إنّه سكن شارع المهندسين مع صديقه «يحيى». لم تكن في الشارع أيّة حياة، كانت به فقط عدّة مبان لشركة عثمان

بجوار إمبابة والكيت كات، ويحيى كان يحبّ «بار ستيلا»، لكنّ ستيلا كان «زمان» شيئًا آخر، وكثيرًا ما جلس معه على زهرة البستان أيضًا، زهرة البستان كانت شيئًا آخر. كلّ مرّة سيؤكّد لها أنّه في المرّة الأولى التي رآها ذكّرته بيحيى لأنّ لعينيها هذا الألق والجنون، وكأنّها مأخوذة بعالم آخر، ثم يؤكّد لها أنّ هذا الشرود يكون لغريبي الأطوار والحالمين، مثل يحيى، وكانت تصدّقه لأنها كانت تبحث عمّن يصدّق أنّ لديها وجودًا حقيقيًّا. كان يذكّرها أيضًا بطفلها لأنّه يسير وراءها أينما ذهبت، ويتعلّق بكلّ ما تقول، ويحبّ وجودها في الحياة لأنّ ذلك مبهج وكاف له بلا أسباب.

«لو يحيى كان رآكِ، كان أحبّك.. وربّما كنتِ أصبحتِ أسعد».

تدرك أنّه يفهم أنّها تعسة لهذا الحدّ. تعتبر عبارته عزاء وتفهّمًا مشتركًا. وأحيانًا تجدها قاسية وتعني أنّ أملها في السعادة ووجود من يحبّها قد صار أملاً بعيدًا نائيًا، معلّقًا برجل ميّت لم تعرفه أبدًا. تفسّر سوء حظّها بطبيعة برجها الفلكي، تقول لنفسها: «يحدث أن تولد في ليلة من ليالي الصيف، فتصبح أسيرًا لبرجك المترقّب الخائف، وتسير دائمًا عكس الاتّجاه الذي تودّ، وتدّعي القوّة، وأنت تخاف حدّ الموت، وتشتهي الأشياء لكنّك لن تسير أبدًا باتّجاهها، بل لا تعرف كيف تقول الحقيقة لأنّ الحقائق عندك مملوءة بالوهم. يحدث أن يكون طالعك القمر المتردّد الغائب،

المتلوّن كلّ يوم بدرجة من درجات عبوره لخطوط الطول والعرض في القبّة السماويّة، وأن تكون مزاجيًا قاتمًا، تتحوّل مثل حرباء.. تبكي وتضحك في الوقت نفسه، وتكره وتحبّ في الوقت نفسه أيضًا. يحدث أن تكون هناك امرأة مثلها بصدر ينزّ لبنًا لأنّ خلايا مخّها لم تعط إشارات كافية للغدّة اللبنيّة بالتوقّف، ولذلك، وبعد أن تغادرها آلام الطمث والحبل والولادة، يظلّ تشكُّل من كتل لبنيّة عالقًا بشحم صدرها الذي لم يترهّل بعد، ومحدّدًا بؤرة من الوجع. حيث تعتقد أنّ برجها الذي يتّخذ من الصدر موقعًا له يحدّد مصيرها، وربّما الخلايا التي تتحوّل بالتوالد تصبح أورامًا صغيرة فيه؛ فتموت فجأة كأمّها.

وتحبّ أن تفسّر حياتها بهذه الطريقة لتجد لها معنى، فكلّ ما حدث وسيحدث هو دورة فلكيّة مكتوبة على الجبين. وصار يتملّكها هذا اليقين القاسي بأنّ كلّ الأشياء قَدر ونصيب، وليس لنا في أنفسنا شيء، تمامًا مثلما كانت أمّها تقول بتسليم تامّ: «كلّ شيء مقدّر ومكتوب».

تتخيّل هند «أمّها» كما كانت في صورة العرس، جميلة وصغيرة. حملوها ذات مساء بعد أن حطّ الليل على تلك الأرض الخضراء، عبرت بها تلك العربة الكاديلاك القديمة عدّة صحراوات هادئة، وبعض القرى الفقيرة المستكينة. ربّما كان صوت نقيق الضفادع في المساقي عاليًا، إذا كان الوقت صيفًا.

توقّفت العربة على الممشى الطويل بعد أن علّقوا عدّة كلوبات أو فوانيس، أثار ضوؤها طنينًا طبيعيًّا مباغتًا للبعوض. حينها نزلت تلك المرأة التي ستصير أمّها؛ لتستكشف هذا البناء القديم الذي أصبح بيتها. في الصباح ستتفقّد أثوابها الجديدة المعلّقة في الدواليب، مرتدية الثوب الوردي الذي يكشف امتلاء صدرها وذراعيها، متحلّية بما كانت تعتبره دومًا دليل أناقتها الأرستقراطيّة.. كوليه من الألماس الحرّ، وعدّة أساور على هيئة ثعابين. سوف تضطرّ بعد عدّة سنوات إلى بيع هذا كلّه لتعيش مستورة فقط.

البيت القديم المسقوف بالخشب ليس مبهجًا كما تخيّلت، حتى بعد أن نصبت ستائرها الملوّنة على النوافذ، وعلّقت عدّة تابلوهات متفرّقة لتكمل المشهد. علّقت حوريّة مستلقية عارية فوق الحائط، أعلى الفراش مباشرة، حيث تنعس الوسائد المبلّلة بالدموع. ثم تعلّق «تابلوه» من الكانفاه، عبارة عن صورة لطبق فاكهة تتدلّى منه عناقيد العنب في خلفيّة الطاولة الضخمة، و«تابلوه» آخر لطفل دامع وضعته في غرفة الأطفال المنتظَرين.

رشّت الكحك بالسكّر، وفاحت رائحة شجرة مانجو من خلف التراس، وأعدّت مقاعد من الخيزران؛ ليصبح البيت لائقًا بها. رشّت «الجدّة زينب» لها رشوش العرس، ودارت النميمة بين بعض الزوّار، حول شعرها الذي صفّته في بوكلات على هيئة

خواتم مستديرة. تتخيّل هند أنّ أمّها كانت في البداية سعيدة، لأنّ بإمكانها أن تفتح المذياع، وأن تتركه يصدح بتلك الأغاني التي كان محرّمًا عليها سماعها، «بلاش تبوسني في عنيّا دي البوسة في العين تفرَّق».

لم يكن بيت أسرتها بعيدًا، لكنّ زيارة الزوجة لأهلها غير مستحبّة، خصوصًا في السنوات الأولى للزواج، وتكون دليلاً على الرعونة والطيش الذي يخرّب البيوت. لم يكن لدى أمّ هند تلك الطفولة التي تتذكّرها بمحبّة. تزوّج أبوها الذي كان شيخ عرب أيضًا، ثلاث زوجات وأنجب كثيرًا من الصبيان والبنات في فترات زمنيّة متقاربة. يحرص على أن يُلحق بناته بمدارس الراهبات لبضع سنوات، كما جرت عادة بعض الأسر الكبيرة في الريف، لتعليمهنّ الطاعة وبعض النصائح الخاصّة بالحياة الزوجيّة. تميّز أمّها عددًا من صويحباتها في صورة قديمة، قائلة: «دي بنت عمدة كفر الزيّات، ودي بنت شيخ مشايخ العرب الهنادي عبد الحميد بك سلطان، ودي بنت العمدة لملوم الباسل إبن عمّ أبويا». . لم يبق من تفاصيل المدرسة سوى بعض الجمل الفرنسيّة الغامضة «كومون سافا، تري بيان، بون»، لا تحتاجها أمّها إلّا في ظروف طارئة، كالحديث مع الأطبّاء إذا كان عليها أن تومئ إلى أنّها متعلّمة، أو مع بعض الضيوف الغامضين. وللوهلة الأولى إذا أرادت أن تترك انطباعًا بالأرستقراطيّة والرقيّ، كانت تحتاج أكثر إلى قصاصات التدبير المنزلي التي دوّنتها في رزنامة صنع المربّى وحفظ

المأكولات، وإعداد طواجن الترولي، وأصابع الستّ، وحلوى اللارنج. تلك المهارات ستصبح بمرور الوقت مدعاة للسخرية، حين تصبح المهارة الوحيدة المطلوبة هي إطعام سبعة أفواه بما تتحمّله ميزانيّة بيت.

بعد عدّة سنوات من المدارس عديمة الفائدة كما يرى الجدّ، تتفرّغ البنات لمزيد من حصص التدبير المنزلي على يد «مدام تريزة الخيّاطة» التي فصّلت لها ولغيرها فساتين العرس والصباحيّة والحمل. تحمل في جيبها تلك القصاقيص من أقمشة متعدّدة، وهنّ يتحلّقن حولها لمراقبة مقصّها لتعمله في الدوبل كلوش والكوروازيه. تتكدّس الأثواب إلى جانب قطع الصابون والعطور ومفارش مخمليّة، في صناديق يحملونها مع بعض الزغاريد والذبائح، وبعض العلب الورقيّة من «جاتينيو» أو «شيكوريل» و«صيدناوي»، محمّلة بأطقم من الصيني والنحاس. يحاول الجدّ جاهدًا أن يساوي بين الأخوات الخارجات من داره إلى مصيرهنّ المحتوم، مؤكّدًا أنّ «خلفة البنات مظلَمة. . تسوِّد الوجه وتخرب الجيب».

عندما حان دور الأمّ في الاستعداد للخروج الكبير من بيت أبيها إلى بيت زوجها، كانت أكثر أرقًا وتحفّزًا من الأخريات. كان ابن العمّ الذي حظيت به زوجًا حليقًا ووسيمًا، بقميص أبيض ناصع. وقد نقلت إليها إحدى الخادمات أنّه يشبه «يوسف بيه

وهبي»، كما أنّه يدرس الحقوق بجامعة الإسكندريّة. وذلك يعني مزيدًا من التعليمات المنزليّة الخاصّة برتق الجوارب وسكب النشا على الياقات البيضاء، وكيّ المناديل وتعطيرها، كما ركّزت جهودها في تطريز الأرواب المنزليّة؛ لتصبح لائقة بحياة مختلفة.

ملأ البيتَ صراخُ القادم الأوّل، توالى المخاض من بطن إلى آخر. يربّت الجدّ على ظهر الأحفاد مبتهجًا منتفخًا بهذا الزهو، يدسّ بين يديها «نقوط» الوليد، ويذبح الذبائح، ثم يعود راجعًا. بعد خمسة بطون تأتي هند إلى الوجود على هيئة سرطان أحمر قانٍ، معذَّب ببرجه وطوالعه الفلكيّة. يبتسم الأب، وتقول الأمّ من باب الاعتذار: «البنت حبيبة». ولا يأتي الجدّ ولا تُذبح الذبائح. جاءت هند بعدما صارت الأمّ أكثر نحولاً وتعبًا وأرقًا من رعاية الصبيان، وضجّة البكاء واللعب. وبعد هند صار من الصعب أن تكرّر الأمّ حمل الإناث أو الذكور. صار وجهها متعبًا كأنّها عائدة دائمًا من رحلة شاقّة. كلّما نضجت حبّات المانجو صيفًا سحبت أمّها أطفالها الستّة، واستقلّت عربة قديمة من طراز كاديلاك، وخرجت في رحلة «الشتاء والصيف» كما يسمّيها الأب ساخرًا. تركب الأمّ إلى جانبه. وهند في المقعد الخلفي حالمة ببلاد الله التي تشيل وتحطّ، كما في الحواديت التي تسمعها؛ فترى في أحلامها مدنًا غائمة بعيدة، ذات قباب نحاسيّة. تنتظر هند كلّ عام تلك اللحظة التي تعطّر فيها أمّها ملابسها، وتنفض الغبار عن ثوبها الأسود الذي تخرج به من البيت، وترصّ مربّى النارنج، وقطع

البسكويت بالنشادر، وتطحن البنّ، وتفوح رائحة المطبخ بالقدور المغلقة.

تتعلّق هند بثياب أمّها «أروح معاكِ». بيت الجدّ ليس بعيدًا. بينهما وبينه عدّة أحواش من الخلاء، وبعض إقطاعات من الأرض المزروعة والأرض البائرة. تتأرجح العربة خائضة في الطين الأسود، وتعبر بوّابة بيت الجدّ التي تُفتح بحذر، يستقبلهم البلكون الغارق في سواد الليل، مبتهجًا بألوان البُسُط المفروشة استعدادًا للضيوف. كانت هذه الرحلة هي كلّ ما عرفته أمّها في حياتها من أسفار.. تبتسم أمّها ببهجة وهي تطلّ على لمبات الكيروسين المعلّقة في حدائق البرتقال، ثم تندسّ بين الأخوات اللاتي جئن من بيوت الأزواج، يلتصقن في ثرثرة طويلة، تفتح هند أذنها لتلتقطها. يخرج الجدّ من غرفته فتستقبل يده قبلات خجلة مرتبكة، يلتصق الأطفال في أثواب الأمّهات حتى يميّز الجدّ إلى من يُنسب هذا الولد أو ذاك، لا ترى يده تمسح على شعر حفيد، أو تربّت على هامةٍ ضائعةٍ، تائهة وسط الكائنات الصغيرة التي تركض في البيت، فقط يمدّ يده حتى يتمكّن البعض من تقبيلها، أثناء مروره العابر. رحلة الصيف لها رائحة المانجو، وأزيز البعوض، وقهقهة الضفادع الفرحة بالماء الآسن.

رحلة الشتاء أقصر قليلاً، باب مغلق على راكيّة النار وبخور مكّي، وحركة بطيئة ناعسة كسول بين الحجرات، وألعاب أكثر

استسلامًا لغفوة ليل ثقيل، وأكفّ تتلمّس دفء النار وتتقلّص في الجحور. تصبح الحواديت أكثر عذوبة، والبنت التي تفتح أذنيها للبلاد التي تشيل وتحطّ، تهيم في أحلامها العصيّة.. حالمة بعربة كاديلاك قديمة تفتح نوافذها لتدخل نسمة الهواء، وتحلم أن تسير في بلاد لا تعرفها، وشوارع لا منتهية، تعبر قرًى وأبراج حمام، وبيوتًا طينيّة، تعبر خيام البدوان وتلال فرعون عربة لا يتوقّف صرير عجلاتها حتى تنام.

تنام وتصحو على طولها الذي ازداد عدّة سنتيمترات، ووجهها الذي اكتسب بعض الاستدارة؛ فتشدّها الأمّ من ثنايا الثوب الأسود، وتدفع بها بعيدًا عن طريقها. تبكي هند لأنّها كبرت فجأة، ولم يعد يصحّ أن تركض وراء أولاد الخالات، ولا أن تتسلّق أشجار المانجو وساقاها مكشوفتان، كما أنّ صوتها العالي، وهي تصرخ من شهقة الإمساك بها في ألعاب الاختباء، صار عيبًا وفضيحة، وعليها من الآن أن تجلس بجوار «الضيفة»، تمزّ في قطع القطن، وتفتل حبالاً للمبات الكيروسين، حبالاً طويلة تعلّق عليها مشتهياتها عن بلاد تشيل، وبلاد تحطّ.. لحدّ ما وصل «الزناتي خليفة» وأحبّ «الجازيّة الشريفة» في تونس الخضراء.. تختلط البلدان بالبلدان، ويصبح الشتاء والصيف كلاهما حلقةً مفرغة من التشهّي والقلق.

بعد عدة سنوات ستصبح الأمّ منهكة، والخالات أكثر انشغالاً

بما في بيوتهنّ، ولم يعد لائقًا بأمّها التي كبرت أيضًا أن تسحب عيالها «رايحة جايّة» كلّ سنة! والمرأة ليس لها إلّا بيت زوجها بعد وقبل كلّ شيء، كما يقولون. تجلس الأمّ في البلكونة الغربي تراقب الفضاء، بينما تسير هند متعثّرة على طريق ترابيّ ما، على جنبات الطريق انتصبت أعشاش الغجر. صارت كلّما غضبت، تقول لأمّها: «ح امشي.. حسيبكم وامشي».. تبكي وتنام على القشّ المبلّل الذي انتشرت عليه ملابس بنات الغجر الزاهية، في الأعشاش القريبة. تنام على منظر سماء مبهجة، من الألوان. هناك لعبت مع بنات الغجر «بيت بيوتة»، وضحكت كما لم تضحك في حياتها، وتدحرجت على القشّ، كان ذلك قبل أن تتلقّفها سواعد ثلاثة من إخوتها الذين كلّوا من البحث عنها في الطرقات. وقفت أمام أمّها التي انقضّت فوقها، وقرصتها في فخذها. تركت القرصة، لمدّة طويلة، علامة قانية لتذكّرها بما قالته لها أمّها: «أنا ما عنديش بنات يغضبوا ويسيبوا بيت أبوهم». ومع ذلك ظلّت تغضب في الليل والنهار، وتهدّد فقط بالهرب، تضع ملابسها في بقجة كبنات الغجر، تضمّها في حضنها، وتنام عليها دامعة وتقول: «أنا همشي.. البيت ده مش بيتي، ولا حدّ فيه بيحبّني». تضحك أمّها وتقول عليها «قمّاصة»، تغضب بلا سبب، «طول النهار بتقلّد بنات الغجر والشغّالين. كلّ ما حدّ يكلّمها تلمّ هدومها وتحرن كده».

لم يكن لديهم «شغّالين» في الحقيقة، كانت لديهم فتاة قرويّة

صغيرة ونحيلة، ولا تتذكّر من ملامح وجهها سوى أذنيها؛ فقد كانت ترهقهما بحلق فضّي ثقيل يشرمهما يومًا بعد يوم. كانت مثلها تحمل بقجة من الملابس وتغضب، ويعرف الجميع أنّها لن تمشي، فليس لها مكان آخر تذهب إليه. وكانوا دائمًا ما يشفقون عليها في النهاية، ويقولون: «حرام. يتيمة ومالهاش حدّ». صارت هند تفعل مثلها أحيانًا، فتختبئ تحت فراشها ليبحثوا عنها، ويصبح لوجودها معنى. لكنّهم نسُوا ذلك.

بعد عدّة سنوات حملت الخادمة الصغيرة صرّة ملابسها، وتناقل الناس أخبار فاطمة القروميّة التي ترسل الخادمات إلى بلاد بعيدة وسعيدة، وأصبح وجود العاملات في البيوت عملة نادرة. بعد أن يعُدن بالحقائب الجلديّة المليئة بالمسابح والعبايات الحرير، وقِطع الذهب الحرّ، ولا يعملن عند أحد، لكنّ كثيرات منهنّ لم يعدن أبدًا. في المرة الثانية التي تركت فيها بيت أبيها غاضبة وجلست تحت التوتة خلف البيت، قرصتها أمّها للمرّة الثانية في فخذها، وقالت لها: «أنا ما عنديش بنات يتركوا بيوت أهاليهم. . تزعلي وتغضبي وتنفلق راسك، ولمّا تخلّصي زعل تغسلي وشّك، وتقولي: نعم يا ماما، حاضر يا ماما». صارت بمرور الزمن أكثر طواعيّة، أكثر بؤسًا. صارت كلّ حياتها أن تجلس في طرف الغرفة، وتبكي، وتنام وهي تحلم ببلاد الله البعيدة التي لا يعرفها فيها أحد.

ذات مساء قاحل في قرية صغيرة من أقاصي الدلتا المتطرّفة، كانت الضفادع مبتهجة بليلها الصيفي الطويل، تتكاثر في أحواض الماء الراكد، وثمّة بُرَيْصة حمراء تتحرّك على حائط بيت قديم، نوافذه المفتوحة يدخل منها وإليها البعوض. على الحائط تسند الأمّ ظهرها المثقل بالولادات، فيما تمدّ البريصة الحمراء لسانها لتلتقطه في تلك اللحظة الممتلئة بلزوجة الصيف وأرق امرأة وحيدة، ستتأكّد هند من أنّ ما تتصوّره أمّها عن الزواج والحياة كان مثيرًا للشفقة. تحبّ أن تحكي لصديقها الجدي عن أمّها، عن رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وتعرف أنّه يحبّ أن يسمعها وأن يراقب وجهها وهي تحكي بمحبّة، وأنّه يشفق عليها حين تقول بسأم:

ـ عايزه أمشي بقى من هنا.

فيردّ عليها بهذا اليقين الذي تكرهه:

ـ يعني اللّي سافروا ارتاحوا؟

ـ يمكن يلاقوا بختهم في مكان آخر.

يهزّ رأسه وهو يكرّ شيشته. بصمت يخرج الدخان من أنفه؛ فتراقب قلقه الذي لا ترى له مبرّرًا. يقطع الصمت بالسؤال المتكرّر.

ـ هل كتبتِ شيئًا؟

تهزّ رأسها نافية ثم تقول:

ـ يبدو أنّني غير قادرة على الكتابة.

ـ اكتبي رحلة الشتاء والصيف.

تضحك، تحبّه لأنّه يصدّقها، لكنّها تجيبه دائمًا بهذه الكلمة:

ـ ليس الآن.

ـ أنتِ تذكّرينني بيحيى.

ـ من يحيى؟

ـ كان مثلك بحالات.. أنا فاكر لما كان بيحبّ نادية لطفي.

ـ كان عامل ازّاي؟

ـ زيّك بحالات.

ـ لكن أنا ما بحبّش نادية لطفي.

ـ لو كان رآكِ، كان أحبّك أكثر من نادية لطفي.

ـ ولو كان؟ ما الذي سيتغيّر..؟

ـ يمكن كنتِ وجدتِ ما تبحثين عنه،... ولم تسافري.

ـ أنا مش مسافرة. أنا أحاول. فقط أحاول.

ـ ويمكن كنتِ حبّيتيه.

ـ يمكن . .

ـ ويمكن كان اختار هو أن يبقى، وأن يؤجّل موته قليلاً.

ـ . . .

تتركه لتهرب؛ لأنّها تودّ أن تسافر. وأنّها لا تريد أن يذكّرها أحد بممكنات لم تجدها في الحياة. . تتركه وتسافر؛ لأنّها لا تحبّ أن ترى تعلّقه بها. تتركه وتعبر نحو قارّة أخرى دون كلمة وداع. تريد أن تشعر بتعاسةِ أن تكون وحيدة ومهمَلة، وبلا قيمة. تترك خلفها عالمًا من المشاعر المضطربة. فما زال بلوتو في مقابلها، وجوبتر في مواجهتها في برج الجدي: برجه. لم تقل له إنّ برجَي السعد والنحس معًا في برجه، وإنّ كلًّا منهما يقف في مواجهة الآخر، وإنّ فلكيْهما سيظلّان متواجهين متوازيين إلى الأبد، وإنّها تعرف أنّه يحبّها.

يدخل بلوتو برج الجدي على مهل، يسكنه لمدّة ثلاثة وعشرين عامًا قادمة، يلفّ الوجود بخطواته الثقيلة، يدمّر عوالم ويُعيد بناءها. يلقّبونه بـ «كوكب النحس»؛ لأنّه يأتي دائمًا بمفاجآته، ثقيلاً بطيئًا مضنيًا كالألم. يقف بمواجهتها مهدّدًا بأخذ من تحبّ، وما اعتادت، وما بَنَته من أحلام. تنظر من خلال النافذة الزجاجيّة، وتراقب تقاطر مطر الغربة الثقيل من تلك البناية الصغيرة؛ تشعر بضربات قلبها أسرع، وتنتابها في الأحلام هواجس الفقد.

تراقب صغيرها ناعسًا باستسلام. تحتضنه وتقبّل يده، تشعر بهذا الثقل الضاغط على قلبها، وتخاف من تلك الانتفاضة السريعة التي تجعل تقلّصَات قلبها أعنف. تخاف أن يصحو في موعده، ويحرّك يده حول جسدها، ويقول لها: «ماما إنتِ رحتِ فين؟». وصارت تخاف أن تتركه كما تركتها أمّها فجأة. يومها حلمت في الليل أنّها تقبّلها، وفي الصباح وجه البنت صار دامعًا، وهي تهزّها بأسف: «ماما إنتِ رحت فين؟»، فتصبح ضربات قلبها أسرع، تترك ورقة صغيرة على الطاولة إلى جانبه مكتوب عليها: «ماما جايه على طول». وتكتب عليها عدّة أرقام تليفونيّة لأشخاص تعرفهم. وتهبط ذاهبة إلى المستشفى القريب.

تجلس منتظرة في صفّ طويل، تتحرّك بين آلات التنفّس وقياسات الضغط، وضربات القلب. تأمّلت الطرقات الطويلة المليئة بالأطبّاء. فتذكّرت الآلات المتشابهة وروائح الأدوية والأطعمة والملابس البيضاء، وحركة المشارط المعدنيّة في العربات الصغيرة التي صارت تثير فزعها منذ ذلك الحين.. حملوها على العربة الترولي التي يحملون عليها المرضى، شبه عارية، ومن جسدها تخرج تلك الأسلاك الدقيقة التي ترسم توتّر ضربات قلبها.. انكمشت هند، شعرت أنّها وحيدة وخائفة. دفعوا بجسدها إلى غرفة المراقبة، صدرها ما زال يوجعها، تندفع بها العربةُ وحيدةً في ممرّات المستشفى.

الستائر المسدلة بين الغرف، تسقط حولها.

تسألها الطبيبة:

ـ هل هناك تاريخ لأمراض القلب في الأسرة؟

تردّ باستسلام:

ـ نعم. مات والدي في الأربعين.

ـ هل تتذكّرين في أيّ شهر؟

ـ أعتقد أنّه أكتوبر أو نوفمبر.. كان خريفًا والمدارس على الأبواب.

ـ ماذا حدث؟

ـ كان يجلس في البلكون الشرقي يحكي لنا قصّة سيّدنا سليمان، ثم وضع يده على كتفه اليسرى، توقّف القلب فجأة.

ـ ليلاً؟

ـ نعم. في الثامنة مساء.

ـ والوالدة؟

ـ توفّيت أيضًا.. سرطان في الثدي، كان صدرها ينزّ لبنًا، أنا أيضًا صدري يوجعني ولا يكفّ عن فصد اللبن، وصرت أنسى، أنسى كثيرًا. هل هذا هو الخرف؟

ـ هل هناك ما يقلقك هذه الأيّام؟

ـ كان هناك ما يقلق دائمًا. لكن هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بهذا الخفقان، أشعر به في كتفي. أشعر أنّني صرت أنسى، وأنا لا أريد أن أنسى.. هل تعرفين «هيمنجواي»؟

ـ نعم.

ـ هيمنجواي كان أيضًا ينسى كثيرًا، وفقد القدرة على الكتابة.. وأنا أريد أن أكتب، هل سأصبح مثله؟

تضحك الطبيبة، تطلب منها أن ترتدي ملابسها، تقول لها:

ـ أعتقد أنّك قلقة فحسب. على أيّة حال سأفحص النتائج، ولو كان هناك ما يستدعي سنتّصل بك.

تحمل حبّات المهدّئ، وتخرج. تسير وحيدة في الشارع المظلم. ضربات قلبها لم تهدأ بعد، تفتح باب البيت لتجده ما زال ناعسًا في فراشه. تمزّق الورقة التي كتبت عليها «ماما جايه على طول»..

تحاول أن تنام، تحلم بأمّها تمسّد شعرها؛ فتبكي في الحلم بضراوة. توقظها أمّها وهي ناعسة على حجرها، وتقول لها: «روحي لابْنك». لماذا يخلق الله الأمّهات ليتعذّبن، ويظلّ اللبن ينزّ من صدورهنّ؟

تبكي أكثر، وتستيقظ لتراقب مزيدًا من المطر المتساقط ليلاً

على الزجاج، تنساب وتترك هذا الإيقاع المضطرب لقلبها الذي يوجعها.

يخرج الطفل من فراشه، ويحيطها بيديه..

ـ ماما إنتِ خرجتِ امبارح؟

يسألها كأنّه يحاكمها بصوت قوي، أو ربّما بقلق مَن وضع وجوده كلّه في حضورها، أو بعتاب قاس وحنون.. تجيبه بحسم:

ـ أنا كنت هنا.

يفرك عينيه من أثر النعاس والقلق ثم يكمل:

ـ أنا حلمت أنّك خرجتِ بالليل.

يرقّ صوتها، يصبح أكثر تفهّمًا ورقّة:

ـ أنا كنت هنا يا حبيبي.

ـ أنا حلمت أنّي صحوت ولم أجدك.

- أنا هنا يا حبيبي.

تنخرط في بكاء مرّ. تكره بلوتو والموت والولادة، تكره نفسها، تكره الموت الذي يزورها كثيرًا هذه الأيّام، ويأخذ مَن تحبّ وما تحبّ. تبكي بكاء مرًّا، وينتفض قلبها.

يأتي طفلها ويحيط بذراعيه جذعها الذي ينتفض.

ـ ماما فيه إيه؟

ـ مش عارفة أتنفّس.

يسحبها من يدها، ويجلسها على الفراش لترتاح.

تبتلع من حبّات المهدّئ فتبكي أكثر، وتقول له:

ـ كان عندي صديق وحيد، طيّب ومسالم. ولد ذات يوم في برج الجدي.. النهار ده مات.

ـ.. صاحبك؟

تهزّ رأسها لتؤكّد لنفسها سُنّة جديدة من سنن الحياة التي صارت تعرفها؛ أنّنا نفقد باستمرار، ونعيش بحثًا عن معنًى قلّما نجده.

يحتضنها طفلها بين يديه، كأنّها طفلته، وهو يواسيها:

ـ ما تزعليش يا حبيبتي.. أنا معاكِ.

تحتضنه بقوّة. يصبح طفلها فجأة هو الصديق الوحيد الذي تبكي على صدره.

# ١٠ بروسبكت بارك

# *Prospect Park*

يتلاقى الأتلانتك أفنيو مع فلات بوش في نقطة تسمّى «بروسبكت بارك» أو الحديقة اليانعة. يقولون إنّ شتلات أشجارها جاءت من سنترال بارك وهي الحديقة الكبرى التي تتوسّط قلب منهاتن، وصُمّمت لتكون نسخة مصغّرة منها. يحكون أنّ شتل الحديقة بدأ بعد بناء جسر بروكلين. كانت في البداية مجرّد مزارع هولّنديّة لتربية الدواجن وتصنيع منتجات الألبان والنبيذ المنزلي، ثم حوّلت الحديقة والجسر تلك الضيعة إلى ضاحية أقرب إلى ضواحي منهاتن، تجذب بيوتها الجميلة المصمّمة على الطراز الهولّندي الفريد عددًا من الأدباء والموسيقيّين والهبيّين. مكاتب تأجير الشقق ترشدك إذا كنت سائحًا إلى أماكن متعدّدة، ليؤكّدوا

لك ولغيرك مكانة هذه المنطقة يقولون: «هنا كان يسكن «آرثر ميلر»، في تلك البناية كانت تعيش معه في تلك الضاحية زوجته الشابّة «مارلين مونرو» قبل أن تصبح أيقونة وامرأة وحيدة منتحرة، وهنا بيت «هنري ميللر» صاحب مدار الجدي. وهناك ما زال يكتب «بول أوستر» وتلك هي الشجرة التي كتبت عنها «بيتي سميث» روايتها الشهيرة».

يلصقون في أماكن أخرى بوستر فيلم «جون ترافولتا»، «حمّى ليلة السبت».

سيذكّرك السماسرة بكلّ هؤلاء إذا كنت تبحث عن غرفة لتختار موضعًا مناسبًا لأحلامك. صارت هند تحفظ خرائط الحيّ أيضًا، لأنّ الجميع يحكون عن الأهمِّيّة التاريخيّة لمساكنهم بلا مناسبة. يقطن تلك المنطقة أيضًا حالمون كثيرون، كانوا يبحثون حول الجسر وفي ضواحي الحديقة عمّن يكتشف مواهبهم، منشغلين دائمًا بأوراقهم التي يحملونها معهم مبكّرًا، بحثًا عن مقهى يلهم حواسّهم. يجلسون بجدِّيّة مفرطة كأنّهم سيُعيدون خلق العالم. يتلفّتون في المساء وهم جالسون في بارات المثقّفين الصغيرة مثل «كوكو بار» و«إكسوتك بار» و«التي لونج» عن فرصة للتحدّث مع الصحافيّين الصغار، ومحرّري المجلّات الأدبيّة. تعبر هند تلك المقاهي التي لا تستطيع في العادة دخولها لأنّها مكلفة، وإذا دخلت مرّة فسوف تجلس فيها منزوية، ومثيرة للفضول.

تعبرها معظم الوقت بسرعة في طريقها اليومي الذي لا يفضي إلى شيء.

تتّجه إلى هذا الالتقاء العارض بين الأتلانتك أفنيو وبروسبكت بارك، فتجد بعض الدكاكين العربيّة، بجوار المركز الإسلامي. ويمكن أن تعثر على كثير من باعة الكتب الدينيّة والفقهيّة التي تتحدّث عن عذاب النار وتكفين المسلم، وغيرها من البضائع التي يحتاجها المسلمون المتديّنون، مثل المسك والسواك وملابس الحجّ والإحرام والمصلّيات المكّيّة الملوّنة والجلابيب البيضاء الباكستانيّة القصيرة، والنعال والعباءات النسائيّة وأنواع أغطية الرأس كافّة، وبعض مطاعم الذبح الحلال. يقع أيضًا على هذا الطرف دكّان الأرمني «ناراك» لتعليم الشطرنج وبيع كلّ مستلزماته من حجارة وطاولات وكتب. يتوقّف عنده الكثير من المارّة، خصوصًا الأطفال في طريقهم للبارك، تستهويهم الأشكال الجديدة للّعبة التي صارت على هيئة قصص خياليّة مثل «سنو وايت» والأقزام الذين يتغيّر عددهم الآن ليتناسبوا مع رقعة الشطرنج. يحبّ الأرمني الباسم بهجة الأطفال حوله. يذكّره مشهد الأطفال بمدرسة النهضة العلميّة في بعلبك حيث كان يعمل قبل الهجرة إلى أميركا مدرّسًا للتربية الفنّيّة، يجلس بالساعات ليدرّس للصغار حسابات المكسب والخسارة في لعبة الشطرنج، يشرح لهم قواعد اللعبة بعمليّات حسابيّة سحريّة.

تسير هند في المساء وابنها يسبقها بخطوة واحدة، ساهمًا ومفكّرًا ليثبت لها أنّه كبر، وأنّه لا يحتاج إلى يدها لتضعها على كتفه، ويفضّل الآن أن يسير بمفرده. تدرك أنّه صار يفكّر كثيرًا، يفكّر أن يغيّر اسمه لأنّه لا يحبّ اسمه لأنّه ليس (cool) كما يعتقد، ولا يحبّ اسم أبيه أيضًا. ويفضّل لو سمّى نفسه (Ben)، كما يحبّ أن يغيّر لون شعره قليلاً ليصبح لونه أشقر «بلوند» وسبيكي مثل «أيرون مان». وصار ينزعج من الفقاقيع الصغيرة التي بدأت تظهر على جبهته، معلنة تحوّله إلى شابّ صغير، يسمّيها «أكني». أصبحت تؤرّقه كثيرًا فكرة أن تصبح له علامات على بشرته. وصار يبذل جهدًا إضافيًّا في تصفيف شعره ليخفي جبهته، ويتأمّل في المرآة لون بشرته ويعجبه لونها لأنّها «تان» وهو ما يُثير إعجاب أصحابه. صار يفكّر في الجاذبيّة والإعجاب وهوليود ستارز ويقول لها لائمًا: «لماذا لا تبحثين عن decent job؟»، تحتار في فهم مقصده من كلمة «ديسنت» وتترجمها على أنّها وظيفة محترمة وتعتبر ذلك إهانة. فتقول له بحدّة «فكّر أنت في مستقبلك واتركني في حالي». كانت في الحقيقة تريد أن تجد تلك الوظيفة، أن تكون رسّامة أو كاتبة أو ممثّلة، وتعتقد أنّ بعض الأحلام يمكن تحقيقها في أيّ عمر.

حين يصلان لمدرسة الشطرنج ستتركه يجلس بمفرده على الطاولة التي يجلسه عليها الأرمني، عازف الكمان ناراك، أمام رقعة شطرنج. تجلس هي عادة على الرصيف المقابل حيث تصبح

مداخل البيوت الحجريّة القديمة رحبة، وسلالمها الورديّة مفتوحة على الرصيف، وتصبح المساحات الخضراء بين المنازل مقصدًا للكثيرين للجلوس. أمام محلّ ناراك تراقب «نجيب الخليلي» جالسًا ببذلته الرماديّة، ممسكًا أحد مخطوطاته الورقيّة، منخرطًا في الكتابة باجتهاد، تبتسم له ويبتسم لها لكنّها لا تقترب أكثر لأنّها صارت تعرف أنّه دائمًا يبحث عمّن يتحدّث معه بالعربيّة، وحين يجد هذا الشخص يصعب إيقافه عند أيّة نقطة في الحديث الذي صار تكراره يرهقها. بعد أن حكى لها نجيب عدّة مرّات كيف جاء من إحدى قرى نابلس، وافتتح محلّه «حلو العريس» ١٩٥٥ ثم وضع صورًا لبلدته القديمة على الجدار، واشتهر محلّه بأنّه ما زال ينتج زجاجات الشربات البلدي من ماء الورد، والكنافة النابلسيّة بالجبن، ويصنعها أيضًا في أقراص صغيرة بحجم الكعكة المحشوّة بالكنافة والعسل والجبن، صارت كعكة «حلو العريس» مقصدًا للكثير من العمّال العرب في الصباح، ونوعًا من الحنين الغامض لا يفهمون له معنى.

يجلس نجيب الخليلي إلى جوار صديقه ناراك الأرمني بعد أن تعب عشرات السنوات من العمل في محلّه، وقرّر التفرّغ بعد أن تولّى ابن أخته الذي جاء حديثًا إلى أميركا العمل بدلاً عنه. ابن أخته شابّ طويل ونحيل واسمه زياد، يرتدي دائمًا ملابس سوداء وحطّة فلسطينيّة حول عنقه. جاء ليدرس الإخراج السينمائي، ثم تضاءلت أحلامه في النهاية وصار يقاسم خاله الكهل هموم طلبيّات

المشمش الحلبي وقمر الدين، بخاصّة في شهر رمضان، وقرص العجوة المحشوّة بالفستق، والحرص على أن تكون الحلوى مطابقة لمواصفاتها الأصليّة، فمعظم الزبائن جاؤوا ليتذكّروا طعم طفولتهم. فالنابلسيّة محشوّة بالجبن، والبقلاوة عسلها مضبوط، وأصابع الستّ رقيقة ومقرمشة، وشربات الورد الأحمر لها رائحة الزهور الجبليّة، ومربّى اللارنج كأنّه معتّق في بيّارة بيت جدّك الله يرحمه أيًّا كان اسمه. كلّ شيء يذكّر بروائح ومذاق عسل الذكريات البعيدة، والتفاصيل مهمّة في التذكّر، التفاصيل التي يحافظ عليها الخليلي ويحفظها زياد أيضًا. التفاصيل التي تصنع فيلمًا، وتخلق ذاكرة. التفاصيل الليّنة المراوغة مثل قطعة كنافة قادرة على خلق الحنين. يغسل زياد يديه من تعب النهار ويكون مجهدًا من التفكير في الآمال البعيدة، ويكتفي بأن يشارك خاله السهر على مشاهدة الأفلام القديمة أو الجديدة، ويرافقه إلى المسارح والعروض الفنّيّة، فيضحك الرجل المسنّ ويقول لزياد: «الولد يطلع لخاله فنّان والله هو إحنا جاء بنا من بلادنا إلّا الفنّ يا ابني؟، كان عمّك ناراك يهوى الرسم ويعزف على الكمان، وأنا كنت فاكر نفسي النبي جبران أو ميخائيل نعيمة، وأنّني سأكتب كلّ القصائد التي لم يكتبها ابن زيدون رحمه الله، لكنّ الغربة بنت... يا زياد ولا تعطيك إلّا قدرك ونصيبك». . يطرق زياد رأسه متفهّمًا وهو يفكّر في فيلمه الذي يحلم بإنجازه عن حياة عرب بروكلين، والمشكلات الأسريّة التي تواجههم. يقرأ زياد كثيرًا مثل خاله من

«الأرض اليباب» لـ «تي إس إليوت» و«أوراق العشب» لـ «والت وايتمان». ويحفظ الكثير من أشعار لوركا عن ضواحي هارلم وجسر بروكلين، ويبدو مشغولاً دائمًا في جمع المادّة وتوثيق المشاهد التي ستدور على معبر المشاة فوق الجسر. يفكّر زياد دائمًا في التمويل والتصوير وفريق التمثيل، ويحتفظ في جيبه بأجندة صغيرة يدوّن فيها ملاحظاته الدقيقة التي تهبط عليه وهو جالس في محلّ «حلو العريس». يعتبر زياد العمل في محلّ الحلوى فرصة ليرى كلّ هذه التنويعات البشريّة لعرب المهجر، ويعتبر ذلك مصدرًا من مصادر إلهامه.

لا يخفي نجيب الخليلي فرحه بابن أخته المثقّف الذي يملأ حياته بالأشياء التي لم يعشها قطّ. أصبح نجيب لا يرى في الحياة الآن سوى زياد، ثم صديقه الأرمني ناراك الذي التقاه منذ عقود في بعلبك، وأصبح زميله في مدرسة النهضة العلميّة الثانويّة، ثم أصبح الأرمني رفيق رحلته الطويلة. ما زالا يجلسان معًا ويتذكّران تلك الأيّام البعيدة، يتذكّران مشهد اللاجئين الجالسين على المرج في بعلبك، يحكون عن العودة كلّ يوم إلى قراهم البعيدة بعد الحرب، فإذا قال أحد الجالسين إنّه يظنّ أنّ العودة لن تكون إلّا بعد سنة أو سنتين على الأقلّ بعد أن تنتهي هذه الحرب التي كانت عام ١٩٤٨ على ما يبدو، فسيشتبك الجالسون مع القائل في مشادّة طويلة. فقد كانوا يعتقدون أنّ الجيوش العربيّة قادرة في ظرف أيّام على حسم الحرب، بل إنّ بعضهم لم يتركوا بيوتهم إلّا بعد علف

دواجنهم وبهائمهم على أمل أن تنتهي الحرب في أيّام قليلة.
وبينما كان الرجال يتناحرون بتكهّناتهم، عبرت أعوام كثيرة، وكبر نجيب الخليلي وصار ناراك شابًّا أرمنيًّا وسيمًا يهوى الرسم والعزف على الكمان، ويحلم بالذهاب إلى مصر ومشاهدة فيلم «غزل البنات» في سينما ريڤولي بعماد الدين. سافرا معًا إلى مصر ورجعا معًا إلى المرج، ثم قرّرا في النهاية أن يبحثا عن أحلامهما في مكان أبعد. أصبح ناراك مشغولاً بالبحث عن إحدى السفن التي تحمله إلى أبناء عمومته الذين سكنوا نيوجرسي، وكان نجيب أيضًا يفكّر أنّ العودة إلى قريته في الخليل قد تأخذ وقتًا أطول، ومن الأفضل أن يقطع الانتظار بالعمل، وعلى ذلك فقد ركبا معًا السفينة التي تقلع من قبرص، ليصلا إلى الأرض التي يحلم بها المغامرون.

عمل ناراك مع أولاد عمومته في البقالة، وظلّ نجيب خبّازًا في محلّ أصبح يحتلّ اسم «حلو العريس»، ظلّ يدّخر كلّ قروش حياته ليعود ويتزوّج في بلدته بعد أن يبني بيت أبيه الذي لا شكّ سيحتاج إلى إعمار ما بعد الحرب. طالت الحرب كثيرًا، ثم نسي نجيب الزواج والعودة، وأصبح مشغولاً بتأمين بعض نفقات أبيه في بعلبك، وأخته التي بقيت في قرية «سحماتا» معلنةً أنّها لن تخرج من بلدها. صار نجيب يفكّر في نفقات الداخل والخارج، ويواصل عددًا من المهمّات التي لا تنتهي إلّا حينما يصبح العمر خلفه، والأحلام أبعد من يديه. من يعرف نجيب فسيقول إنّه في

الحقيقة عاش حياته بشكل متقشّف. لا يغيّر بنطلونه الرمادي وقميصه الأحمر المربّع إلّا في مناسبات قليلة، ولا يدخّن، ولا يظهر شراهة في الأكل ولا يلعب أيّ ألعاب، مثل الدومينو والزهر في مقاهي العرب. ينام مبكّرًا ولا يحبّ جلسة المقاهي، ولو جلس مرّة في المقهى فغالبًا ما يحتسي الزنجبيل، لأنّه كما يعتقد يقوّي الذاكرة وينظّف الأمعاء، وله فوائد أخرى. يُبقي نجيب صوته خفيضًا، ويتجاهل قاموس الشتائم التي تدور حول الأمّ والأخت بأن يخفض رأسه أيضًا، ولن يضحك بصوت عال، وهو، كما يعتقد الكثيرون من أصدقائه القدامى، ما زال بكرًا لم يعرف النساء، ولم يعش في حياته شيئًا سوى مخطّطات العودة، ثم الزواج من إحدى بنات قريته، ويحكي عن تخيّله لعرسه آلاف المرّات. في الصور القديمة على المرج، يمسك ناراك كمانه ويبدو نجيب في الصور شابًّا بهيًّا، بعينين سوداوين وملامح مسالمة ومحبّبة، شعره لامع بهذا الفازلين الزلق مثل كلارك جيبل أو بيرت لانكستر، بقميص أبيض ناصع مفتوح قليلاً ليظهر صدر الشابّ الحالم، وعلى كتفه جاكيت أزرق كموضة هذه الأيّام، كان قد صنعه خصّيصًا ليتأنّق به عند خيّاط في محلّ بناية اللعازيّة ببيروت. ثم ذهبت الذاكرة ولم يعد يتخيّل، واكتشف أنّه كبر على ترديد أفكاره المضحكة عن الحياة، وصارت فكرة العودة مستحيلة، فقد عاش حتى الآن لا يملك من أوراق الهويّة إلّا ملحفة من الورق القديم، تقول إنّه لاجئ فلسطيني، ومحلّ

الإقامة بعلبك، ولا يعرف أين يمكن أن يعود، فقد صار ينتقد فقط الحياة في مجملها، ويعتقد أنّ أميركا كذبة كبيرة، يستطيع أن يؤكّد ذلك بنظريّاته التي لا تنتهي عن أنّ تلك المدينة مثل ماكينة الفرم، تحترمك طالما أنت جزء من المفرمة، ولكن إذا صرت ترسًا صدئة تعطّل سير العمل فسيلقون بك في النفاية، ونظريّته عن أنّ البني آدم ليس حرًّا تمامًا في هذه البلاد كما يدّعون.. الإنسان مأجور بلقمة عيشه، ويصبح أكثر تأثّرًا حين يلين صوته متسائلاً: أيّة حياة هذه تجعلك تنحني للشاري منك لأنّه يفتح دكّانك، وتنحني للقمة عيشك طوال الوقت؟ وإن كان حلمك هو أن تقتني بيتًا أو تربّي ولدًا فسينتهي عمرك وأنت تدفع أقساط البيت والتعليم، وربّما تموت قبل ذلك. كانت كلماته عادة ما تصطدم بآراء الأستاذ محمّد، العامل في مقهى ألف ليلة وليلة، الذي يقاطعه قائلاً: «لو مش عاجبك هنا ما تروح يا خويا.. وهل غصبك حدّ على بلاد الغزّ يا أبو زيد الهلالي».

يقول له بعض القادمين الجدد تلك العبارات القاسية أيضًا، لأنّهم لا يعرفونه بشكل كاف، ولا يقدّرون نظرته الحزينة المليئة بالرثاء للنفس. لا يلاحظ الشباب أنّه صار كبيرًا جدًّا وكهلاً، وحياته تعبّر عمّا وراءه. غالبًا ما كان يردّ عليهم بأسف «يا ليت يا شباب.. الذي يعرف منكم حطّة رجل لي في بلادي فليدفع بي إلى السفينة اللّي رايحة»، فيكفّون عن مقاطعته في آرائه أو لومه. صار الشباب يتحاشون الجلوس معه، وهو يرهق من حوله

باكتشافاته عن الحياة في تلك المدينة وكم هي مجحفة ولا إنسانيّة. رغم قدرته على التدليل على ذلك بأعداد المتسوّلين والمشرّدين الذين يعيشون في الشوارع ولا بيت لهم، ويتنهّد على رؤية كبار السنّ في الحدائق، ويقول: هذه المدن لا قلب لها، ويتعجّب كيف ينشغل الأولاد بالجري وراء الرزق ويتركون آباءهم هكذا. ويتساءل ما الحلاوة في مدينة تخلق كلّ هذه التعاسة البشريّة ثم يسمّونها تفّاحة العالم؟ ويتساءل نجيب هل لو تزوّج فيها أحد أو مات هل سيكترث بأفراحهم أحد؟ يسأل ويُجيب عن أسئلته. وكان في قرارة نفسه يراها مدينة ظالمة مثل كلّ مدن التاريخ التي تحوّلت إلى غبار، بعد أن استعبدت ناسها. باختصار فقد الرجل قدرته على الصمود في مقاهي البيرج كغيره من المسنّين، لأنّه لم يستطع أن يجد ما يضحك الخلّان به في المجالس. وصار ثقيلاً على من حوله، وكلامه يُثير إحباطهم وضجرهم، لذا فقد اختار هذا الركن، بعيدًا عن البيرج وضواحي العرب، وصار يستوطن طاولة ناراك للعب الشطرنج ويتابع بشغف ما يجلبه الأرمني ناراك من أشكال جديدة لأحجار الشطرنج لم يرها نجيب من قبل على رقع النرد. مثل لعبة «سنو وايت» أو «هركليس» أو لعبة «غو وشوغي» اليابانيّة وقد صار مثل الطفل عاشقًا لأشكال اللعب الجديدة، شغوفًا بالجلوس على ناصية المحلّ.

كما أنّه يرتاح لصحبة صديقه الأرمني الهادئ المشغول أيضًا

بإصلاح آلات العزف، كالعود والكمان وسائر الآلات الوتريّة. يصدح صوت «ليلى مراد» في دكّان الأرمني الباسم فتهفّ البهجة من ثنايا الصمت المشترك، ويستطيعان أن يتذكّرا سويًّا طيور الهدهد في قرى نابلس، أو عصافير التين التي كان يطلقون عليها اسم الخوري لأنّ لها تاجًا من الريش الأسود.

تخرّج نجيب الخليلي من قسم اللغة العربيّة. كان مدرّسو اللغة العربيّة يُعْطَوْنَ راتبًا إضافيًّا أو ما يشبه الإعانة الدراسيّة، تلك الإعانة هي التي مكّنته من استكمال تعليمه في معهد المعلّمين العالي في منطقة الدقّي بمصر، حين سافر هو وصديقه ناراك أوائل الخمسينيّات وعاشا مدّة سنتين في شقّة استأجراها في شارع نوال بالدقّي. وفي طريق العودة من بور سعيد إلى بيروت عبورًا بقبرص، شاهدا الباخرة «كربانش» وحلما بالسفر وظلّا يحلمان به حتى ركبا ذات يوم السفينة ولم يعودا.

يحبّ الخليلي الشعر والتمثيل والأدب، وهو لذلك لم يستغرب ولع ابن أخته زياد بالإخراج. يقول له باللّكنة المصريّة التي بقي بعضها على لسانه «إنت فنّان بالفطرة مثل خالك. . الولد بيطلع لخاله، أمّال يطلع لمين؟». يبتسم زياد الذي يرى المصير الفنّي للعائلة قابعًا خلف بضاعة محلّ «حلو العريس» ثم يربّت على يد خاله الذي يودّ التفرّغ لما أسماه إنجاز حياته، وهو دراسة لغويّة عن الأخطاء الشائعة في اللغة العربيّة. نجيب يعشق مادّة القواعد

كما يعشق صوت ليلى مراد وأفلام شارلي شابلن بالضبط، ويحبّ مراجعة أصولها من دون سائر الموادّ الأخرى. عندما كان شابًّا حليقًا في بداية حياته كان مدرّسًا في مدرسة النجاح الوطنيّة في بعلبك.

كان يشتهر بقدرته على حلّ كلّ المسائل المتعلّقة بالإعراب، وكان ذلك يجعله شابًّا حليقًا لطيفًا متعلّمًا، ويصلح أستاذًا في يوم ما. لا يخفي نجيب الخليلي إعجابه بالبروفسير المصري «حسن ظاظا» الذي كان والده أستاذًا شخصيًّا للشاعر الكبير أحمد شوقي وكان ظاظا تلقّى تعليمه في اللغات القديمة في فرنسا، وكان يدرس اللغة والنقد. وكان حسن ظاظا يُجيد أكثر من عشرين لغة أخرى. وعندما جادله أستاذه الذي نسي اسمه قائلاً له: هل يستطيع أيّ يهودي أن يعيش في مصر آمنًا؟ فأجابه حسن ظاظا الذي كان يناقش أطروحته للدكتوراه ساعتها قائلاً: «تعال معي إلى مصر وأنت ترى كيف ستسير بقبّعتك، فيقولون لك يا خواجة صيدناوي أو يا خواجة لوقا بكلّ تبجيل».

كان من أحلام نجيب الخليلي أن يصير ذات يوم نسخة من هذا الأستاذ المصري الذي حفظ تاريخ حياته، وكانت له أيضًا أحلام كثيرة أخرى، لكن منذ جاء إلى تلك المدينة وهو فقط خبّاز يحشو الكنافة بالعسل والجبن، ويعتبر ذلك فنًّا في مغازلة الحنين الذي يوجع قلوب اللبنانيّين والسوريّين والفلسطينيّين الذين يسكنون

أطراف بروكلين. ظلّ الخليلي يحتفظ من أحلامه القديمة بحقيبته المدرسيّة السوداء، يحملها طوال حياته ذاهبًا وعائدًا من محلّ «حلو العريس»، ممّا جعل الحديث عن غرابة أطواره حقيقة لا شكّ فيها. خصوصًا أنّهم لم يعرفوا قطّ ماذا يحمل على قلبه طوال هذه السنين.. ولماذا؟

صديقه الوحيد ناراك كان يتعجّب من حرصه على تلك الكتب القديمة مثل «شذور الذهب في شرح كلام العرب» وكتاب سيبويه وألفيّة ابن مالك، ونسخة بخطّ يده لمؤلّف أسماه «تلخيص النفوس من الأعجمي والمدسوس في اللغة العربيّة» كتب تحت هذه العبارة اسمه، بخطّ كوفي ثقيل، بقلم نجيب الخليلي. يأتي كلّ صباح ليجلس على طاولة اللعب أمام محلّ شطرنج ناراك الذي يملكه صديقه الأرمني، ويخرج كتبه ويبدأ مراجعة بعض القواعد النحويّة خشية أن ينساها، أو يردّد أبياتًا من الشعر ليصلح عروضها ويلعن الغربة التي جعلته ينسى النهي والإضافة.

يجلس ناراك في الداخل يتأمّل صديقه وهو يضيف فصلاً لكتابه النحوي في الأخطاء اللغويّة. يعلو صوت الخليلي ليشاركه صديقه في حواره: «يقول العرب مُكره أخاك لا بطل، والصحيح هو مكره أخوك لا أخاك. ثم يدوّن الأسباب التي جعلت أخو على النصب بدلاً من الرفع». لن يكترث ناراك بالقواعد، ليس لأنّه أرمني، فكثير من مدرّسي اللغة العربيّة في ذلك الوقت كانوا من

الأرمن، بل لأنّه لم يكن مدرّسًا للّغة، كان مدرّسًا للرسم، وقد جاء حالمًا بأشياء مختلفة، ولكن كما يعرف الجميع فإنّ السفن التي تبحر إلى الشرق قد تدفع بها الريح في اتّجاه آخر. وهو أيضًا مشغول بتجارته التي على شفا البوار لأنّ البيع لا يسير بالشكل المطلوب، ولأنّ هدايا الأعياد تنوّعت، ولم تعد قطع الشطرنج جزءًا منها. لم يعد أحد يتذكّر مثل هذه الأحجار المنحوتة يدويًا والتي تمثّل قطعًا فنّيّة بديعة انحنى عليها فنّانون مثله. يؤكّد ناراك أنّ نيويورك صارت مدينة يسكنها العابرون، وهؤلاء لا يكترثون بالتحف ولا بقطع الحجارة الشطرنجيّة الثمينة، وقد صار السيّاح أقلّ، والبرد صار قاسيًا، والمخازن مليئة بالبضاعة. ولا يخفي ناراك حزنه برغبة ابنه في تغيير هذه المهنة، صار الولد يقول لأبيه إنّ المكان صالح لأعمال أخرى. يؤجّل الأبناء عادة أحلامهم ريثما يموت الآباء كما هي سُنَّة الحياة، يحزن ناراك لأنّ سنن الحياة ليست عادلة ولأنّه يحبّ كلّ قطعة في محلّه.

تجلس هند على الرصيف المقابل لمحلّ ناراك على سلالم أحد البيوت، تراقب الشارع. يعبر زياد مثلما يمرّ عليها كلّ مساء ويحيّيها قائلاً: «مرحبًا». تحبّ هند صوته العميق الذي يكشف نضجه، تحبّ ملامحه الشابّة، ذقنه الحليق، شعره الذي قضى ساعة في تصفيفه، ملابسه الداكنة الأنيقة، رائحة جسده، تحبّ هند كلّ ذلك لكن إذا عبر ستدّعي أنّها مشغولة بالكتابة، وأنّ الشعر لا يأتي إلّا حينما يمرّ. يجلس بجوارها أحيانًا أخرى فتودّ

أن تعترف له أنّها لا تكتب شيئًا في الحقيقة، وأنّها فقط تدّعي، وأنّ كلّ ما هو مكتوب في أوراقها أشعار جمعتها، لكنّها بالضبط كما تشتهي أن تكتب، تكتفي دائمًا بأن تقرأ له شيئًا مثل ذلك على سبيل تبادل القراءة والاهتمامات (تعال يا حبيبي أنا زهرة اللبلاب الغضّ الذي سيخطفه الخريف قريبًا). تضع رأسها في الأرض ثم تكمل.. (خذني بين يديك أوّلاً ثم ضمّني بعدها. أدر وجهي وقبِّل شاماتي واحدة تلو أخرى). تقول له: هذا من أشعار نساء البشتون؟ يسألها: مَنْ نساء البشتون؟ فتضحك، هُنّ مجرّد نساء مثلها. يتجاهل زياد تلميحاتها لأنّه مشغول. مشغول دائمًا بفيلمه، ومشغول بأشياء لا تعرفها. يحكي لها أحيانًا عن إعجابه بالمخرج «تارنتينو» الذي كان يعمل مثله في محلّ. صحيح أنّ المحلّ كان يختلف قليلاً، فقد كان لتأجير أفلام الفيديو ولكن، في النهاية، كان تارنتينو يعمل في محلّ. كان باختصار مثله يعتبر العمل فرصة يتأمّل فيها الناس والأفلام ويتحاور مع أصدقائه عن السينما، ثم أصبح تارنتينو نجمًا. هذه هي أميركا القادرة على المعجزات. يسألها فجأة: هل شاهدت «بلب فيكشن» Pulp Fiction؟ لا تعرف عن ماذا يتحدّث، فيكرّر لها السؤال بالعربيّة: هل شاهدت فيلم «لبّ الخيال»؟ تهزّ رأسها نافية. لم يدرك زياد المشغول دائمًا كيف كانت تحبّ مثله الأشياء نفسها، تحبّ السينما لكنّها تفضّل السينما العربيّة، سينما الخمسينيّات، تحبّ أفلام الأزواج الكلاسيكيّين والزوجات

المخدوعات. يتركها زياد بسرعة قبل أن تقرأ له بقيّة الأشعار التي جمعتها له.

تتأمّل هند بأسى الحديقة التي يقصدها كبار السنّ الذين انتهت الحياة من خدماتهم، وصاروا يقضون نهارهم وهم يحتسون المشروبات الساخنة والمأكولات الخفيفة على المقاعد المتفرّقة. يبحثون عن مقاعد تعرّضهم لأكبر كمّيّة من الشمس، ويكشفون عليها أطراف ثيابهم بخجل وهم يدارون أوجاع الكبر والروماتيزم والوحدة، ويتأمّلون تلك الجنّة الصغيرة المحاطة بأشجار هرمة ومتعبة من برد الشتاء. تصبح الجنّة في المحطّة الأخيرة مجرّد مكان قاس على كلّ ما يملك من ممكنات للجمال..

يقضون النهار، إذا كان مشمسًا، في تأمّل أشجار البلّوط المعمّرة، وأشجار التوت والكرز البرّي والكستناء التي تتغيّر ألوانها، بينما يركض الشباب جريًا في البارك ليحافظوا على رشاقتهم. وتجلس الأمّهات بعربات يحملن فيها الرضّع ويتجمّعن ليقضين الصباح في ملاعبة صغارهنّ. تراقب من بعيد طفلها في محلّ الشطرنج، تراقب أيضًا كيف تأتي «ليليت» فجأة إلى دكّان الأرمني، فيرتبك نجيب الخليلي كلّ مرّة ويمسح المقعد الخشبي بمنديله القماش، ويصبح محبًّا وصغيرًا ومثيرًا للرثاء. على طاولة صغيرة أمام محلّ الشطرنج تبتسم ليليت فتتغضّن التجاعيد الدقيقة على وجهها الصغير، وترتبك لأنّها تبحث عن كلمات لا تعرف

كيف تقولها، بعد أن أخذ النسيان الكثير من ذاكرتها. سيصفها الخليلي كلّ يوم بالحماسة ذاتها قائلاً: «ليدي، ليس في هذه البلاد كلّها في مثل كمالها ورقّتها». تجلس ليليت كلّ يوم أمامه بمعطفها النظيف وروائح عطورها الراقية وقطع المجوهرات التي تبدّلها كلّ مرّة، وتثبت له كم هي راقية وقادرة على الاستماع الطويل دون ضجر أو مقاطعة. وبكلماتها البسيطة المنسابة الهادئة، تتحدّث بحذر مثير للفضول وأناقة مفرطة لا تشبه العجائز حولها. تجلس معظم الوقت ساهمة بحزن، لأنّ ممحاة غليظة مسحت الكثير من ذاكرتها، وكلّ ما تحاول الحفاظ عليه الآن فقط المعلومات الضروريّة مثل: اسمها، عنوان بيتها، اسم ابنها الوحيد. ورغم أنّها تحمل الكثير من الأوراق الإرشاديّة وكلّ المعلومات اللازمة عنها في جيب معطفها، فمعظم الوقت تظلّ خائفة على فقدها أو نسيانها، فتتحسّس معطفها كلّ عدّة دقائق، كما تحتفظ في دفتر صغير بأشياء تحاول أن تظلّ تتذكّرها، مثل اسم ابنها، كنّتها، أحفادها. تكتب بخطّ واضح في قصاصات كثيرة تنسى مكانها («أريكا» زوجة ابني عمر، اسمي ليلى السعيد وينادونني «ليليت»)، تكتب أشياء أكثر طرافة إذا قرأتها دون أن يعرف القارئ لماذا يضطرّ المرء أن يكتب اسم والدته أو أين يضع نقوده، ولكن رغم كلّ احتياطاتها من النسيان فهي أيضًا تنسى، وتتحوّل حياتها إلى بحث وتقليب في الحقيبة والجيوب والأوراق التي تحملها لتذكّرها فتنساها. ورغم كلّ ما تحاول إظهاره من تماسك، فقد كانت

معركتها الأولى أن لا تبدو شائخة وكبيرة في العمر، وتنسى إلى هذا الحدّ. لذلك فهي تفرط في تفقّد هيئة شعرها ومعطفها، وتحاول ألّا تقول شيئًا كي لا تخطئ في الكلمات، لكنّها تخطئ وتكون الكلمة على فمها فتنسى وتتوه. تصمت كي يعتقد الآخرون أنّها تتذكّر جيّدًا. تحاول استرداد ما بقي من ذاكرتها بكتابة كلّ شيء لتقاوم هذا الذهول الذي يطاردها، لكنّها تفشل في التذكّر.
يراها نجيب الخليلي قادمة من بعيد فيقف بانتظارها، لا يعرف ماذا يثير تلك البهجة في حضورها وجلوسها بجانبه، لكنّه يفعل كما يفعل ذلك بالفرح نفسه؛ يقوم من مقعده ويجذب المقعد المواجه له مرحّبًا بها لتجلس. يفرح بها ولا يتوقّف عن الكلام. حديثه سيكون عن التجربة الوحيدة التي زار فيها مصر حينما درس في المعهد العالي للمعلّمين، وبحث عن الأستاذ حسن ظاظا ليسلّم عليه شخصيًّا، وركب السفينة من بور سعيد ثم إلى قبرص، بعد ذلك، سيقول لها: «أنا نزلت في أوتيل الأندلس. هل تعرفين أين أوتيل الأندلس. كان من أبهى نزل القاهرة. ماء ساخن وماء مثلّج، وخدم من السودان يرتدون ملابس غاية في النظافة ولا في الحضرة الخديويّة والله يا هانم». تبتسم ليليت قليلاً وتشرد فيكمل: «أنا يا سيّدتي رحت سوق البهار.. هل ذهبت إلى سوق البهار قبل ذلك؟ يسأل، ويردّ على نفسه، لا والله أنت شكلك بنت أكابر. وما الذي يدفع بك إلى هذه الأسواق القديمة. أصلي أنا عندما نزلت ولم أكن أعرف أحدًا ذهبت وناراك معًا»، يشير إلى صديقه

داخل محلّ الشطرنج وهو منكفئ يصلح أوتار كمان بصبر وهدوء. . «كان كما ترينه فنّانًا، ومن أوّل ما وصل إلى القاهرة صار يسأل عن بيت الفنّان محمّد عبد الوهّاب وتركني أبحث عن سكن بمفردي. وكما تعرفين، الغريب عينه كليلة ولا يبصر شيئًا. دون معرفة نزلت من الفندق فصادفني شابّ أنيق وقال لي تحبّ تشتري ساعة رادو فاخرة، أنا محتاج والله أبيعها وسأعطيها لك بخمسة جنيهات ولكن هي تستأهل خمسمائة؟ كانت الخمسة جنيهات أيّامها أكثر من أربعين ليرة لبنانيّة، وتكفي للعيش بها شهرًا، لكن أنا كما قلت لك الغريب أعمى ولو كان بصيرًا، وهكذا يا سيّدتي اشتريتها، ثم جاء ناراك وقال لي يا نجيب ضحكوا عليك دي حاجة أيّ كلام. كنت أعرف أنّه أرمني ومسبّع الكارات، أي يفهم في كلّ شيء، وقد لمته وقتها، وقلت له يا أخي أنت تركتني طول الوقت لتبحث عن بيت الأستاذ محمّد عبد الوهّاب، ونحن لا نستطيع أن نُقيم في أوتيل الأندلس أكثر من ذلك ولازم نبحث عن شقّة. وهكذا بدأت أنا وناراك نبحث عن شقّة قريبة من وسط البلد، وذهبنا إلى سمسار في شارع نوال بضاحية الدقّي، وشربنا قهوة عظيمة بقهوة «أنديانا» لن أنساها طوال عمري». تهزّ ليليت رأسها ولا تتكلّم، وإذا قالت شيئًا فستقول كلامًا لا يدلّ على شيء مثل: «آه طبعًا فاكرة نوال طبعًا. . طبعًا» تصبح ليليت مثيرة للشفقة حين تحاول أن تتكلّم، وحين تحاول أن تحافظ على هيئتها بمسح وجهها بالمنديل المعطّر.

تتفقّد شعرها الرمادي القصير المقصوص بعناية، أو تتحسّس جيوبها كلّ مدّة لتتأكّد أنّها تحتفظ بعنوان بيتها في جيب المعطف الصغير، بورقة كتبت فيها تليفون ابنها وعنوانها، ليعثر عليها الناس إذا تاهت واحتاجت إلى من يتعرّف إليها. وعلى سبيل الاحتياط، كتبت على معصمها بعض أرقام التليفونات، لكنّها لم تكن تضلّ الطريق، تجلس فقط أمام محلّ ناراك، ولا تفكّر بالذهاب إلى أيّ مكان آخر. تسمع هذا الرجل الذي يتحدّث عن أشياء بعيدة فتبتسم، وتلمع حدقتاها وتغرق عينا نجيب الخليلي بدموع الكبر والتأثّر. يمسح الدموع بمنديله القماش الذي يخبّئه في جيبه ويشعر ببهجة أن يحكي.. «وبعدين يا ستّي في قهوة «أنديانا» التي يجتمع فيها كبار القوم، صرت وناراك نجلس كلّ يوم بعد أن قال النادل لصديقي ناراك إنّ الأستاذ محمّد عبد الوهّاب أحيانًا يأتي إلى هنا ليقابل أصدقاءه وهو يأتي متنكّرًا ولابسًا معطفًا أسود وكاسكيت، لكنّك ستعرفه؛ فهو طويل ونحيل ولا يسلّم على أحد ولا يشرب القهوة، لا يشرب إلّا اليانسون ويطلب منهم مرّة بعد مرّة أن يتأكّدوا من نظافة الفنجان.. أصله بيوسوس من كلّ حاجة».
يصدح صوت ليلى مراد في محلّ ناراك في الخلف وهو يرهف السمع إلى صديقه الذي يحكي للسيّدة الغريبة قصّة حياتهما. ما زال ناراك يحبّ أن يسمع الحكاية من فم نجيب الخليلي الذي يحتفظ بذاكرة مثيرة للتعجّب. يكمل الخليلي: «كنّا نشرب فنجان القهوة بجنيهين.. أنديانا كانت كما قلت لك من أفخم مقاهي

القاهرة، ونحن طلبة وما يقدر على بصق العسل إلّا النحل يا سيّدتي الكريمة. ولذلك فقد قلت لناراك الجالس في الدكّان أمامك، وكان ساعتها يشبه أنور وجدي والله يا هانم، أناقة وشعر أسود وما زال». يضحك نجيب وهو يتأمّل صديقه الذي تغيّرت ملامحه عبر السنين ثم يقول: «لا يتخيّر عنك يا هانم وإن ذبلت الوردة فرائحتها تبقى فيها». تبتسم ليليت ولا يعرف إن كانت تبتسم وتستطيع فهمه ومتابعة ما يقول، أم أنّها تبتسم حين تراه يضحك مبتهجًا بذكرياته فقط لتجامله؟ كانت ليليت كما يصفها الخليلي (ليدي) أي سيّدة جميلة وأنيقة، لكنّ النسيان يجعلها صامتة وخائفة أن تتكلّم، وربّما لم تكن قادرة على صنع جملة لها معنى. فكلّما همّت بمشاركته التذكّر بأن تقول كلمة مثل «القاهرة كانت جميلة» لا تعرف سوى ترديد المقطع الذي يعجبها خلفه، تقول: «جميلة.. كانت جميلة» ثم تصمت في حزن، وأحيانًا بفرح، لكنّها لا تحاول الكلام. بعدها تصبح عيناها مليئتين بهذا البريق.. بريق من الأسى والرثاء للذات. يملأ نجيب الخليلي لحظات الصمت بابتسامته المحبّبة ثم يكمل: «وبعد يا سيّدتي الكريمة قابلت رجلاً طيّبًا اعتبرني والله كما ابنه وصار يقابلني في مقهى ركس بوسط البلد، ويأخذني معه إلى القاهرة التي يعرفها وحده، ودعاني على الغداء في مسمط بلدي في الحسين لا أتذكّر اسمه، لكن يا هانم والله حلاوة طعامه ما زالت في فمي حتى الآن. تركت صديقي ناراك جالسًا في أنديانا ويدفع كلّ يوم جنيهين في

القهوة الواحدة على أمل أن يلتقي بالأستاذ محمّد عبد الوهاب.
وفي يوم جاء رجل كما وصفه النادل، طويل وبشعر رمادي ومعطف أسود وطلب القهوة وجاء النادل ليخبر ناراك أنّ المطلوب وصل.. فإذا بناراك يركض على الرجل الطويل في المعطف الأسود ويغمره بالقبلات على يده ويقول له أنا منتظرك من زمان يا موسيقار، فيردّ عليه الرجل النحيل بتهذيب بالغ.. أنا عبد الوارث عسر يا بني». يضحك نجيب وهو ينظر إلى ناراك بالداخل فيتبادلان الابتسام وهو يسألها: «طبعًا تعرفين «عبد الوارث عسر»؟.. كان ممثّلاً عظيمًا». تبتسم ليليت له فلا يعرف ما معنى ابتسامتها الغامضة، لكنّها بالتأكيد تحبّ أن تسمع منه تلك الحكايات، وربّما تحنّ إلى بلادها البعيدة. كلّ ما يعرفه الخليلي عن ليليت أنّها من أصول مصريّة. عرف ذلك من الكلمات القليلة التي تفوّهت بها، وأنّ لها ابنًا لا يعرف أين هو ولا ما اسمه، لكنّ زوجة ابنها الأميركيّة الشابّة «أريكا» تأتي في نهاية النهار وهي تتلفّع بحجاب ثقيل وتسحب عدّة أطفال، واحدًا في يدها وتدفع بعربة صغيرة وضعت فيها طفلين توأمين ناعسين، أو يستحلبان اللبن. تأتي أريكا دائمًا متعجّلة وتركض وتتعثّر وتقول إنّها ستفقد عقلها من ملاحقة ليليت. تكتشف كلّ يوم فجأة أنّ ليليت خرجت وحدها من البيت فتركض في الشوارع بحثًا عنها، لكن أريكا لا تفقد عقلها، فكلّ يوم تجد ليليت أنيقة وهادئة، فقط ترتجف يدها وتهتزّ باستمرار، وتجلس بانتظارها صامتة وتسير خلفها باستسلام

ولا تنظر إلى نجيب الخليلي الذي يتطلّع خلف معطفها الطويل وهي تغرب كلّ يوم. شقّة ليليت تطلّ على الحديقة، بيتها أيضًا يشبه أناقتها وحرصها على التفاصيل، سجّادة عجميّة قديمة، مفارش أغباني، وملاءات مطرّزة ووسائد عربيّة، وقطع أثاث قديمة وأسطوانات من كلّ نوع. عاشت ليليت وحدها لسنوات طويلة، لكن منذ هبط النسيان أصبحت محاطة بابنها وأحفادها الثلاثة وأريكا أيضًا. ابنها اسمه عمر عزّام، ذلك الشابّ الذي يتحدّث العرب عنه في «البيي ردج» وعمّا رزقه الله من مال وأعمال وصلاح وتقوى، ويجعلونه مثلاً في برّ الوالدين، خصوصًا عبد الكريم الكردي الذي يجلس في مقهى ألف ليلة وليلة ويقول: «إنّ خير الزاد ولد صالح.. خصوصًا في تلك الغربة حين تذهب الصحّة والجمال والأناقة» ويبقى عقله شاردًا مثل عقل ليليت يصيح «الخلف الصالح نعمة». ثم يحلف بالله أنّه «لولا هذا الشابّ الذي رزقها الله به لرأيتم هذه السيّدة مع مشرّدي الحيّ ومصيرها أن تنام في البارك».

إذا سأل البعض كيف جاءت ليليت إلى تلك البلاد، فستُروى حكايات كثيرة ومتعدّدة عن جنونها، فقد كانت هذه السيّدة ابنة إحدى الأسر الأرستقراطيّة، بل إنّ جدّها كما يقولون كان وزيرًا للريّ في حكومة عدلي يكن زعيم الأحرار الدستوريّين. لم تكن ليليت جميلة. كانت سمراء ونحيفة، وجنونها لا حدّ له في متابعة آخر صيحات الملابس وأشهر الأسطوانات الموسيقيّة، خصوصًا

«فرانك سيناترا» و«ليزا مانيلي»، ومهتمّة بكلّ أنواع الرقص والموسيقى وصيحات الموضة. تزوّجت مبكّرًا وحملت مبكّرًا. كان زوجها طبيبًا شهيرًا، يملك عيادة ضخمة في باب اللوق ويعرف بأنّه «طبيب المشاهير». فقد كانت تقصده الكثيرات من الفنّانات في ذلك الزمن، لِمَا عُرِف عنه من براعة وأرستقراطيّة، خصوصًا أنّه تلقّى تعليمه في فرنسا. وكان بدوره حفيدًا أو قريبًا لعبد الوهّاب عزّام، وهو كما يقولون، كان من أهمّ المفكّرين العرب في القرن العشرين، وأوّل أمين عامّ للجامعة العربيّة.

على الرّغم من توفّر كلّ ممكنات السعادة، فعادة ما تخبّئ الأيّام شيئًا ما ناقصًا، لتفاجئك بأنّ السعادة غامضة وعصيّة. يقولون كثيرًا عن جنون النساء في الحياة، لكنّهم لم يعرفوا امرأة بهذا الجنون من قبل. فبعد أن سكنت ليليت على شاطئ النيل في ضاحية جاردن سيتي، وعاشت في تلك الفيلّات الصغيرة، وكان كلّ شيء في حياتها مرتّبًا وجميلاً، ويصلح للوحات زيتيّة عن جمال الطبيعة، ورغم محبّة الزوج لزوجته التي كان يلقّبها بقطّته الصغيرة، ورغم تدليله المفرط لها الذي جعل أسرتها تعاتبه لما يعطيه لها من حرّيّة، فقد كان يضحك ويقول: «ليليت فنّانة ورسّامة وسيّدة مجتمع، ولم تعد تلك الفتاة الصغيرة كما كانت من قبل». تجلس في نادي الصيد بنظّارة سوداء، مقلّدة هيئة جاكلين كيندي، وتغامر بركوب الخيل، وتغيّر أشكال ملابس البحر، وتحضر حفلات الكوكتيل، وتنافس الممثّلات الشهيرات في ملاحقة

عروض الأزياء. وضعت ليليت طفلها الوحيد عمر، الذي أسمته تيمّنًا بالممثّل الشهير «عمر الشريف» ليصبح الولد فنّانًا شهيرًا مثله. شاهدت ليليت فيلمه الأخير مع باربرا سترايسند «فتاة مرحة»، وحلمت مثل كلّ بنات طبقتها بأفلام هوليود والسفر لنيويورك مشاهدة مسارح «برودواي». كانت ليليت أيضًا ذات يوم فتاة مرحة وحالمة، لكنّها تحوّلت فجأة بعد الولادة تحوّلاً مزاجيًّا شديدًا. لم تكن تحمل همًّا لتربية طفلها عمر، فقد تكفّلت برعايته جدّته لأبيه وأصبح شغلها الشاغل، مع توفّر عدد من المربّيات اللّاتي تكفّلن بكلّ شيء، حتى إنّها لم ترضع هذا الطفل قطّ لتحافظ على لياقة صدرها، ولم تحمله إلّا مرّات قليلة. أصبحت ليليت بعد الولادة أكثر جموحًا واكتئابًا، تدخّن كثيرًا وتنام في فراشها غير راغبة في رؤية طفلها ولا زوجها ولا أحد. تبكي لأسباب غامضة، وتنهار لأسباب أكثر غموضًا، على الرّغم من أنّ الزوج قد حوّل الغرف العلويّة أو الروف إلى مرسم كبير وملأه بالألوان والزهور، وتابع شدّ الياسمينة التي انفرطت أغصانها لتصبح سياجًا فريدًا حول المرسم. وكان يجلس معها كلّ مساء ويرسل في طلب كلّ الأسطوانات الجديدة ليلبّي ولعها بالموسيقى. كانت حياتهما نموذجيّة لولا ما يُثيره البعض عن علاقات الزوج المتعدّدة، وعلى الرّغم من أنّها لم تفتح هذا الموضوع معه أبدًا كأيّة سيّدة راقية، وقادرة على التجاهل والتعالي على هذه الأشياء العاديّة، لكنّها لم تعد تعرف كيف تكون مبتهجة بهذا التعالي. يقولون أيضًا إنّها ذات

مساء ربيعي بعد أن تساقطت أزهار الياسمين على السور وفاحت بروائح مختلطة، وهبّت ريح الحنين أو التذكّر لأنّها تأتي مع أعياد النيروز وتثير البكاء والأرق والحنين الغامض، ولأسباب مرتبطة بحركة الرياح، وكثيرًا ما يحمّل الناس الريح أكثر ممّا تستطيع حمله، لكنّ تلك الهبّات ذات الرائحة الشجيّة بالبنفسج أفقدت ليليت قدرتها على ادّعاء السعادة. كانت في غرفتها والأسطوانة تدور في الجرامافون وفرانك سيناترا يغنّي:

The table are empty.. The dance floor's desetred

You ply the same love song

It's tenth time you've

That's the beginning just one of clues

You've the first lesson to learnin' the blues

لم تعرف لماذا بكت، ولا كيف هزّها الحنين إلى لا شيء، فلم يكن في حياتها أحد، ولم تكن تفكّر في الحبّ. ربّما كان الحنين الذي تركه صوت سيناترا الذي يتحدّث عن طاولة فارغة وقاعة رقص خالية، ومحبّ يدير أغنية الحبّ للمرّة العاشرة وتعلّم فنّ الحزن من موسيقى البلوز. السجائر التي أحرقتها ليليت، واحدة بعد أخرى، مثلها كانت تشعر أنّها مكسورة القلب ولا تستطيع أن تنام. كانت ناعسة تحتضن رواية «آنّا كارنينا» لكنّها حلمت بقطار كما في الرواية، لا تعرف أين يمكن أن يأخذها، ولا أين سيضع رحاله، قطار لا يقف في محطّات ولا يرثي لوحدته.

التصقت ذلك اليوم لساعات بزجاج نافذة غرفتها واقفة، تدير الأسطوانة مرّة بعد مرّة، ثم تضع خدّها على الزجاج. لم تبكِ وهي تأخذ قرارها. خبّأت وجهها من الألم فقط، كانت غرفة مرسمها تطلّ على ساحة الغسيل والطبخ وحبال الغسيل من جهة الشرق. فتحت النافذة فهبّت الريح وحرّكت قطع الملابس الصغيرة لطفلها حيث كانت معلّقة على الحبل. كان الحبل مثقلاً أيضًا بثياب كثيرة مثل أرواب نومها، واختلطت روائح اللبن المنبعثة من الصدريّات مع بقع الوجع وسوائل الجسد التي انتزعتها مساحيق الغسيل وروائح الكلور النفّاذة. هبّت الريح فخرجت ليليت من غرفتها. كان زوجها يحتسي قهوته في الشرفة المطلّة على النهر. تأمّلت جلسته، بذلته الأنيقة ورائحة ملابسه المعطّرة ولمعة شعره، ثم تأمّلت فلوكة نهريّة تتمايل بأشرعتها البيضاء. جلست صامتة قليلاً أمام ابتسامته التي أربكتها، لكنّها صدّت الحنين بإشعال سيجارتها. نفخت الدخان بأرق ثم عادت إلى نزقها وجموحها وصلابة نظرتها العنيدة، وقالت باقتضاب «أريد أن أمشي.. أنا لا أتحمّل هذه الحياة.. سأسافر». لم يسألها إلى أين ولا لماذا، ولم يقترح شيئًا. لم يقل سوى تلك الكلمة الأكثر اقتضابًا: «ابني سيظلّ معي» هزّت رأسها وقالت: «مفهوم طبعًا.. مفهوم». حملت ليليت حقائبها واختفت. يقولون إن الزوج كان يرسل لها نقودًا شهريّة وإنّها ظلّت ترسل إليه كذلك كروتًا وصورًا وأسطوانات موسيقيّة وخطابات طويلة من نيويورك، وأحيانًا من نيو أورلينز أو

لاس فيجاس. كان يرسل لها صور ابنها في أعياد ميلاده، ثم في سنوات دراسته لتتابع تغيّر ملامح وجهه. يقولون إنّ أسرتها غضبت منها، ثم بعد عدّة سنوات صالحتها. يقولون إنّها رأت ابنها عدّة مرّات في باريس في الإجازات، وإنّها ترسم صوره باستمرار، وإنّها تدرس في جامعة «برينستون». يقول الناس كلامًا كثيرًا، لكنّك لا تستطيع تصديق نميمة تلك الطبقة، لأنّهم يكذبون باستمرار، ويريدون مداراة أشياء يعتقدون أنّها تمسّ سمعتهم. يقول آخرون إنّهم شاهدوها تتسكّع مع أحد الرسّامين الهيبيّين في أزقّة نيويورك، وإنّها تدخّن كلّ شيء، وتلتصق بالرسّامين المشاهير. وتنام على أرصفة «هارلم» وتعتقد أنّها موهوبة، ولكنّها لم تفعل شيئًا غير رسم التاتو على فخذيها وبطنها. ويستطردون. . هذا كلّ ما رسمته هذه المرأة المجنونة. يقول البعض، كانت تعمل سكرتيرة في دار نشر يهوديّة صغيرة في ويلمزبرج ببروكلين، وإنّها تصمّم أغلفة كتب لا قيمة لها، وترسم إعلانات سخيفة لمسرحيّات يقوم بها الطلبة والهواة. يقول الناس ذلك ليعتقدوا ما يريح فضولهم، ولم يعرف الحقيقة أحد. حاولت ليليت كتابة سيرتها عدّة مرّات لكنّها لم تستطع، فقد أخذ النسيان كلّ التفاصيل، ولم يعد أحد مهتمًّا بالوصول إلى ما يسمّى حقيقة.

جاء عمر بعد سنوات ليدرس الهندسة، فتحت له الباب فاحتضنها وحاولا نسيان أشياء كثيرة، كأنّهما لم يفترقا أبدًا. يضع رأسه على ساقها ويناديها «لولو». تحكي له عن حياتها التي لم تعد

مهمّة ولا جديدة. كانت تذهب إلى المسارح دائمًا، وترسم كثيرًا ثم لم تعد قادرة على متابعة المعارض ولا العروض. صارت تقول له «نيويورك كانت زمان. . كانت على أيّامي مش أيّامك يا عمر». أصبحت ليليت متعبة وتفضّل التنزّه في الحديقة القريبة، أو مراقبة الريحان والنعناع البرّي وبقيّة الأشياء التي زرعتها في الشرفة. صار ابنها عمر يأتي ويغيب، فتقول لنفسها «شابّ وعايش حياته»، يقيم بعض الوقت مع أصحابه، يسافر إلى أماكن تجهلها، تعتقد أنّ تلك حياته وحده، وأنّ تلك تجربته التي لا تتدخّل بها. تعتقد أنّ كثيرًا من الأشياء تتغيّر بالوقت، وأنّنا لا نعرف ما نريد عادة حتى نعرفه.

الولد الذي جاء ليدرس الهندسة دفعت به أحلامه مرّة باتّجاه التمثيل، ومرّة باتّجاه الغناء. وفي إحدى المرّات رافق فرقة موسيقيّة وطاف معها نصف ولايات أميركا. لم تدرك متى بدأ يصلّي كثيرًا لأنّه حين صار يمسك يدها ليحكي لها، تسرح ببصرها بعيدًا، تشرد ساهمة ويلاحظ أنّها صارت أقلّ كلامًا وأقلّ حركة. صار ولدها ينام على حجرها ويقول لها:

«ما بك يا لولو. . لماذا تسرحين؟». لم تكن تسرح، ولو كان يفهم سنن الحياة لأدرك أنّها تبحر بعينيها. الكبار في العمر يعرفون أنّ البصر حين يبحر فإنّه يعني رحلة طويلة إلى بلاد بعيدة، لم يجد عمر من يشرح له أنّ ما أصابها هو النسيان الذي يجيء، ويصحب العجائز معه. يحتضنها ابنها الذي كان كبيرًا ومتزوّجًا من فتاة صغيرة

بيضاء اسمها «أريكا» بعدما أعلنت إسلامهاْ رسميًّا في المركز الإسلامي، وعقد قرانه عليها على سُنَّة الله ورسوله، وقد صار وراءه كثير من الأعمال، مثل أعمال الأنقاض والهدم مع عدد من شركائه اليمنيّين في إعمار البيوت، والتي يوظّف فيها عددًا من العرب العاطلين، كما صار شريكًا في عدد من محلّات البقالة المسمّاة «دلّلي سرفس». أصبح عمر أيضًا مشغولاً بالصلاة والأعمال الخيريّة، وأصبح يهدي أمّه مصاحف كثيرة لتقرأ فيها قبل أن تنام، وهو يحدّثها عن القرآن وكيف تُذهب قراءته الهمّ والحزن، وتقوّي الذاكرة. يحدّثها قائلاً إنّ دواء النسيان هو ترك المعاصي. لم تكن حقيقة تستطيع تذكّر المعاصي التي ارتكبتها أبدًا، فبدأ يشتري لها الكثير من الزعفران، ويقول لها إنّه يقوّي الذاكرة، فتقول له إنّها لم تعد تحتاج إليها. كانت تحتاجها وتتألّم في الحقيقة وتخشى الاحتياج، وأن ينتهي بها الحال كما ترى العجائز دائمًا بثياب متّسخة وتفوح منهنّ روائح التعب، لذلك فقد صارت تغيّر ثيابها ثم تنسى، وتغيّر أكثر من مرّة ثيابها وتغسل يديها كلّ عدّة دقائق، ثم تجلس وراء نافذتها المطلّة على بروسبكت بارك تسند وجهها على زجاج النافذة وتشرد بعيدًا. ما زالت تحبّ أن تسمع فرانك سيناترا يغنّي: «أنا أحبّك ولا شيء بيدي أستطيع أن أفعله سوى محبّتك لذلك أرجوك أحبّني» (I am so in love with you please love me what ever eles you do. just love me).

بينما قرّر عمر الذهاب إلى الحجّ قائلاً لها: «أنا سامحتك يا

ماما وأريد أن يسامحك الله أيضًا. . تعالي معي» قال ذلك ثم بكى. لم يقل ابنها قبل ذلك أبدًا إنّها أخطأت، وإنّه يتمنّى أن يسامحها الله. لم تكن تعرف أنّها كسرت في يوم من الأيّام قلبه وأنّه عاش يشتهي ندمها. بعد كلّ هذه السنوات ما زال يتذكّر خطاياها؟ قالت له بعناد: «أنت عايزني أقعد ألفّ حولين إيه؟ الكعبة يعني؟ يا بني أنا لا بحبّ اللفّ ولا الدوران. روح إنت وإن كان عايز يغفر لي سيغفر». كانت تناضل كي تظلّ كما هي لأنّها لم تشعر بالخطايا التي يريدها أن تتطهّر منها. كانت ما تزال آنذاك تستطيع العيش بمفردها، والعيش في الحديقة، محاولةً كتابة سيرة حياتها التي لم تكتبها أبدًا. ظلّ العنوان فقط في الدفتر وبقيت ذاكرتها عصيّة على ملء المساحات البيضاء الخالية. كانت تنسى وتدور حول نفسها، في محاولة عاجزة لإثبات قدرتها على أن تكون وحدها ألصقت في الصفحات صورها بشعر غجري في واشنطن بارك بهيئة هيبيّة، وقد تلوّن جسدها بالتاتو، بقصّة شعر «ليزا مانلّي»، وأخرى بجدائل أفريقيّة، وقد كشفت الوشم على ظهرها عبارة «أنا حرّة» مكتوبة بالإنجليزيّة. وضعت صورها، والسجائر دائمًا في فمها، وهي مستلقية على رصيف طمسون ستريت. ظلّ الدفتر بلا كتابة لأنّها كانت قد اكتفت برسم وجهها في عدّة بورتريهات بالفحم الأسود، بوجنات غائرة، وأنف طويل وشعر أسود مجعّد ويدين تحتضنان صدرها البارد بأرق امرأة وحيدة على أعتاب فصل البرد.

# ١١ بروكلين بريدج

# *Brooklyn Bridge*

ينام الجسر مستسلمًا، معلّقًا بالحبال ليعبر فوقه السيّاح والعابرون والمهاجرون، منذ قرنين أو أكثر، وتعبر من تحته البواخر الصغيرة التي يسمّونها «فيري»، في النهر الذي يفصل بروكلين عن منهاتن. قبل بناء الجسر كانت العبّارات هي وسيلة العبور الوحيدة إلى الساحل الآخر. ما زالت العبّارات تحمل السائحين.. «فيري» شارع «فولتون» و«وُول ستريت» تحمل العابرين في نزهة، يلتقطون أثناءها مزيدًا من الصور. الجسر الذي أصبح مثل مركبة قديمة، مسافرة منذ قرنين أو أكثر، صار يقصده العاطلون حين تكون شمس الشتاء مبهجة، والجلوس عليه لمراقبة العابرين متعة يقصدها أيضًا المحتجّون الذين يطالبون بالمحافظة

على الطبيعة، ويرسمون أشجارًا تبكي في المناسبات الكبرى كعيد «القدّيس باتريك»، حيث يتقنّع المحتجّون بالماسكات الخضراء، ويرفعون أعلامًا فوق الجسر. الاحتجاجات تتّخذ كلّ يوم موضوعًا جديدًا، مثل التفرقة العنصريّة، وحقوق الشواذّ، والتأمين الصحّي.. كلّها تتخذ من الجسر نقطة التقاء باتّجاه الـ «سيتي هول» بمنهاتن، أو وسط بروكلين بالاتّجاه المضادّ.

كان الجسر يضفي على كلّ المَشاهد بهجةً، بهجةَ أن تسير وتراقب بروكلين من فوق، مليئة بالمتناقضات. وفوق الجسر سارت هند مع زياد للمرّة الأولى، كان يحدّثها عن أحلامه وعن «تارنتينو» أيضًا. يضحك زياد فترى للمرّة الأولى الجسر ليلاً مثيرًا للشجن، خصوصًا وأنّ فينوس تنام في برجها الفلكي منذ بضعة أيّام، وقد طرق الحنين بابها، فصارت تفكّر كيف تطرق المحبّة القلوب فجأة بلا منطق. ستمثّل المشهد الأوّل والأخير في حياتها القصيرة كممثّلة سينمائيّة، وهو واحد من أحلامها القديمة، بعد تواتر فكرة الشبه بينها وبين عدد من الممثّلات. وهي الفكرة التي آمنت بها في أعماقها، كما أنّها كانت تملك بعض المواهب الحقيقيّة في الدراما والبكاء بلا سبب، والإحساس الدفين بالتعاسة والنقمة على الوجود. وتملك أيضًا الولع والتوق والجموح، وإن لم تُظهر هذه المفردات الأخيرة؛ فذلك لأنّ الحياة لم تعطها فرصة التعبير الكافي عن ذاتها. تلتقط فرصتها الأولى والأخيرة. لذلك حين قال لها زياد إنّه يبحث عن فتاة عربيّة للتمثيل في فيلم قصير

يحكي قصّة أسرة عربيّة في المهجر وإنّ «العمل تطوّعي مع توفير وجبة غذائيّة ومشروب»، تحمّست للصعود إلى سقف البناية القديمة، حيث يقف زياد طويلاً مبهِجًا، يحكي بلكنته الفلسطينيّة قصّة الفيلم الذي يدور حول فتاة تتعرّض للضرب من والدها؛ لأنّها لم تعد تستطيع أن تتكلّم معه بالعربيّة. وكلّ مرّة تتلعثم وتتوه منها المفردات وتختصر الكلام بـ «الإف وورد»، وهي كلمة نابية تعني «اذهب للجحيم أنت ولغتك». الأب الذي جاء حالمًا بأشياء لم يطلها، سمّى ابنته على اسم أمّه، وكان يمنعها من محادثة الصبية. لكنّ البنت التي كبرت اختارت لنفسها اسمًا جديدًا. يجذب الأب ابنته من شعرها وهي تقبّل أحد الشباب على جسر بروكلين. يجرّها وراءه، حالفًا بكلّ موتاه أن يقتلها، وفي البيت يجعلها تخلع بنطلونها الضيّق، وهو يركلها بقدمه، مردّدًا: «يا عاهرة». بعدها يخلع حزام بنطلونه ويضربها به على مؤخّرتها، وهي تصرخ، ثم تتدخّل الشرطة التي تقتاد الأب، فيما تركض البطلة فوق جسر بروكلين، وعلى ساقيها علامات حمراء من أثر الجَلد.

حلمت هند أن تكون البطلة، ولم تكن تعرف أنّ دورها في الفيلم لن يتعدّى مشهدًا واحدًا. وكما قال لها زياد الذي يحاول التحبّب إليها باللكنة المصريّة، وهو يمسك بالكاميرا «إنتِ يا ستّي بقى أهمّ لقطة في الفيلم». هزّت هند رأسها ثم نظرت إلى «ديانا كرداشي» التي ارتدت بنطلونًا من الجينز الممزّق، ولبست فوقه تي

شرت أبيض، على طرفه قلب، وكتابة باللون الأحمر تقول: «نيويورك.. أنا أحبّك». أمّا هي فكانت ترتدي قميصًا باكستانيًا طويلاً، ووضعت على رأسها شالاً كالأمّهات المقهورات غالبًا، والمثيرات للشفقة في كلّ الأفلام. وكان عليها أن تركض خلف البطلة، وتقول: «ابنتي.. ابنتي» بأمومة مفرطة، بجزع وحبّ وخوف وخيبة أمل وصراع وحنان.. كلّ ذلك يجب أن يتركّز في عينيها، وفي بحّة صوتها.. ويسقط الشال وهي تركض، ويعلو صدرها ويهبط من الركض، وتلمع الشمس على شعرها الرمادي.

تعيد المشهد أكثر من مرّة، لأنّها لا تعرف كيف تركض خلف ابنتها المفترَضة، وتتعثّر في ثيابها، ولا تُظهر اللهفة الكافية. يقول لها زياد لتوضيح المشهد: «أنت أمّ، وستفقدين ابنتك.. فقط ركّزي مشاعرك على الأمومة والفقد. أرجوك هذه اللحظة أهمّ مشهد في الفيلم». تهزّ هند رأسها لتؤكّد له أنّها تفهم وتشعر بكلّ ما يقول أكثر من أيّ إنسان، لكنّها لا تحبّ هذا الدور، ولم تشتهِ أن تكون أمًّا لأحد. كانت تريد أن تكون نفسها مرّة واحدة، وأن يرى فيها رجل ما امرأة تمتلك أشياء أخرى أكثر تأثيرًا من صدر ينزّ لبنًا، وأنّها تصلح لأدوار أخرى غير الأمومة. كانت هند تحبّ أن تمثّل، وطوال حياتها ظلّ التمثيل هاجسًا يراودها، ومشتهى لا تعرف كيف ترويه روحها. في طفولتها كانت تلتصق بالمرآة وتمثّل، ترفع حاجبها كفاتن حمامة في «الوردة البيضاء»، وتقول: «أجيب لك البالطو، ولا كمان شويّه يا أبيه؟». كان عبد الوهّاب

مشغولاً بـ «راقية إبراهيم»، كما كان زياد مخرج فيلمها الأوّل والأخير مشغولاً بالممثّلة الصغيرة «ديانا كرداشي» ابنة «عبد الكريم» الكردي الجالس في «مقهى ألف ليلة»، يوزّع علامات يوم القيامة.

تتذكّر هند، وهي تهبط من الجسر، تاريخها السينمائي الذي بدأ بالتصاقها بالمرآة، وتقبّل صورتها بشفتيها في نهاية الفيلم الذي تكون بطلته، وهي تحدّث نفسها بصوت عالٍ مقلّدةً البطلات. فتقول أمّها التي تسمع حديثها السرّي مع أشباحها السينمائيّة: «إنتِ ركبك بسم الله الرحمٰن الرحيم.. وطول النهار تتأمّلي في روحك، ولازقة في المراية ليل نهار. أُمّال لو كنتِ حلوة شويّة؟». تلتصق أكثر بالمرآة لأنّها حُرّة في روحها، تدهن وجهها بالكريم الأبيض، وتسرق من درج التسريحة قلم الروج الفوشيا، وترسم شفايف بطلتها المفضّلة «ليلى مراد» على هيئة قلب صغير أحمر قانٍ. وتجرّب حسر الثوب، وضمّ حلمتين في صدرها لم تظهرا بعد، وهي تردّد أغنيتها المفضّلة «أحبّ ولاّ أتوب.. يا ناس شوروا عليّا. أحبّ ولا أتوب استاهل الشبشب ولاّ المركوب؟ يا ناس شوروا عليّا. وامشي ورا المعيوب.. يا ناس شوروا عليّا».. الأغنية التي سمعتها مرارًا من جدّتها «الضيفة» رحمها الله، وهي تغسل حذاءها البلاستيكي على علواية بيت جدّها، يرحمه الله أيضًا، «مقاوي أبو الكرمات».

تضع أذنها على الراديو الترانزستور، وتردّد الجُمل التي تنطقها «شادية» في مسلسل إذاعي اسمه «العسل المرّ». كانت البطلة تغوي الرجال الذين يحبّون صوتها المبحوح الشَّبِق. صوت «شادية» كان مفعمًا بالعسل المرّ، لكنّ صوتها لم يكن مؤثّرًا ولا مثيرًا، كما اشتهت. كان خفيضًا ناعمًا، مشوبًا بغُلمة لطيفة. صوت حالم يشبه صوت «زبيدة ثروت» في فيلم «ليلة من عمري». تحبّ فيلم «ليلة من عمري»، وتتركّز أحلامها في أن تهرب مثل البطلة، وتختبئ، وأن يبحثوا عنها ويفتقدوا وجودها بأسى، قبل أن يجدوها، وأن يندم كلّ المحبّين الخونة لأنّهم تركوها أيضًا، ويغنّون لها بأسف «فارِقْتُه ليه؟ ضيّعته ليه؟ ليه.. ليه يا قلبي؟».

تشتري مجلّة «الكوكب»، وتحملق في بطلاتها المفضّلات، وتحاول أن تصفّف شعرها بطريقة تمثيليّة، قبل أن تعقفه لها أمّها في الضفائر.. كانت ممثّلة بجدارة. يكتشفون ذلك حين تعقد صرّة من القماش تحت رأسها، وتغضب، وتعتقد أنّها ليست بنتهم بالضرورة، وربّما التقطوها من مكان ما. فتقول لها أمّها: «أنتِ طول النهار تمثيل، وعينيكِ فيها دموع التماسيح. وأعمل فيكِ إيه؟ طول النهار تنكّدي على نفسك وعليّا، هوّ أنا ناقصة يا ربّ! تبتليني بدل البنت بوجع القلب ده».

بعد اندثار الراديو، وشراء أوّل تليفزيون «توشيبا العربي» في تلال فرعون، ووضعه في الصالة بين البلكون الغربي والبلكون

الشرقي، صارت حريصة على مشاهدة ثلاثيّة تلفزيونيّة اسمها «الضحيّة ـ الرحيل ـ الهاربة». تبكي نساء كثيرات ممّن يجلسن بهدوء في صالة البيت يشاركنهم مشاهدة المسلسل المؤثّر. تحاول إعادة تمثيل المشاهد التي جذبت انتباهها، وبرغم أنّ دموعها في معظم الأحيان حقيقيّة، فقد صارت بحالات، مثل النسمة أحيانًا، وكالبغلة الحرون أحيانًا، وكلّ يوم هي في حال حسب الدور الذي تعيشه في الحياة.

عندما كبرت قليلاً أحبّت دور «القدّيسة» لفترات طويلة. تصلّي كثيرًا وتخاف من الإثم والفضيحة، ترهق نفسها في الصلاة وتسير بجسد يسوعي نحيل، متكتّفة بخرق كثيرة تجعلها أكثر تقوى في عيون المشاهدين. تسير في الطريق الترابي لتلال فرعون، مسلِّمة على أهل المقابر، لأنّ السلام عليهم صدقة. تقف تحت شجرة توت في مفترق تلال فرعون، بانتظار صديقاتها القادمات من العزب المجاورة لتسير معهنّ، ملطّخة حذاءها بالطين والغبار، وهي تحرث الأرض في الطريق إلى المدرسة المشتركة التي لا ترفع فيها عينيها مخافة الفتنة. تجلس منزوية في أبعد نقطة في الفصل؛ كي لا يلاحظها، متوارية ملتصقة بالنافذة لتتأمّل خلاء المقابر التي تطلّ عليها المدرسة، وتَعتَبِر أثناء الحصص الخالية من الأساتذة، فيما تنهمك الأخريات في الرقص. ترقص زينب الملقّبة بـ «زوبة» والتي نزح أبوها من القاهرة، وتقول بافتخار إنّها من «بولاق». ترقص، بيضاء وممتلئة ولها قميص وردي يبرز نقطة

بيضاء في صدرها العاجي الذي يركّز عليه كلّ مدرّسي الفصل، ويعتبرونه آية في الجمال. وتحثّها بقيّة المدرّسات على غلقه؛ فتضحك بشبق وتقول لهنّ: «أحلف بالنعمة؛ بيغيروا منّي». لم تكن المدرّسات وحدهنّ من يغَرن من «زوبة»، كانت هي أيضًا تشعر بتلك الغيرة القاسية المريرة.

كانت، هي الجالسة بعيدًا في حالة تأمّل للقبور، تحلم بجسد ملفوف بتضاريس تعلو وتهبط لتليق بدور البطلة في المشهد الأخير. تحمل زوبة في جيبها عدّة مكوّنة من ملقاط حواجب، وبكرة خيط.. ومستعدّة لرسم حواجب المدرّسات والطالبات الحاقدات عليها، بخمسة قروش. تجلس في المقعد الأوّل لأنّها تعشق أدوار البطولة، وكلّ أستاذ سيقع حتمًا في غرامها بطريقة ما، أبويّة أحيانًا، أخويّة في حالات متعدّدة، وصريحة مباغِتة في معظم الحالات. تضحك وترفع حاجبها لهنّ بعد سقوط الفريسة في شباكها. كان لها مكان القلب نهد فاتن، استغنت به عن حفنة المشاعر التي تُضحِك وتُبكِي في أوقات الفراغ الكثيرة من حصص الرسم والأشغال والتربية المنزليّة. تترك زوبة الباب مواربًا وترقص، تعرف كيف تهزّ بطنها وتتحدّى في الرعشة غوازي «محمّد علي».. تنطّ وتهزّ، وكأنّ «أبو الرعاش» قد امتلك المساحة المنبسطة المنسابة حتى ساقيها. إيقاع الطبل لا يصل إلى مكتب الناظرة البعيد خلف غرف الفصول.

لماذا يحقدن عليها وهي تمثّل دائمًا دور الغانية اللعوب وتجيده، وتختاره، وتعتقد أنّه الدور الأساسي في كلّ الأفلام، زوبة «كلّها مهارات» كما تطلق على نفسها، وخبيرة في نتف شعر العانة باللبان في خفّة داخل الحمّامات، ورسم العيون بالكحل، وطلاء الأظافر بالأحمر الرخيص الباذخ، الذي يبرز بياض يديها ويثير مزيدًا من الأحقاد. تكتفي «القدّيسة» بالنظر.. تنظر إلى المقابر المجاورة، وترى فيها عبرة وعظة، برغم أنّها تعرف ما تردّد حول «زوبة»، وكيف تخلع ثيابها للأولاد في المقابر، وهي ترفع شعار «للنظر فقط» بربع جنيه، وأنّ الصبيان في المدرسة المجاورة يعرفون ذلك. وحينما تنفجر المعركة بين «زوبة» ومنافساتها على أدوار البطولة، سيقلن لها تلك العبارة «يا بتاعة القرافة». والقرافة هي المقابر المجاورة، وسُمّيت «قرافة» لأنّها موطن الدود والعفن، كما يقول العارفون.

تضع زوبة يدها في وسطها وتنطق بالعيب، وتشتم بالأُمّ، ويا بنت كذا.. فهي من بولاق كما تؤكّد لهنّ. ووسط اندهاش الجميع تختتم بـ «إنتِ فكراني مين يا روح أمّك إنت وهيّه؟».

مدرّس الرسم يبدو عاقلاً ومتّزنًا، وينظر في الأرض. فهو يخاف الله ويحرِّم رسم البني آدم، وكلّ ما له روح. ويحرّضهنّ على رسم المناظر الطبيعيّة التي تتجلّى فيها حكمة الخالق.. مدرّس الرسم لا يحبّ زوبة، ولا يعطيها اهتمامه؛ فتصفه زوبة باختصار بأنّه ليس رجلاً. «إنتو فاكرينوا راجل؟». تنظر إليها هند بعين غاضبة، وتقول

لها: «هوّ بَسْ محترم ورومانسي ومش من العيّنة اللي تعرفيها». تضحك زوبة وتقول لها: «والنبي إنتِ اللّي رومانسيّة». تشير بذلك إلى اكتشافها لولع هند بمدرّس الرسم، وحرصها على تأمّل القبور لتثبت له تقواها. لم تسأل كيف تكهّنت زوبة بعشقها الخفي؛ فقد عرف الجميع أنّ مدرّس الرسم أرسل لها خطابًا يقول لها فيه: «يا قطّتي الصغيرة»، سيكتبه لها وحدها، وستخبّئه هند في أوراقها السرِّيّة، وتستمرّ في دور «القدّيسة». وهو أيضًا يحرص على الدور نفسه، فحين يتكلّم لا ينظر إليها، ينظر إلى «أنجيل» التي تشاركها مقعدها، ويقول لها: «إنت بنت مؤدّبة يا أنجيل، وتِنْحبّي.. إنت قدّيسة. ملاك نازل من السما». وسيدرك الجميع أنّه يقصدها هي؛ لأنّ أنجيل سمراء بدينة، وليست مطمعًا. البنات في الفصل سوف يعدن النظر إليها، ويلقّبنها بـ «مريم فخر الدين» البطلة الرومانسيّة السهيانة ويطلع من ورائها بلاوي، وسيكتشفن رقّتها ووجهها الطفولي الجميل.. حدث ذلك قبل أن تختفي زوبة فجأة، ويختفي مدرّس الرسم، وتثير أحقادَ القدّيسين والملائكة أخبارٌ غير مؤكّدة عن حمل زوبة في جنينها الأوّل من مدرّس الرسم وهروبها معه. بعد عدّة سنوات سوف يعودان زوجًا وزوجة على سُنَّة الله ورسوله، وخلفهما عدد من الأطفال في الحلال.

تسير بعدها بجانب أنجيل. تشعر بالغيرة والخجل، وتودّ أن تختفي خلف جسد أنجيل الضخم من سخرية الأخريات. كانت لا تزال تفكّر في معنى للمحبّة، وصارت تكره دور القدّيسة لأنّه طويل

مملّ، ويصيبها بالضجر. بدأت تحبّ دور «الضحيّة»، وتعتقد أنّها مثل أمّها تمامًا، ضحيّة، تشهق طوال النهار بدموع مكتومة، وتقول «نعم وحاضر..».

أمّها تشبه «ليلى مراد» حين تجلس في البلكونة وتغنّي. تحفظ لأبيها ـ إذا كان رائقًا ـ غنوة واحدة، تغنّيها له حينما يضع رأسه على فخذها، وهي تمسّد شعره بمحبّة.. «مين اللي زيُّه في طلعته.. مَحْلا جماله ورقّته».. تعبث في شعره بأصابعها، يضحك، وتكمل «يا زهر الربيع يا ورد وبديع.. يا قرنفل آه يا قرنفل». يقبّلها في فمها أمام أطفاله المبتهجين حوله. فتصبح أمّها، ولمرّات قليلة، البطلة ويملأ الرضا حياتها. تغنّي أمّها أيضًا وهي تغسل وتطبخ، وصوتها يرنّ بعذوبة امرأة مُحبّة قبل أن تعبر رياح الخماسين على ربيعها وتصْفق الأبواب. في نوبات الغضب ستكون الضحيّة، تبكي وتقول: «اللّي يشوف الباب وتزويقُه، ما يعرفش وجعُه وتزييقُه». كان باب بيتهم قد تحطّم من الخبط والرَّزع، وانهار زجاجه وبقي ألواحًا من الورق الكرتوني المقوَّى بدلاً منه، تصدّ الريح والمطر. ظلّت تعتقد أنّها ضحيّة مثل أمّها خصوصًا بعد أن صارت أمًّا. كلّ الأمّهات ضحايا، ومثلها يشخن بسرعة. ويظلّ لبنٌ ينزّ متخثّرًا، من الصدور التي تنتظر مصيرها المؤلم.

عاشت طفولتها معتقدة أنّ الضحايا بلا إرادة، ويحصدن

التعاطف، ولا يمكن نسيانهنّ في الأفلام والقصص. فهنّ يثرن في المتفرّجين العُزَّل الإحساس العميق بالذنب، والقسوة، وسوء الحظّ. . وهي كلّها أحجار يتعثّر بها الكائن في طريقه رغمًا عنه، وبلا تفسير. لأسباب فلكيّة أو وجوديّة. لا أحد يعلم. في النهاية، وبعد أن تمرّدت وركلت الباب، وقالت لإخوتها الذين صاروا رجالاً: «سأتزوّجه، رضيتم أم أبيتم»، مثل كلّ بطلات التمرّد الدرامي، وقال بعض العقلاء في العائلة الكاعين على تلال «مقاوي أبو الكرمات»، بغُترات بيضاء فوق رؤوسهم: «اتِرْكوها اتْغور فْ داهية بدل الفضايح».

وبعد أن صارت زوجة جميلة وأنيقة ومثقّفة، صارت حياتها كلّها تشبه أفلام الفنّانة «زهرة العلا». وهي أدوار الزوجة الصغيرة المهجورة، صارت تفكّر في النهاية. ربّما هي بطبيعتها غير مهيّأة لأدوار البطولة، ولم تكن مهيّأة طوال حياتها، لأنّها اختارت ذلك. فهي حريصة على حصد التعاطف وتمثيل الضحيّة طوال الوقت. كان يقول لها ذلك إذا أغلقت الباب على نفسها: «إنتِ ما تعرفيش تعيشي يوم واحد من غير دراما. . كلّ يوم دراما؟». كانت أذكى من أن تعتقد بصدق توصيفه. الدراما سُنَّة الحياة مثل الولادة والموت والأسف والسأم.

في النهاية قرّرتْ الهرب لتترك النهاية الدراميّة مفتوحة ومؤثّرة. وها هي تنزل من على جسر بروكلين بعد نهاية المشهد،

وتكتشف ملكاتها التمثيليّة دفعة واحدة، ودون مكياج ولا إضاءة. . تركض وراء عاهرة صغيرة، وتناديها: «بنتي. . بنتي»، كأنّهم لا يعرفون أنّ هذا هو الدور الذي كرهته طوال حياتها. ثم لبست المعطف الأسود، ومشت تفكّر في بطلات أفلامها. . تفتح الدولاب وتقول لنفسها: «إنّ حياتها لم تكن حقيقيّة على الإطلاق». كانت اقتباسات من أفلام قديمة. والأثواب الكثيرة التي لبستها في حياتها لم تكن على مقاس روحها. لا تتذكّر من ملابس طفولتها غير فستان أحمر كروشيه عليه ثلاث وردات خُضْر. في صباها كانت ملابسها المدرسيّة باهتة اللون؛ وهي مشغولة بدور الطالبة النجيبة. تختار اللون الرمادي وتقول «ما بحبّش الأزرق». الرمادي يناسبها، فهي تفضّل أن تكون مختلفة. تفتح دولاب أمّها على أثواب مثل أثواب «ليلى مراد» في «غزل البنات» لم تعد أمّها بالطبع ترتديها. تحبّ امتلاكها ذات يوم، وتحلم بتلك الكلوشات الواسعة الفضفاضة الحريريّة، والدوبل كلوش محدّبة ودائريّة بالضبط حول فتحة صدر أنيقة. لم تعد الأمّ التي تشكو من آلام الظهر تلبس منها شيئًا. بعد عدد من الولادات صارت قطع الملابس معبدًا لتذكيرها فقط بأصولها الأرستقراطيّة وأيّام رشاقتها الأولى، وبخيّاطتها الأرمنيّة التي تسكن في «طلعت حرب»، وتفصّل الملابس لفنّانات كثيرات، وتحلف لها أنّ مدام «مديحة يسري» لا تحبّ إلّا حَرْدة مقصّها.

تكتفي أمّها الآن بزيارة سنويّة إلى محلّات «صيدناوي

وشملا»، لأنّها قريبة وأسعارها معقولة. تسأل بحذر عن أسعار اللينوه لأنّه قطن وطري، وتفضّل قماش الزهور الباتستا فهي أرخص، والبيكيه لأنّه يتحمّل الغسيل والوسخ. تحمل هند قطع القماش الرخيص في مهمّة اللفّ وراء أمّ حنان الخيّاطة لتفصيله ثم تعديله مرّة بعد مرّة «ماما بتقول قصّري الكمّ.. ماما بتقول طوّلي الديل.. ماما بتقول وسّعي الباط.. ماما بتقول ضيّقي الوسط.. ماما بتقول إعدلي السُّفْره».. تصرخ أمّ حنان التي يتغيّر اسمها عبر الفصول، وتصبح «فتحيّة أحمد»، وتقول لها بوضوح مؤلم: «هو أنا مش ورايا غيرك! قولي لماما خلاص.. أنا ما بَصَلَّحش».

تحبّ أمّها أن تضبط كلّ شيء، لذا فملابس طفولتها كلّها كانت على هيئة واحدة «ميدي»، أي على عرقوب الرجل لدواعي الحشمة، وبثلث كمّ كي لا تحرق الشمس ساعديها، ولا تبتلّ ثيابها بالماء عند غسيل المواعين.. الملابس كلّها يجب أن تكون بَديكولتيه مقفول، فليس عندها بنات يفتحن صدورهنّ مثل الغوازي والممثّلات. ومن ثم فقد ظلّت تمشي بتلك الأثواب من قماش البيكيه؛ فتصبح هيئتها مضحكة. وترى جسدها داخل مساحة مسالمة بلا تضاريس. لمّت أثوابها مرّة بعد مرّة، وهي تقرّر الهرب، ومزّقت أثوابها عدّة مرّات في حالات الغضب. وقالت لها أمّها: «أشقّ هدومي منّك يا شيخة.. إنتِ بنت ولا بسم الله الرحمٰن الرحيم». كان شقّ الثياب عادة عائليّة ظلّت حريصة عليها، خصوصًا بعد أن تزوّجت؛ لتقليد «فاتن حمامة» في فيلمها

المفضّل «الخيط الرفيع». تقلّد امرأة مهزومة تنفّس عن غضبها بتمزيق ثياب الحبيب الذي يهجرها. أحسّت بارتياح بعد ذلك. حتى فاتن حمامة، على كلّ ما تمتلكه من مهارات تمثيليّة، يمكن أن تصير أيضًا امرأة مهجورة. في النهاية لبست عباءات مطرّزة، وتذكّرت أنّها «بنت عرب». كانت من نسل قبيلة ما تسمّى «التياها»، لكنّهم لم يكونوا يلبسون تلك العباءات المطرّزة، كلّ العجائز كنّ يتخفّين في محارم سوداء. جدّتها كانت تضع ملابسها السوداء على حبل غسيل منصوب على مسمارين في حجرتها، وتقول إنّ العتّة «بتاكل المتكوّم في الدواليب»، تقول بافتخار على أثوابها السوداء «قطيفة مكّيّة.. حرير يمني.. طرحة هندي طبيعي». لم تكن جدّتها تخرج، ولم ترها تلبس حرير الهند، ولا قطيفة اليمن.. تُندّي ملابسها السوداء استعدادًا لخروج ما، في مناسبة، كموت إحدى العجائز. فواجب العزاء وحده هو الفرصة المتاحة أمام حبال الانتظار. ماتت الجدّة فجأة، ولبست العجائز الأخريات ملابسهنّ المندّاة السوداء المعطّرة، وجلسن في العزاء يعدّدن مناقب المرحومة بحبور.. أمّها أيضًا صارت تلبس عباءة سوداء في النهاية. وفي المرّات القليلة التي رأتها تخرج لزيارة الأطبّاء، كانت تقول على العباءات السوداء «أهي سُترة والسلام».

تتحسّس هند شعرها وهي تسير على الجسر. تتذكّر كيف كان شعرها طويلاً أسود، يغطّي في طفولتها ضمورها وصغر حجمها، ويمتصّ كلّ قوّتها. تضفّره في ضفيرة واحدة؛ فتغضب أمّها وهي

تضفّره، وتقول شعرك مثل «سبيب الخيل». . لا تعرف هي ما هو «سبيب الخيل». تعرف أنّ شعرها يوجعها وأمّها تمشّطه، ولا تحبّ الضفيرتين لتبعد عن شعرها أعين الحاسدين. في الصور القديمة تجلس بضفيرتيها الطويلتين. . ليست جميلة، صامتة وملتاثة في شعرها الطويل الذي لم ترثه من أحد. تقول أمّها إنّها توحّمت على شعر أبلة نادية، فتعرف هند أنّ نادية كانت مدرّسة الموسيقى التي وطئت تلال فرعون قبل مولدها، وكانت تعلّم أمّها طواقي الكروشيه. وهي التي صنعت لها الثوب التريكو الأحمر الذي يظهر في الصور، وتركت لها هذا الشعر الطويل الأسود الثقيل الذي لم يشهدوا مثله في تاريخ الأسرة، ثم عادت إلى بلاد البحر كما جاءت، وظلّ اسمها يتردّد حين يتحدّثن عن شعرها. .

حين تكبر سوف تحوّل تلك الضفائر إلى كعكة مكدّسة بالمحابس؛ لأنّها لو حاولت فَرْدَه على ظهرها، ستقول لها أمّها بوضوح: «لمِّي شعرك»، فتلمّه معتقدة أنّه يخفي ملامح وجهها النحيل. ولن تقصّه برغم اشتهائها ذلك، لأنّ أمّها أيضًا ستقول لها: «هو انتِ فيكِ إلّا شعر». الرجال الذين أحبّوها أيضًا صرّحوا بهوسهم بشعرها الذي صارت تكرهه. وفي ليالي أرقِها الكثيرة، وهي تحاول الهرب من ثديها الذي ينزّ باللبن، ومن رائحة الرضاعة؛ ستكتشف أنّ طفلها قد لفّ شعرها بقوّة حول يده ونام مطمئنًّا، بعد أن نصب لها الشرك الذي يصعب الفكاك منه. تقضي وقتًا خرافيًّا في محاولة تسليك خصلات شعرها من بين يديه، لكنّ

النتيجة دائمًا ستكون استيقاظه وهو يفتح عينيه بجزع، ثم يعاود لفّ أصابعه الصغيرة بقوّة أكبر حول خصلات أكثر قليلاً، وما زال يلفّ الخصلات بين أصابعه لينام، وتنام وهي تفكّر بقصّه كلّ ليلة. ظلّ شعرها يهدّد وجودها ويذكّرها بحساسيّتها المفرطة، يتساقط ويترك فراغات كالقراع بائرة من الشعر. في اكتئاباتها الكثيرة يتقصّف ويَنْحُل، يستجيب لحزنها وغيرتها وإحساسها المضني بالوحدة. شعرها أيضًا سوف يرسم الكثير من الأدوار التي مثّلتها في الحياة.

يقول لها مدرّس العربيّة، بعد أن رجع من اليمن وحجّ وتاب إلى الله، إنّ شعرها فتنة؛ فتخفيه تحت براقع من الخوف. كان مدرّس العربيّة دائمًا بارعًا في التصدّي للفتن؛ فصدر هذه الطالبة ضخم، وينبغي أن تسدل خمارها عليه، ومؤخّرة تلك الطالبة عالية تبرز من تحت المريلة ويجب أن تخلع الحزام من وسطها، وتلبس ملابس فضفاضة.. كان بارعًا في التقاط مواضع الغواية، ويتذوّق الفوارق بين كتل الأجساد التي ما زالت تنمو. تغطّي هي شعرها وتتقرّب إلى الله بقصّه مرّة بعد مرّة؛ فتندم لأنّها تفقد صورتها القديمة، ولا تجد في المرآة من يشبهها. تخبّئه لأنّ كلّ شعرة منه سوف تقودها إلى نار جهنّم.

كان شعرها هو ساحة كلّ المعارك. تقصّ خصلة منه وتهديها لمن تحبّ، كشعيرة للإخلاص التامّ له. تجذبها أمّها منه، وتقول: «إنتِ عايزة تمشي على حلّ شعرك؟»، تهدّد بإشعاله إذا لم يتركوها

تتزوّج من تحبّ، وتعيش حرّيّة اختيارها. تتركه بعد ذلك حرًّا طليقًا، معبّرًا عن حرمانه الطويل، تحت غطاء الرأس والخوف. يسقط بغزارة في مشاهد الخيانات الكثيرة، ويترك آثاره فوق الوسائد وفي أسنان المشط، وفي شقوق بيت أبيها. تجمع شعرها الجدّة زينب رحمها الله في أكياس من القماش، ثم تدفنه في الرمال لتحصّنها من الشقاء والأعمال السفليّة، بعد أن اكتشفت أنّ هند «نجمها خفيف.. ومرصودة.. وعرشها طاير». لكنّ ذلك لم يمنع من شقائها التامّ. ومبكّرًا صارت هند تعاني من آلام الشقيقة، من مفرق شعرها يأتي الألم ولا تنفع الحبوب التي تبلعها في علاج تصدّع رأسها إلى شقوق من الوجع. تضمّها أمّها وتضع رأسها على حجرها لأنّها تبكي كثيرًا، وتقول لها بأسى من خبرت قبلها مرارة وجع الشقيقة وانحناء الظهر، وتقلُّب حال الرجال: «يروح في داهية يا بنتي.. الرجّالة كلّهم لا يأتي من وراهم غير وجع الراس. أنتِ ح تموّتي روحك؟ انسيه..». تحاول. فلا تنساه.

أمام المرآة تقف متأمّلة خصلاته التي تسقط بعد أن جزّتها بيدها، كان شعرها متكوّمًا على الأرض كخليط من الذكريات، جمعته وألقت به في سلّة النفايات، لم تبكِ ولم تفرح أيضًا، فقط أحسّت أنّها تسير الآن حرَّة وطليقة كما اشتهت، وتركض على جسر بروكلين بهذا المعطف الذي انتقته بعناية، والذي ينمّ عن ذوقها في الملابس التي تفضّلها سوداء فضفاضة، كاجوال، تضيف إلى عمرها حفنة سنوات احتياطيّة، وتنساب بكرم لإخفاء ما

تحرص هند على إخفائه من ترهّل. تسير بشعر قصير أسود، وخطى حذرة، في ملابس حشمة ووقار، تنظر في الأرض فيعتقد المارّة في الأفينيو السابع أنّها يهوديّة متديّنة، فيهدونها إعلانات «بيت ألوهيم»، وينادونها بـ «سيّدتي اليهوديّة الصغيرة»؛ تضحك لأنّ اليهود في وليامزبرج والأفينيو الثالث عشر، كلّما سارت بين محالّهم القديمة لإصلاح الساعات، يتكهّنون بأنّها يهوديّة مشرقيّة ومع ذلك يعتبرها «اللاتينيّون»، بامتلائها وشعرها الأسود، هسبانك، والهنود أيضًا يهزّون لها رؤوسهم إذا كحّلت عينيها وتلوّحت بشرتها الخمريّة في الشمس، ويقولون لها «كشميري؟»، أي أنت من «كشمير». عدد آخر من النازحين يرونها تشبههم. تهزّ رأسها وهي تسير في معطفها الطويل الذي تجد فيه الآن هويّة بديلة. ثم تنظر في المرآة ولا ترى روحها ولا البنت الصغيرة التي كانت تعبر المجموعة ومدرسة مقاوي وتسير على الطريق الترابي وراء غبار الغجر، ترى فقط مجرّد امرأة وحيدة تشبهها.

# ١٢ فصل البرد

يحمّل العرب الريح منذ القدم معاني كثيرة، ربّما أكثر ممّا تحتمل. يتفاءلون بها ويتشاءمون منها، ويطلقون عليها أسماء لا تُعدّ، فهناك ريح السموم وريح البشارة وريح الجنون. تحمل الروائح وتبشّر بالقادمين، وتنذر الظالمين، وتترك القرى الظالمة خاوية «كأعجاز نخل منقعر». يحمّلونها أحلامهم أيضًا، فالريح تحمل أنفاس المحبوبة وبشائر المطر. يقول العرب أيضًا: «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن»، لكنّهم يؤكّدون لأنفسهم «والرياح مسخّرات بأمره» ليصبح كلّ شيء مقدّرًا سلفًا، ومسخّرًا لتحقيق الإرادة الكبرى، التي ليس لهم فيها حيلة.

هبّت رياح الخماسين في الربيع على العلواية. حرّكت الرمال

فوق الربوة حيث كانت هند تجلس بجوار أبيها أمام المضيفة.
تساقط ورق أشجار الكافور وامتلأ الجوّ بالغبار ورائحة الكافور والموتى. قال لها أبوها: «تلك ريح اليود». لم تكن تعرف معنى للكلمة، فلم تعلّق. فأكمل: «إنّ الفرس وأهل خراسان كانوا يسمّونها كذلك.. «يود» أي ريح الحنين». هزّت هند رأسها فقال لها الأب موضحًا: «هل تعرفين لماذا أسموها كذلك؟ لأنّها أرواح الموتى. يحنّ الموتى لمن بقي لهم على قيد الحياة فيأتون على هيئة ريح خفيفة. يأخذون بعض أحبّتهم مع هبّة الريح ويرحلون».
خافت هند ولم تعلّق. قال لها: «هل تعرفين لماذا يدلّكون أجساد الموتى بأوراق الكافور بعد الغسل؟». هزّت هند رأسها نافية ونافرة من سماع بقيّة الحكاية. خافت للمرّة الأولى من نبرة صوت أبيها، ارتعشت من عينيه اللتين تبحران بعيدًا عنها. قالت له إنّها تحبّ قصّة بنت الملك النعمان، وتخاف من تلك الحكايات الأخرى. وضع الأب يده على كتفها وسارا جنبًا إلى جنب.
صارت هند رفيقه الوحيد بعد أن سافر شامل الصيدلي إلى ليبيا، وهاجر أميل الناظر عند أقاربه في كندا، وصار الموظّفون الجدد لا يهتمّون بالمضيفة ولا صاحبها، وفضّل كثيرٌ من المتخاصمين أن يحلّوا قضاياهم وخلافاتهم في المسجد، طبقًا للشرع والدين وسُنَّة الله ورسوله. وارتدت فاطمة القروميّة «إسدالاً» أسود طويلاً، وافترشت الأرض أمام مسجد النور لتبيع المسك والسواك والمصاحف وطواقي الرجال والكتب الدينيّة، وبعض وصفات

الطبّ النبوي لعلاج ضيق التنفّس ووجع الرأس وما إلى ذلك من بضائع. يفترش جسد فاطمة القروميّة الضخم الأرض فتبدو مثل جمل بارك، كتلة من الشحم ما زالت تهتزّ، وهي تقول للعابرين بعد أن تطلق ضحكتها الشهيرة: «أعمل إيه يا ابن خالي، أنا تاجرة واللي يتباع في السوق أفرش وأنادي عليه».

ما زالت تلال فرعون، رغم تغيّراتها العمرانيّة السريعة، تحتفظ بمرتفعات وعرة، وأحراش تسرح فيها العقارب. لا تعرف هند متى بدأ اهتمام والدها بحياة الحشرات، وصار يجمع بكلّاب من الحديد العقارب الصفراء التي تخرج ليلاً من جحورها حول العلواية. تسير بجانبه حاملة كشّافًا من ضوء الفلورنس الذي يكشف حركة الحشرة بسرعة. يلتقط الأب العقارب الصفراء بالكلّاب ويضعها في برطمان من الزجاج المحكم، في غرفة من غرف المضيفة، كانت غرفة نوم الضيفة في يوم من الأيّام البعيدة، يضع البرطمان. تهبّ من الغرفة روائح الضيفة حتى الآن. تشمّ هند عطرها الذي هو خليط من صابون زيت الزيتون والمسك والنعناع والكافور، وأوراق أخرى كانت تضعها الضيفة في طيّات ثيابها. ماتت الضيفة واهترأت الثياب بالطبع، لكن بقيت الرائحة القويّة تهبّ، كلّما فتحوا غرفتها المغلقة. يدخل الأب ومن خلفه هند إلى تلك الغرفة، يضع الأوعية الزجاجيّة حاوية العقارب على إفريز الشبّاك. تنظر هند إلى الشبّاك القديم حيث كانت الضيفة تضع صينيّة القلل ولمبة الجاز السهاري، وتعلّق على سياجه

الخشبي قرون الفلفل الشطّة، وحبّات العنب والتين لتجفّ. الإفريز الذي كانت الضيفة تضع عليه أطباق البصارة، والكشك، كي تظلّ باردة وسليمة من العطب. تنظر هند إلى حافّة الشبّاك الذي يطلّ على العلواية، الشبّاك الذي تدخل منه ريح الشمال الباردة، وكانت ترى من خلفه النجمة البدريّة في الغسق، مشرقة وبهيّة. الشبّاك الذي كانت الضيفة تراقب منه تغيّر ساعات النهار وتبدّل الفصول وتقول لها: «إنّ هبّة الريح من ضلفة هذا الشبّاك ولا مراوح الجنّة». تقف هند الآن بجانب أبيها في الشبّاك نفسه ويضعان العقارب الرمليّة الصفراء بحذر في برطمانات الخيار المخلّل الزجاجيّة الشفّافة ثم يغلقونها بعناية ويتركونها على إفريز الشبّاك. يُحكم الأب إغلاق غرفة الضيفة وراءه. يقول لها إنّه بصدد اكتشاف دواء لداء السكّري من سمّ العقارب. تفرح هند لأنّها تشارك أباها عملاً عظيمًا. وربّما لأنّها صارت رفيقة الأب في وحدته المؤكّدة. تسير معه من المضيفة للعلواية. ومن عزبة التلّ إلى البيت، يسيران فيتأمّل الغرباء الذين يحيّونه أيضًا، ثم ينشغلان كلّ يوم في اصطياد بعض العناكب كطعام للعقارب، وهو يؤكّد لها نظريّته عن حقن الجسد بكمّيّة قليلة من سمّ العقرب، وكيف يقوّي هذا السمّ المناعة. ويؤكّد الأب لهند التي تحبّ أن تصدّقه، أنّ العرب والبدو مثله يعرفون تلك الحقائق، لأنّهم كانوا على الفطرة. يعتقد الأب أنّ بول الإبل أيضًا له فوائد كثيرة، لكنّه سيركّز أفكاره الآن حول العقارب. صارت تربية العقارب سرّهما

المشترك الذي لم يطّلع عليه أحد. بعد أن جمعا عددًا لا بأس به من تلك الحشرة. صارت هند تستطيع التمييز بين الذكر والأنثى من خلال الملاحظة. لم تعد تشعر بالخوف منها، والمرّة الوحيدة التي خافت من مشاهدتها كانت لحظة التلاقح. شاهدت هند تلك الرقصة الطويلة التي استمرّت بضع ساعات، كان العقرب الذكر يروح ويجيء مغازلاً، ثم يدور حول الأنثى. يقتربان ولا يتلامسان يدوران في رقصة تانجو حذرة طويلة. يدور الذكر والأنثى قربًا وبعدًا ولا يتلامسان. يتعب الذكر فيلقي ببويضاته على الأرض لتدفع بها الأنثى في جوفها مستخدمة أرجلها الخلفيّة. تمتلئ الأنثى وتنتشي وتقف برهة بلا حراك، بينما يركض الذكر صاعدًا حوافّ البرطمان الزجاجي، يركض بلا انقطاع ولا يجد مخرجًا. تتحرّك أنثى العقرب الممتلئة بالبويضات في خطى واثقة. رافعة ذيلها السُّمِّي بتحفُّز. يقفز الذكر ولا يجد مخرجًا. يتحوّل بين فكّيها إلى قطع صغيرة تأكلها بتمهّل ثم تدخل في سبات عميق لعدّة أيّام. لن تنسى هند هذا المشهد طوال حياتها، بعد أسابيع من السبات تستيقظ الأنثى، تحمل لأسابيع على ظهرها الأجنّة الصغيرة، تتحوّل خلالها الأجنّة بعد فترة الحضانة على ظهر الأمّ إلى عناكب سريعة الحركة. تدور مثل ذكر هارب. تركض على حوافّ زجاج البرطمان، تدور جائعة ومهتاجة. تستسلم العقرب الأمّ ولا تتحرّك. تتجمّع العقارب الصغيرة حول جسد العقرب الأمّ ثم تبدأ دورة حياتها بالتغذّي على الأمّ. صارت هند ترى في

أحلامها هذا المشهد المرعب فتبول على نفسها وهي في الثانية عشرة من العمر. ذات صباح بعد أن بلّلت هند فرشتها وبكت لأنّها لا تستطيع إيقاف هذا العار، انفجرت أمّها في عتاب حادّ قائلة للأب: «حرام عليك.. البنت عرشها خفيف وأنت بتخلّيها تربّي معاك في العقارب». اضطرّت هند بعد ذلك لأسابيع كي تتوقّف عن متابعة بقيّة مشروعاتها المشتركة مع الأب، مثل تربية دودة القزّ، والعثور على الأرملة السوداء، ومتابعة تلاقح السحالي الصفراء. ولم ينجح الأب بعد كلّ محاولاته العلميّة في اكتشاف علاج لمرض السكّري. ويبدو أنّه توقّف عن ملاحقة ذلك. هجر العالية والمضيفة، وصار يجلس فقط في البلكونة الشرقيّة ويحكي لها قصّة سيّدنا سليمان. كان سليمان قد مات منذ زمن طويل. مات وصعدت روحه لخالقها لكنّه بقي بجسده فقط متّكئًا على عصاه ليكمل الجنّ بناء الصرح، ولم يدلّهم على موته إلّا دابّة الأرض التي قرضت منسأته، فانحنى الجسد الذي كان يدّعي الصلابة. مات الأب أيضًا على الكرسي الخيزران في البلكونة الشرقيّة. هبّت رائحة الكافور من على العلواية وعبرت الريح فأخذت الروح وتركت جسده متسنّدًا على عصاته، ممسكًا كتفه اليسرى حينما سال لعاب الموت من فمه. بعد أن مات الأب سقطت الأمّ في صمت عميق. لم تعد تصرخ في وجهها، ولم تعد تغضب أو تضحك، صارت فقط تجلس كلّ مساء في البلكونة الشرقيّة على مقعد الخيزران الهزّاز، وتحطّ عينيها على الحبل

الطويل المعلّق، الحبل الذي ينعقف طرفه في غصن شجرة التوت وطرفه الآخر في عمود البيت، ظلّ يتأرجح أمام بصرها مذ جاءت منذ سنوات بعيدة من بيت أبيها. في النهار كانت تعلّق عليه ملاءاتها البيضاء الملوّنة بالدموع والعرق وسوائل المحبّة. كان الحبل يستنشق أيضًا روائح الأرواب الزاهية التي أخفى تحتها قمصانًا أكثر شهوة، ويضمّ قطع الملابس الحريريّة الحميمة. يهتزّ بشغف حين تهفّ عليه رائحة البنفسج واللافندر من ثنايا القماش فيتأوّد أكثر، بعد سنوات، كان الحبل يضمّ قطعًا أكثر دقّة لها رائحة حليب وبول وريق الأطفال على اللفائف المبلّلة. تأرجح الحبل في الشمس أكثر وابتسم.

في الليل كان يمتدّ وحيدًا بين فضاء وفضاء، يشاهد البلكونة التي تطلّ عليه، ويسمع الحواديت التي تأتي من فوق الحصيرة السمار. وفي النهار كان يدرك أنّه يتأرجح بين غرف الغسيل والطبخ، يشمّ رائحة الخبز والعجين، وانسكاب بقايا الأطعمة للديوك والأفراخ. تتأمّل الأمّ الحبل الوحيد يراقب مثلها الأعراف وهي تهتزّ على جذع التوتة والعصافير التي تستند عليه، وصراخ الأطفال وهم يجذبونه في مرورهم السريع تحته، لا يعبأون إن كانت الشمس تدفّئه أو الريح تناوئه، أو يلاحظون الغبار الخفيف وهو يتراكم على حوافّه. كانت الأمّ تجلس في الشرفة تشاهد الأطفال حين يكبرون، يتركون للأمّهات أسفل العينين خطوطًا طويلة متعرّجة مجعّدة مثل حبال الصبر، خطوطًا دقيقة حول عينيها

أو أعلى الجبهة، خطوطًا ليّنة مثل خيوط الأرق، يراقب الحبل تلك السيّدة الصغيرة التي كبرت أمامه، وجلست مثله كفاصل من الوحدة المطلقة، يتجاذبان صمتًا بصمت، يراقب أحدهما الآخر كشريكين في جريمة. يهتزّ الحبل أحيانًا فتنفرط من ثناياه بقايا تلك الروائح لأرواب بلون الفستق والاشتهاءات الليليّة، شرائط الشعر والجوارب والصدريّات التي علق الحليب بها. ابتسمت الأمّ الجالسة في الشرفة ذات مساء وهي تتأمّل الحبل القديم. ثم دخلت، وأغلقت الباب خلفها، ولم يرها الحبل بعدها.

كانت هند تسير باتّجاه الأفنيو الرابع، كعادتها عندما هبّت «ريح الحنين» على أشجار بروسبكت بارك. هفّت أشجار الحور الأبيض والفضّي وأشجار السرو والبلّوط المعمّر برائحة أخّاذة، وعلى الرّغم من أن الناس لا تتوقّف كثيرًا حول هذه الأشياء، خصوصًا في مدينة كبيرة مثل نيويورك، يركض البشر فيها طوال الوقت، ولا يتوقّفون حتى لمراقبة ملامحهم وما تغيّر فيها. ويصبح تقلّب الفصول مجرّد حالة طقسيّة موسميّة ترتبط بالشهور والأيّام ولا تسترعي انتباه أحد. إلّا أنّ هناك من لاحظ أنّ حركة الكواكب في السماء كانت حالة استثنائيّة أيضًا. فقد تكاثفت الكواكب المتناثرة والمعاكسة لبعضها البعض عقودًا طويلة، ورسمت خريطة عجيبة تحدّث الفلكيّون باستفاضة في شرح علاماتها، وقالوا إنّها تتكرّر كلّ خمس وأربعين سنة يسمّونها: (يود) ومعناه إصبع الله، ويسمّيها العجائز (رياح الحنين). خلال تلك الفترة تصبح

الكواكب كلّها فجأة تسير في الاتّجاه المعاكس، أي تتراجع. وربّما يكون من الصعب تفسير كيف تسير الكواكب إلى الخلف. ولكن هذا التراجع افتراضي. كأنّك تقود سيّارة مثلاً، ثم أصبحت الأشجار البعيدة التي كانت أمامك قد صارت خلفك. في الحقيقة أنّ الأشجار لا تتراجع، والأفلاك لا تتراجع، فقط تبدو كذلك. تصادف أن تراجعت ثلاثة كواكب فلكيًا هذا الربيع، فأحدثت هذه الحالة العجيبة التي سُمِّيت أيضًا برياح الحنين. تراجع كوكب الذاكرة ميركري في برج الجدي وكوكب ساتورن في برج الميزان وأورانس في برج الحوت. فاهتزّت الأرض من تلك الحركة العنيفة للكواكب. تعجّب الناس كيف أنّ كلّ ما تركوه وراءهم من ذكريات بعيدة صار أمامهم فجأة، وأنّ الأشياء التي مُحيت من الذاكرة، وصار بين الناس وبينها بلاد وعباد وقوافل سيّارة ـ كما يقول العرب ـ صارت تلك الأشياء على البال والخاطر. أصبح الماضي الذي فات وانقضى حاضرًا. بل أصبح يعصف بهم من جديد. صحيح أنّ التراجع سُنّة من سنن الحياة التي نفهمها متأخّرًا، يأتي التذكّر والنسيان، والحنين مثل هبّة ريح، خالقة ذلك المدّ والجزر في البحار البعيدة. صدّق البعض ما قالته جوجو قارئة الأبراج في الأفنيو الرابع التي تضع جعرانًا فرعونيًا وضفدعًا طينيًا أسمته الآلهة سخمت حارسة مقابر البرّ الغربي في تلال الفراعين. وعلى الرّغم من أنّ صديقتها الروسيّة المقرّبة إيمليا قالت للبعض (لا تصدّقوها، هذا هو خرف العجائز)، فقد صدّق

البعض أنّ حركة الكواكب التي اجتمعت لرسم صورة الوجود أثارت هذا العبق الذي تشمّمه المارّة في بروسبكت بارك، وهم يتجمّعون في دوائر ليشاهدوا الخسوف الكلّي للقمر في مدينتهم، ويتحدّثوا عن النجوم والطوالع وسوء الحظّ. كانت الحديقة مزدهرة كما لم يرها أحد من قبل، وأشجارها المعمّرة تزهر وتسقط زهورها البيضاء لتفترش الأرض. وكانت رائحة الحنين تدفع بالناس لافتراش ساحات البيوت والجلوس على الأرصفة والمقاعد، يبحثون عمّن يتبادلون معه تحيّة الغرباء. يبتسمون ويدخّنون السجائر ويلعقون الآيس كريم في الأفنيو السابع حتى الصباح، سمّى البعض ذلك بهجة عيد الفصح، لكنّ الغرباء تملّكتهم شهوة الكلام عن بلادهم البعيدة. جلس ناراك في دكّانه يراجع حسابات المكسب والخسارة، ويفكّر في الأعياد المقبلة. ثم احتضن كمانه وراح في نوم عميق. قال قبل أن يأخذه النعاس لصديقه: «أنا أشمّ ريح الجنّة يا نجيب..». قهقه نجيب الخليلي، وهو يراقب العشّاق على العشب الأخضر وهم يتبادلون القبلات، ويبحث بعينيه منتظرًا بلهفة أن تعبر ليليت في معطفها الصيفي المخملي، ليحدّثها عن أشياء صار يتذكّرها أكثر مثل سوق الجمال وأسماك العتبة ورائحة البنفسج في جاردن سيتي القديمة. يدور في البارك بحثًا عنها لكنّه لم يجدها. ولن يقول له أحد إنّ ليليت كانت تنام منذ ثلاثة أيّام في فراش أبيض في المشفى المطلّ على شارع البارك، وإنّها فقدت قدرتها على الحركة. صارت تقول لمن

حولها: افتحوا النافذة،.. يدخل الحنين من النافذة، جالبًا لها رائحة بعيدة. رائحة أشجار الجوّافة والتوت البرّي والمستكة والتمر حنّة من حديقة بيت قديم تركته على النهر، بيت كانت تتسلّق شرفَهُ أزهارُ البنفسج والجهنّميّة المبهجة. وفي أحواض صغيرة نما الفلّ وعطر الربيع ببهجة. كانت على المقعد تهزّ في طفل صغير في ملابس بيضاء وتضحك، فيبتسم رجل أنيق يشرب الشاي المعطّر بالقرنفل ويدخّن سيجارة الساعة الخامسة قبل أن ينشغل بأغصان شتلة الياسمين التي يشدّها بالحبال، كي لا تنفرط على الحوائط، وتظلّ معلّقة في الحبال التي تتسلّقها لسطح الفيلّا الصغيرة، فيبتهج لأنّه يحبّ أن تصبح الأشياء منسّقة وأنيقة ومثيرة للبهجة.

أغمضت ليليت عينيها ثم رحلت. لن ترى بعد ذلك طفلها الصغير منحنيًا على صدرها، وقد صار شابًّا بهيًّا، ورجلاً تجلس بجواره زوجته وعدد من معارفه في الجالية الإسلاميّة أتوا ليقفوا بجانبه في مرض والدته الذي يصل إلى نهايته، حين يقول له أحد الأطبّاء «إنّها تشكو الهزال والضعف.. وذاكرتها دُمِّرت بالكامل. ربّما فقدت كلّ ما تبقّى لها من قدرة على الإدراك.. عادة يفقد المريض قدرته على الحياة والرغبة في الحياة. صحيح نستطيع أن نعيش سنوات بمرض النسيان لكن أيضًا في النهاية بعد عدّة سنوات يموت المريض». يهزّ عمر عزّام بأسًى رأسه. ثم يكمل القراءة في مصحفه. يجلس بجوار النافذة المفتوحة ويتأمّل وجه ليليت

الشاحب، ينحني ويكشف ساقيها ليدلّك بالكريمات آثار قروح الفراش على جسدها. يتأمّل لون بشرتها. آثار الولادة على بطنها، بقايا حبّ الشباب على وجهها، يتأمّل صدرها الذي لم يرضعه، وضعفها الذي ادّخرته له وحده. تهبّ عليه روائح أشجار الليمون والبرتقال في حديقة بيت حلوان حين يفرش الزهر الأرض بسجّادة من الزهور البيضاء الرقيقة، ويسمع أزيز النحل ويرى شبح امرأة صغيرة منهمكة في رسم لوحة لطفل يبكي.

مع تدهور صحّة ليليت يصبح وجود نزاهات مهمًّا. فهي التي تقوم بتغيير قسطرة البول، وتعتني بجسد ليليت المستسلم لسكينة ما قبل الموت، وتقلّبها على جهات جسدها المتعدّدة لتتفادى قروح الفراش التي تركت علامات محزنة في كلّ بقعة من الجسد. تراقب نزاهات الضغط، والمحاليل. بينما تناقش أريكا مع عبد الكريم الكردي آداب غسل وتكفين الموتى في الإسلام، وضرورة أن يُدفن المرء في أرض الإسلام أو مقابر المسلمين. وكان عمر يمسك المصحف ويقرأ آيات كثيرة عن الموتى والأحياء ويرى طفولته كلّها دفعة واحدة.

بعد ثلاثة أيّام، أغمضت ليليت جفنيها إلى الأبد في أحد أسرّة مستشفيات بروكلين. هزّ الحنين زجاج النوافذ ودخل. لمس روحها فرحلت معه. سافرت وحدها كما جاءت من بلاد بعيدة. انشغل الناس من حول جسدها بترتيبات الدفن. أحضر عبد الكريم

الكردي عربة تكريم ودفن الموتى، وركضت نزاهات لتخيط الكفن الأبيض. وانشغل ابنها عمر بإجراء دفنها على الطريقة الإسلاميّة، وبعد أن تأكّد الجميع من أنّها لزمت لحدها على سنن الموتى وفي مقابر المسلمين بنيوجرسي، مضى كلّ إلى انشغالاته الكثيرة.

على ناصية الأفنيو الرابع كانت هند تسير كعادتها بجانب إميليا حين شاهدا الفتاة التي اسمها دويج، والتي جاءت من هايتي وتخصّصت في نظافة البيوت. كانت دويج مشغولة عن تبادل الكلمات معهما، لكنّها قالت باختصار إنّها تنقل محتويات شقّة سيّدة عجوز كان اسمها ليليت ماتت منذ أيّام، وعليها أن تعبّئ محتويات شقّتها كلّها في صناديق ورقيّة، ثم تحملها لتصفّها على رصيف الأفنيو الرابع بعد أن تترك فوقها تلك العبارة:

«خذني لو أردت». يعبر المارّة، يلتقطون ما يريدون، وما بقي ستحمله عربة الحيّ في الصباح الباكر كنفاية لا حاجة إليها.

يلتقط محبّو الموسيقى أسطوانات ليزا مانلي وفرانك سيناترا، ويتركون أسطوانات فتحيّة أحمد وليلي مراد خلفهم. ويقلّب البعض في الأثواب الحريريّة التي تشبه فساتين مارلين مونرو وصوفيا لورين، بالديكولتيه المفتوح في إغواء فيقولون بولع: «فنتج». أيّ شيء قديم نفيس نادر. يعبثون في الأرواب الستان والأغطية والشراشف ذات التطريز العربي والأغاباني الفارسي،

وقطع الساري الهندي والوسائد المطرّزة، والحقائب ذات الموديلات العتيقة. تقف إميليا بعربتها وتبدأ اقتناص وليمتها من الأحذية بسرعة وبيد مدرّبة. تعرف ما تريد أن تأخذه ولماذا؟ تتفقّد الأحذية السبعينيّة ذات الكعب الغليظ، أحذية مدبّبة كما في أفلام الإغواء، أحذية طبّيّة لعجوز كانت تسير في البارك، أحذية تعبت من الاستخدام، وأخرى لم يضعها أحد في قدمه. أحذية من ماركات معروفة وأخرى شعبيّة ومتداولة إلى جانب وليمة الأحذية. تعبث هند في صناديق الكتب الكثيرة المكوّمة في الصناديق. كانت المرّة الأولى التي ترى فيها كتبًا بالعربيّة كألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني، والنبي لجبران وكتب أخرى من الشعر الفارسي.. كتب رأتها وعرفتها ووضعت علامات قلمها حول صفحاتها. قلّبت هند أكثر في الصناديق والوسائد والأغطية والملاءات السماويّة المطرّزة. قالت لإميليا: «أشعر أنّني أعرف هذه الأشياء؛ طقم الشربات الكحلي المذهّب هذا كان في جهاز أمّي واحد مثله.. أتعرفين أيضًا طقم الصين السفر أبو وردة تيوليب والله كان في دولاب الفضّيّة في بيت جدّتي الشريفة الله يرحمها.. وعارفة الفستان الشيفون ده أنا شفت أمّي متصوّرة به، لو معايا صورتها كنت رأيت بعينيك صحّة ما أقول». تضحك إميليا المشغولة بالتقاط الأحذية قبل وصول عربة الحيّ لجمع النفايات ثم تقول: «يبدو أنّ السيّدة التي ذهبت كانت من أصول عربيّة أو مغربيّة لكن

من الأغنياء». تمرّ سيّدتان روسيّتان فتتبادلان الكلمات مع إميليا ثم تلتقط إحداهما باروكة من الشعر المستعار وتمضيان بسرعة، تقولان «إنّ الواحد يجد أشياء كثيرة في هذه المدينة، لكن للأسف البيوت ضيّقة»، يُبدي الكثير من المارّة إعجابهم باللوحات الملقاة في الصناديق الخشبيّة ولكن لا يحملون شيئًا. فمشهد الأشياء الملقاة يتكرّر كلّ يوم. ويتردّد المارّة كثيرًا قبل حمل القطع التي لا يجدون لها مكانًا في بيوتهم. يعبر محترفو الأنتيك وقطع الأثاث القديم فيلتقطون بعض الأشياء النادرة بمهارة وسرعة ويرحلون. تتكوّم هند بجانب صندوق أوراق امرأة كانت تعرفها من بعيد. ما يزال جسدها أخضر في مقبرة من مقابر المسلمين.

«نيو جرسي»، تقلّب هند الأوراق التي جمعت فيها أوراقًا ومذكّرات وصورًا قديمة كانت في صندوق آخر، إلى جوار الشعر المستعار والأثواب التي أحبّت وركضت ونعست فيها امرأة ما، فتقول بأسى لإميليا: «لماذا يلقون بكلّ ذلك دفعة واحدة؟ أليس لها أقرباء؟». تردّ إميليا وهي تتنهّد: «ربّما ليس لها أبناء يا عزيزتي. وحتى لو كان لها. . أين يمكن أن يضع الأبناء كلّ هذه الأشياء القديمة؟». تراقب هند خطوط القلم الرصاص على اللوحات والاسكتشات التي رسمت فيها تلك المرأة بورتريهات عديدة لوجهها، ثم تقول: «انظري يا إميليا. . كيف كانت تلك ليليت في شبابها. . تشبهني أليس كذلك؟ أليس هذا خدشًا قديمًا

أسفل جفنها مثلي؟ انظري». تبتسم إميليا المشغولة بتقليب الأحذية وتقول لهند: «كلّ العرب متشابهون يا بنيّتي وأنا لا أعرف كيف أميّز بينهم في الحقيقة». تمدّ هند ساقيها على الرصيف وتقرأ الورق القديم المخبّأ في حقائب امرأة كانت تراها من بعيد، جالسة مع نجيب الخليلي. لكنّها لم ترها بهذا الوضوح إلّا الآن.

تقلّب أوراقها، تلك الأسرار التي خبّأتها في القصاصات والخطابات والصور، في صناديق ملقاة على رصيف الأفنيو الرابع. كانت ليليت مستباحة أمام المارّة. تتأمّل هند صور عمر عزّام الذي صار يملأ السمع والبصر. الصور التي كانوا يرسلونها إليها من القاهرة لتراقب نموّه واختلاف ملامحه وهو بعيد عنها. خلف كلّ صورة تاريخها الخاصّ (القاهرة ١٩٧٥.. ماما وحشتيني. ابنك عمر) يصيب هند هذا الدوار، وينزّ صدرها باللبن الذي يخجلها، لأنّها لم تعد تستطيع أن تبكي، فقط يتبلّل صدرها باللبن كلّما لفّها الحنين. تمسك صورة الطفل الذي صار في الصور في مثل سنّ طفلها، مبتسمًا راكضًا، ثم تقول لرفيقتها المشغولة بتقليب الصناديق بنهم وصبر: «انظري يا إميليا.. انظري أليس هذا الولد يشبه ابني؟». تتلعثم إميليا التي لا تجد الوقت لتنظر لشيء، ثم تقول لها: «ربّما، ولكن يا صغيرتي الأطفال كلّهم يتشابهون في البداية، ثم يتغيّرون ولا أحد يستطيع ملاحقة تشابههم». تطرق هند برأسها وتفكّر أنّها عاشت هذا الدوار من

قبل وأنّها في لحظات كثيرة تفكّر أنّها عاشت هذا الموقف من قبل وأنّ حياتها...

تقول هند التي تعبت من استجابة صديقتها أو فهمها لما تقول: «إميليا أشعر أنّني أعرف هذه الأوراق... وأنّني كتبت كلّ كلمة فيها.. أشعر أنّها أوراقي وأنّ تلك الخطوط بالفعل خطّ يدي ولا أعرف كيف أخذت تلك المرأة التي ماتت كلّ ما أردت أن أقول وأكتب». تبتسم إميليا باقتضاب لأنّها مشغولة ثم تقول لها: «إنّها أوراقك يا صغيرتي، فالسيّدة التي كتبتها بالتأكيد قد ماتت، وكلّ شيء ملكك الآن، يمكن أن تأخذيه وتعتقدي ما تشائين أنّها كتابتك. من سيقول غير ذلك؟ يمكن أن تعتقدي ما تشائين يا صغيرتي». تقول لها هند وقد صار صوتها أكثر حيرة: «أنت لا تفهمينني.. أنا فقط أشعر أنّني عشت ذلك من قبل. كتبت هذه الكلمات وفتحت هذه الخطابات وعشت حياة هذه المرأة». تريد إميليا أن تنهي مهمّتها وتعبّئ عربتها وتمضي لأنّ المساء قد حلّ. وعربة الحيّ ستأتي لتحمل كلّ شيء، ولا وقت لديها لهذه المحادثة. تقول لتنهي هذا العبث: «أنت ما زلت صغيرة يا ابنتي ولم تعيشي شيئًا. بعد حين تصبحين في عمري. ستدركين يا صغيرتي أنّ كلّ الأشياء التي عرفناها تصير متشابهة بشكل يُثير الدوار. في عمري يصير كلّ شيء يمرّ عليك كأنّك قد عشته من قبل.. يحدث هذا كثيرًا لي، وأقول إنّه الخرف، لكنّك ما زلت

صغيرة بعد». تجلس على رصيف الأفنيو الرابع الذي امتلأ بقطع الأثاث والصناديق، تدخّن هند سيجارتها وما زال صدرها يبلّل صدريّتها باللبن الحارق الملتهب الذي يجعل لجسدها تلك الرائحة التي تكرهها، حاضنةً بعض الأوراق، يائسةً من أن تفهم ما تودّ أن تقول تلك العجوز، أو تفهم ما تعني. تسير هند تاركة إميليا تجرّ عربتها المثقلة بالأحذية. تصبح للعجوز الروسيّة ملامح «الجدّة زينب»، بتجاعيد كثيفة وسنّة واحدة وعينين حمراوين. تصبح لها رعشة الأرانب التي تأتي من جحورها فجأة تلتهم أكوام الخضرة ثم تركض واجفة باتّجاه الجحور العميقة المدفونة في الأرض. تقول إميليا لها بلهجتها الإنجليزيّة الروسيّة العجيبة، وهي تبتعد كشبح محنيّ الظهر غامض الملامح: «يا ابنتي لا تنزعجي كثيرًا من هذه الأشياء.. يحدث هذا كثيرًا في الحياة. يختلط كلّ شيء مرّة واحدة، نعتقد ما نريد أن نصدّقه، ثم يأتي النسيان فجأة ويمحو الذاكرة بغلظة، فلا ندرك بسهولة من نحن ولا ماذا كنّا، نصبح صورًا متشابهة بطريقة محزنة.. لكن أنت ما زلت صغيرة على هذا كلّه، أنت صغيرة على النسيان يا صغيرتي». تركض هند على الرصيف بسرعة باتّجاه بيتها. تركض لأنّ وجه إميليا صار يخيفها، تفعل كما كانت تفعل في طفولتها، تنام في فراشها وتخبّئ وجهها تحت الغطاء، وتحاول أن تنسى الخوف. في الحلم تأتي أرانب صغيرة كثيرة متشابهة، لها عيون حمراء مثل إميليا، مثل عيون الجدّة زينب. تخرج الأرانب من الجحور وتتسلّق كومة البرسيم في

حوش أبيها، تقضم بخفّة من كومة الخضار، ثم تعود بسرعة إلى الجحور المحفورة في أرض غرفة الكرار. لا يعرف أحد خرائطها عبر الجحور العميقة السفليّة. تطلّ الأرانب من جحورها ـ كما يعتقد العجائز ـ على الموتى، وتسرح في أنفاق المقابر، وتتوالد بين الموت والحياة وتمرح في عوالمها السفليّة، ثم تظهر بخفّة وحذر في أحلامها، تقضم شعرها الذي صار أقصر، فتتحسّس هند من تحت الغطاء سروالها الذي بلّله الخوف.

## الفهرس


١ فلات بوش ........................ ٧

٢ باي ريدج ........................ ٢٩

٣ المقبرة الخضراء ........................ ٤٩

٤ ويندسور ترّاس ........................ ٦١

٥ كوكو بار ........................ ٧٧

٦ تانجو ........................ ١٠٣

٧ أتلانتك أفنيو ........................ ١٣١

٨ فولتون ستريت ........................ ١٥٥

٩ بلوتو في برج الجدي ....................... ١٧١

١٠ بروسبكت بارك ....................... ٢٠٥

١١ بروكلين بريدج ....................... ٢٣٧

١٢ فصل البرد ....................... ٢٥٧

«هند»، المشبعة حتى النخاع بتراثها الشرقي، بكلّ مسرّاته وأوجاعه، يلفظها واقع مشحون بالخيانة والتفسّخ والجحود، تتّجه غربًا في رحلة إلى المجهول، وتقدّم للقارئ، في مخيال باهر، وعبر سرد إنساني رهيف، عملاً مركّبًا متعدّد المحاور يمور بصنوف السلوك الإنساني والتحوّلات الفكريّة والاجتماعيّة ومحاولات التنصير والأسلمة وغرائب اللغط الديني.

**«بروكلين هايتس»**، تجلٍّ ثاقب في إشكاليّات الزمان والمكان، الشرق والغرب، التسامح والتعصّب، في أحدث وأسوإ مجاليها التي تكرّست وتعمّقت خلال العقود الأخيرة عبر فكر متطرّف وسياسات عقيمة وانهيار قيم الأسرة والمجتمع والانتماء.

**ميرال الطحاوي** روائيّة مصريّة، أستاذة زائرة بالجامعات الأمريكيّة، صدرت لها عن دار الآداب روايات «الخباء» و«نقرات الظباء» و«الباذنجانة الزرقاء». تُرجمت جميعها إلى عدّة لغات، ونالت جوائز أدبيّة مرموقة.


تصميم الغلاف رعم الجندي

دار الآداب

هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-175-0

9 789953 891750